

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة قسنطينة 1
كلية الآداب و اللغات
قسم الترجمة
مدرسة الدكتوراه



رقم التسجيل:

الرقم التسلسلي:

أسلوب القسم في القرآن الكريم و ترجمته إلى
اللغة الفرنسية عند محمد حميد الله

مذكرة مقدمة استكمالاً لمتطلبات نيل شهادة الماجستير في الترجمة

إعداد الطالبة:

إشراف الأستاذ الدكتور:

- شمس الهدى بن مسعود

- فرحات معمرى

لجنة المناقشة:

الصفة	الجامعة	الرتبة	اسم الأستاذ(ة) و لقبه (ها)
رئيساً	جامعة قسنطينة 1	أستاذ التعليم العالي	1- حسن كاتب
مشرفاً و مقررراً	جامعة قسنطينة 1	أستاذ التعليم العالي	2- فرحات معمرى
عضواً	جامعة وهران	أستاذ التعليم العالي	3- خليل نصر الدين
عضواً	جامعة قسنطينة 1	أستاذ محاضر	4- يوسف بغول

تاريخ المناقشة:

السنة الجامعية: 2012 - 2013

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شكر و عرفان

الحمد لله و كفى و الصلاة و السلام على النبي المصطفى و بعد:

يشرفني أن أتوجه بالشكر الجزيل و الامتنان العظيم لأصحاب الفضل في إتمام هذا العمل و على رأسهم الأستاذ الدكتور فرحات معمرى الذي أشرف على هذه المذكرة و وهبني من وقته الثمين و أظهر معي صبرا جميلا و حلما جليلا ولم يبخل عليّ بملاحظاته القيّمة و توجيهاته السديدة.

كما أقدم شكري و عرفاني العميقين لجميع أفراد عائلتي الأعزاء الذين كانوا لي خير سند و لم يتوانوا للحظة عن تقديم أيّ عون كلّ حسب استطاعته، و أخصّ بالذكر والدي الحبيبين و أختي الغالية.

كما لا يفوتني شكر أعضاء لجنة المناقشة لقبولهم مناقشة هذا العمل ولتفضلهم بتتبع المعايير التي شابهته، و إثرائه بتوجيهاتهم و ملاحظاتهم القيّمة.

و أوجه شكرا خاصا أيضا إلى جميع أساتذتي الأعزاء بقسم الترجمة في جامعة قسنطينة.

و أخيرا أشكر كلّ من كانت له يد عون في هذا العمل من قريب أو من بعيد.

مقدمة

مقدمة:

من طبيعة الإنسان في كل زمان ومكان الحاجة إلى تأكيد خبر سمعه أو وعد قطعه، والرغبة في الاطمئنان إلى كلام محدّته، والرغبة في اطمئنان محدّته إلى ما يقول هو، وهذا أمر شائع بين البشر أفرادا وجماعات، ولاسيما في الأمور العظيمة، كالمعاهدة بين قوم وقوم أو بين ملك ورعية أو بين أفراد من الناس ليكونوا على ثقة ببعض، فيعلموا الموافق من المخالف، ويميزوا الولي من العدو.

هذه الحاجة إلى التأكيد والاطمئنان دعت الناس إلى استنباط القسم فأقسموا بكل ما هو عظيم و مقدّس عندهم كدليل على صدق كلامهم. فأسلوب القسم من المؤكّدات المشهورة التي تمكن الشيء في النفس وتقويّه، وهو من الأساليب التي عرفها الناس في كثير من اللغات؛ فقد عُرف و شاع عند العرب كما شاع عند غيرهم من الأمم، فاستعملوه في كل ما تدعو الحاجة إلى توثيقه و تحقيقه من الأخبار و الوعود و العهود و الموائيق وغير ذلك مما يستلزم التوكيد فيما يكون من شؤون الأفراد و الجماعات.

و قد ورد هذا الأسلوب كثيرا في القرآن الكريم؛ فكان تارة من فواتح السور القرآنية كما ورد تارة أخرى في ثنايا عدد غير قليل منها. و معلوم أن القرآن نزل بلغة العرب و على أساليب كلامهم و مناحي خطابهم، و على هذا جاءت في القرآن الكريم أقسام متنوعة كان العرب يستعملونها في كلامهم شعرا و نثرا قبل نزوله، و يُستثنى من ذلك صيغة نفي فعل القسم الصريح "لا أقسم".

هذا التنوع في صيغ القسم الواردة في القرآن شدّ انتباه الدارسين إليه و دفعهم إلى إمعان فكرهم فيه؛ فقد أقسم الله عزّ و جلّ بأمر عظيمة كالقسم بنفسه الجليّة و بعمر رسوله الكريم و بالقرآن الحكيم و بالسماء و النجوم و الشمس و القمر... على أمور عظيمة أيضا

كالقسم على صدق رسالة نبيّه و ثبوت القرآن و البعث و غيرها من الأمور التي تستدعي التأمل و التفكير.

و لهذا فقد ظهرت دراسات و بحوث كثيرة في هذا الموضوع قديما و حتى وقتنا هذا، نذكر منها كتاب الإمام ابن قيم الجوزية "التبيان في أقسام القرآن"، و كتاب العلامة عبد الحميد الفراهي "إمعان في أقسام القرآن"، و بحثا للدكتور سليمان بن علي -أستاذ اللغويات المساعد بقسم اللغة العربية و آدابها بجامعة الأغواط (الجزائر)- بعنوان "من أسرار القسم في القرآن الكريم، و بحثا آخر من إعداد الدكتور سامي عطا حسن من جامعة آل البيت- المفرق (المملكة الأردنية الهاشمية) بعنوان "أسلوب القسم الظاهر في القرآن الكريم- بلاغته وأغراضه- و آخر مقدّما لنيل درجة الماجستير في البلاغة و النقد بجامعة أم القرى (المملكة العربية السعودية) من إعداد الطالب علي بن محمد بن عبد المحسن الحارثي بعنوان "أسلوب القسم في القرآن الكريم -دراسة بلاغية"، و قد تناول هؤلاء -إضافة إلى غيرهم أيضا- أسلوب القسم بالدراسة من نواح مختلفة و عنوا به عناية خاصّة، فأشاروا إلى خصائصه النحوية والبلاغية و ذهبوا مذاهب شتى في تفسير معانيه ردّا على بعض الشبهات التي أُثيرت حوله.

و لما كان القرآن هو المعجزة الخالدة التي جاء بها خاتم النبيين صلوات الله و سلامه عليه- و ركيزة قوية يعتمد عليها المسلم في جميع أمور حياته الدينية و الدنيوية، فقد ظهرت الحاجة منذ فجر الإسلام إلى ترجمته إلى اللغات الأخرى لإفادة غير العرب منه سواء أكانوا مسلمين، فتعينهم على فهمه و العمل بأحكامه، أو غير مسلمين، فتكون سبيلا للتعريف به و تنوير العقول. و لذلك عكف الكثير من العلماء منذ القديم على ترجمته إلى لغات شتى و لكن هذه الترجمات عرفت أوجها في القرن العشرين. و يرجع تاريخ ترجمة معاني القرآن إلى عهد النبي صلى الله

عليه وسلم إذ بدأ الصحابة رضوان الله عليهم في ترجمة معانيه إلى مختلف اللغات و قيل إنّ سلمان الفارسي ترجم الفاتحة لأهل فارس بطلب منهم في عهده.

و لا يخفى أنّ ترجمة النصوص الدينية، كالقرآن مثلاً، من أصعب ما قد يقوم به المترجم، و ذلك طبعاً لاختلافه كثيراً عن باقي أساليب الترجمة، و لذلك (لا ينبغي أن يتعرض لمثل هذا النوع من الترجمة إلا شخص مسلّح بخلفية دينية عميقة في الديانة التي يقوم بالترجمة منها أو إليها، بالإضافة إلى اكتمال مؤهلاته كـمترجم).¹ و قد لفتت ترجمة النصوص الدينية المختصين في الترجمة منذ القديم، و كان لها تاريخ حافل، و من أشهر المهتمين بها في العصر الحديث الأمريكي يوجين نيدا Eugene A.Nida (مدير قسم الترجمات بـ "جمعية الكتاب المقدّس الأمريكية"، و منذ صدور أول مؤلّفاته بعنوان: (علم اللغة و السلالات في مشكلات الترجمة، مجلة Word، العدد 1، سنة 1945)، لم يكفّ عن العمل و النشر في هذا المجال. و يتحدّد هذا النشاط بثلاثة كتب، وهي: "ترجمة الكتاب المقدّس" (1947) (بالإنجليزية) و "كلمة الله في لغة الإنسان" (1952) (بالإنجليزية)، و "رسالة و مهمة" (1960) (بالإنجليزية)، و عشرات المقالات الهامة في مجلات: الكلمة Word، و اللغة Language، و I.J.A.L و "مترجم الكتاب المقدّس" (The Bible)².

translator

و لم يتوقف اهتمام نايدا بهذا النوع من الترجمة عند هذا الحدّ بل خاض فيه خوفاً عميقاً حتى كان من المنظرين له، و من بين أهم إنجازاته التي حقّقها من خلال ترجمته للإنجيل ما توصل إليه من نظرية التكافؤ الديناميكي التي تسعى إلى ترجمة مقاصد النص الأصلي بدل اللجوء إلى ترجمة الكلمات والجمل دون الالتفات إلى الوظيفة التواصلية للنص كما تهدف إلى جعل الترجمة ذات جودة عالية في نقل الرسالة من النص المصدر للنص الهدف حتى تكون استجابة قارئ الترجمة كاستجابة قارئ النص المصدر.

¹ - عز الدين محمد نجيب، أسس الترجمة، ط4، مكتبة ابن سينا، القاهرة- مصر، 2001، ص 200.

² - جورج مونا، علم اللغة و الترجمة، ترجمة: أحمد زكريا إبراهيم، مراجعة: أحمد فؤاد عفيفي، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة- مصر، ص180.

و من أشهر المترجمين المسلمين في مجال الترجمة الدينية في العصر الحديث نجد الدكتور محمد حميد الله الذي اختص بنقل معاني القرآن الكريم إلى اللغة الفرنسية ، و تعتبر ترجمته هذه واحدة من أنجح الترجمات التي يُعتمد عليها عالمياً، و ذلك لكونه مسلماً أولاً، على خلاف كثير ممن ترجم القرآن غيره، و ضلّاعته في اللغتين العربية و الفرنسية إضافة إلى غيرهما من اللغات أيضاً.

و لهذه الأسباب فقد تم اختيار هذه الترجمة كمرجع رئيس في هذا البحث للاطلاع على كيفية ترجمة أسلوب القسم الوارد في القرآن الكريم إلى اللغة الفرنسية في محاولة لكشف خصائصه و استنباط مميزاته و كيفية ترجمته وذلك لما يظهر لنا من أهميته.

و على هذا فقد كان اختيار عنوان البحث ليلائم محتواه كآتي: "أسلوب القسم في القرآن الكريم و ترجمته إلى الفرنسية عند محمد حميد الله".

و هذا البحث في عمومه هو محاولة للإجابة عن التساؤلات و الإشكاليات الآتي ذكرها:

- تتوّعت المفردات المستعملة للتعبير عن القسم من أفعال و حروف في اللغة العربية، فكيف ستترجم هذه الأفعال و الحروف لا سيما و أنّ كلا منها يحمل معاني جزئية تختلف عن الأخرى؟ هل سيتوصل المترجم إلى إيجاد مكافئات لكل واحد منها أم أنه سيتترجمها جميعاً على الشاكلة نفسها؟

- ما دلالات و معاني صيغة نفي القسم؟ هل يُقصد بها النفي كما هو ظاهر من

شكلها أم تعبّر عكس ذلك عن الإثبات؟ و كيف ستكون ترجمتها؟

إنّ فقد كانت هذه أهمّ الإشكاليات المطروحة في هذا البحث، و أمّا عن الأسباب التي كانت وراء اختياره فأولها رجاء الثواب من الله عز و جل و خدمة كتابه الجليل و إفادة

المسلمين في مختلف أرجاء المعمورة، إضافة إلى محاولة الإمام بأسرار أسلوب القسم والوقوف على خصائصه و دلالاته في سياقها الكامل، و هو ما لا يتأتى إلا بدراسة النص القرآني لأنه تام السياق و هو أحسن النصوص لكشف الظواهر اللغوية، فضلا عن الرغبة في فهم النص القرآني، ولو جزء يسير منه.

و قد انتهج البحث في مساره مناهج متعدّدة حسب ما اقتضته الضرورة في كلّ جزء منه، فتارة اتّبع المنهج الإحصائي لإحصاء مواضع القسم في القرآن و صيغته المختلفة، و تارة أخرى المنهج التحليلي لتحليل هذه المواضع المختلفة وكيفية ترجمتها.

و طبيعة هذا البحث استلزمت أن يكوّن مقمّمة و بايين: نظريا و تطبيقيا و أخيرا خاتمة.

أمّا المقمّمة فكانت عرضا لطبيعة الموضوع و أهميته و دواعي اختياره و إشكالياته و مناهجه ثم خطّته.

و أما الباب الأول فهو بعنوان: "دراسة نظرية" و يحتوي على فصلين: الأول مخصّص لعرض خصائص أسلوب القسم و مميزاته في اللغتين العربية و الفرنسية، أما الثاني فهو عن ترجمة معاني القرآن الكريم.

و أما بالنسبة للباب الثاني، فهو بعنوان "دراسة تطبيقية" و قد عرضنا فيه بإيجاز ترجمة الدكتور حميد الله و تعريفاً لمدوّنته، ثم قمنا باستقصاء الآيات التي ورد فيها القسم في القرآن الكريم مع تحديد المعنيّ منها بالدراسة التحليلية، و أخيرا تناولنا بالدراسة و التحليل مختلف مواضع القسم المختارة لذلك، حيث قسّمناها بحسب طبيعة المقسم به إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول: يعنى بتحليل الآيات التي ورد فيها القسم بأسماء الله تعالى و صفائه.

الفصل الثاني: يعنى بتحليل الآيات التي ورد فيها القسم بأسماء القرآن الكريم.

الفصل الثالث: يعنى بتحليل الآيات التي ورد فيها القسم بالمخلوقات.

و قد اعتمدنا في تقسيم الفصول على نوع المقسم به كونه العنصر الأهمّ في بناء أسلوب القسم و دلالاته فضلا عن تناسبه غالبا مع ما يُقسَم عليه -كما سيتمّ بيانه فيما يأتي من البحث.

و أما عن الخاتمة، فقد عرضنا فيها أهمّ النتائج المستخلصة من البحث.

و هذا البحث كغيره من البحوث الأخرى لا يخلو من الصعوبات و العثرات، و مما واجهنا منها تَخَيَّر المراجع الأساسيّة وملاحقة المصادر الضرورية للاعتماد عليها في رسم صورة هذا البحث و إبراز ملامحه ثمّ استنتاج الجديد وتأطيره. و لم نعتمد هنا على صنف واحد من الكتب فقط وذلك لتتوّع نواحي الدراسة التي قمنا بها في هذا البحث، بل تتوّعت بين المعجمات و كتب اللغة و كتب النحو والبلاغة والتفسير وعلوم القرآن ومعانيه وكتب الترجمة وغيرها.

و ختاماً نقول:

هذا ما منّ الله به علينا للقيام به في هذا البحث المتواضع الذي ما كان ليتمّ إلا بفضل من الله و توفيقه، ليكون ثمرة جهد و عمل الكثيرين الذين لا يسعنا إلا الإشادة بفضلهم و شكرهم جزيل الشكر لما قدّموه من دعم خلال إنجازهم.

الباب الأول:
الباب الأول:
دراسة نظرية

الفصل الأول:
القسم في اللغتين
العربية و الفرنسية

المبحث الأول: القسم في اللغة العربية

أولاً: تعريف القسم لغة:

القسم واحد من أساليب التوكيد المعروفة في كثير من اللغات، فقد عرف و شاع عند العرب كما شاع عند غيرهم من الأمم، فاستعملوه في كل ما تدعو الحاجة إلى توثيقه و تحقيقه من الأخبار و الوعود و العهود و المواثيق و غير ذلك مما يستلزم توكيد الأمر فيما يكون من شؤون الأفراد و الجماعات.

و لهذا الضرب من التوكيد مصطلحات شاع إطلاقها عليه مثل: القسم أو الاقتسام، و الحلف و اليمين و الشهادة و الألية و العهد و العقد و النذر و الدعاء و الشرط... و جاء هذا الاختلاف تبعاً لاختلاف الجهات التي تأتي منها بحثه و الغرض الذي يقصد منه.

و سنتطرق هنا إلى أكثر هذه المصطلحات شيوعاً و هي القسم و الحلف و اليمين.

1- مادة (ق. س. م): إذا ما بحثنا عن هذه المادة وجدنا لها معنيين رئيسيين هما:

أ- القَسْمُ بسكون السين هو التجزئة و التفريق و جمعه أقسام، و يكون أيضاً بمعنى: قَدَّر و نظر، كقولك: هو يقسم أمره قسماً أي يقدره و يدبره ينظر كيف يعمل فيه.

و قَسَمَهُ بالتضعيف للتكثير، أي جزأه، و منه قوله تعالى: ﴿فَالْمَقْسَمَاتِ أَمْرًا﴾، و قاسم فلان فلاناً أي أخذ كل منهما نصيبه.

ب- القَسْمُ بالتحريك: اليمين بالله تعالى، و الجمع أقسام، و قد أقسم بالله و استقسمه به و قاسمه: حلف له. و تقاسم القوم: تحالفوا كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ﴾ أي طلب بعضهم القسم من بعض. و أقتسم: يقال اقتسموا أي تحالفوا كما في قوله تعالى ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾. و أقسمت: حلفت، و أصله من القسامة و هم الذين يحلفون على حقهم و يأخذونه.¹

¹ - انظر مادة (قسم) في المعجم التالية:

ابن منظور، لسان العرب، ضبط نصه و على حواشيه: خالد رشيد القاضي، ط1، دار صبح و إديسوفت، 2006، ج11، ص147.

"ورد من هذه المادة في القرآن الكريم ثلاثة أفعال مركبة مع حروف الجر:
(أقسم - تقاسم - استقسم). و جميعها أفعال لازمة، ركبت في ستة عشر موضعاً،
و لها جميعاً نمط تركيبى واحد:

- أقسم + بـ: ورد هذا التركيب أربع عشر مرة، و من شواهد الآيات التالية:
﴿أَهْوَلَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ المائدة 53.
﴿وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِيُؤْمِنَنَّ بِهَا﴾ الأنعام 109.
﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَ لَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ القيامة 1 و 2.
• تقاسم + بـ: ورد هذا التركيب مرة واحدة في قوله تعالى:
﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَ أَهْلَهُ﴾ النمل 49.

و هو بمعنى: أقسم بالله، إلا أن بناءه على صيغة (تفاعل) يدل على الاشتراك في الفعل.

- استقسم + بـ: ورد هذا التركيب مرة واحدة في قوله تعالى:
﴿وَ مَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَ أَنَّ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ المائدة 3.
و صيغة (استفعل) تدل على الطلب، و الباء للاستعانة، أي: تطلبوا قسمكم (حظكم)
مستعينين بهذه الأزلام.¹

2- مادة (ي. م. ن): بزيادة ياء قبل الحرف الأخير: يمين و يوزن على فعيل، لها
عدة معان منها: ضد اليسار، و البركة، و القوة، و القدرة، و المنزلة الجليلة، و الدين،
و من معانيها: الحلف و القسم. جمعها: أَيْمَنُ و أَيْمَانٌ.

قيل: إنما سُمِّيَتْ بذلك، لأنهم كانوا إذا تحالفوا ضرب كل امرئ منهم يمينه على يمين
صاحبه.²

الطاهر أحمد الزاوي، ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير و أساس البلاغة، الطبعة الثالثة، دار العربية للكتاب، 1980، ج3، ص620.

¹ - محمد محمد داود، القرآن و تفاعل المعاني. دراسة دلالية لتعلق حرف الجر بالفعل و أثره في المعنى في القرآن الكريم، (دط)، دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع، القاهرة، ج1، ص556.

² - انظر مادة (يمن) في المعجم التالية:

وقال أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله النجيري في كتابه "أيمان العرب في الجاهلية":
 "وأصل اليمين أنهم كانوا إذا تحالفوا وتعاهدوا تصافقوا بأيمانهم، ولذلك قيل : أعطاه صفقة
 يمينه على هذا الأمر، ثم سموا الحلف يمينا على هذا المعنى، وأنثوا اليمين على تأنيث
 اليد، فقالوا : حلف يمينا بارة ويمينا فاجرة".¹

3- مادة (ح . ل . ف) :

لا تخرج هذه المادة عن معنيين رئيسيين هما: القسم والعهد ، والحلف و الحلف بفتح
 الحاء وكسرها لغتان في القسم، فالحلف بكسر الحاء : العهد يكون بين القوم، وقد حالفه :
 أي عاهده ، وتحالف القوم: تعاهدوا ، وفي حديث أنس : "حالف رسول الله - صلى الله
 عليه وسلم- بين المهاجرين والأنصار" يعني آخى بينهم.²
 وقال ابن الأثير : "أصل الحلف المعاهدة والمعاهدة على التعاضد والتساعد والاتفاق،
 فما كان منه في الجاهلية على الفتن والقتال بين القبائل والغارات فذلك الذي ورد النهي عنه
 في الإسلام بقوله - صلى الله عليه و سلم- لا حلف في الإسلام...".³

و قد "ورد من هذه المادة في القرآن الكريم فعل واحد مركب مع حرف الجر، هو
 المجرد (حلف) و هو فعل لازم، رُكِّب في تسعة مواضع، و فيما يلي أنماطه التركيبية:

• حلف + ب: ورد هذا التركيب خمس مرات، و من شواهدة:

﴿ ثُمَّ جَاءُواكَ يَاحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَ تَوْفِيقًا ﴾ النساء 62.

﴿ وَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَ مَا هُمْ مِنْكُمْ ﴾ التوبة 56.

• حلف + ل: ورد هذا التركيب ثلاث مرات، و من شواهدة:

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ المجادلة 18.

الإمام الرازي، الصحاح، عني بترتيبه محمود خاطر، ط2، دار الحديث، 1983، ص590.

الظاهر أحمد الزاوي، ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير و أساس البلاغة، ص682.

¹ - أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله النجيري، أيمان العرب في الجاهلية، تحقيق محب الدين الخطيب، ط2، الدار السلفية بالقاهرة، ص34.

² - الرازي، الصحاح، ص114.

³ - ابن منظور، لسان العرب، ص268.

أي يقسمون. و اللام للاختصاص.

• حلف + ب + ل: ورد هذا التركيب مرة واحدة في قوله تعالى:

﴿ سِيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتَعْرِضُوا عَنْهُمْ ﴾ التوبة 95.

الباء للقسم، و تفيد الإلصاق المعنوي، و اللام للاختصاص¹.

"ومع أن كتب المعاجم ترى أن (الحلف والقسم) لفظان مترادفان يؤديان معنى واحدا من غير فرق أو تمييز بينهما ، وتفسر أحدهما بالآخر، إلا أننا حين نستقري استعمال الكلمتين وأصل اشتقاقهما نتعرف على الفرق بينهما فنجد العرب يقولون : (حلفة فاجر وأحلوقة كاذبة) ولم يرد مثل هذا مع القسم. فالحلف يدور حول الاحتمال والشك والتردد، وبهذا يكون الحالف غالبا معرضا للحنث كثيرا، بأنه حلف على الظن وليس عن يقين"².

و أما القسم فنجد أنه (يرد عاما من الله تعالى وعلى لسان المسلمين والمنافقين والكفار، ويكون في آيات مكية ومدنية، وغالبا ما يكون صادقا، وإن لم يكن كذلك في واقع الأمر، فعلى الأقل في نظر المُقسِم وحسب اعتقاده عند عقد اليمين)³.

"أما الدكتورة عائشة عبد الرحمن فقد جلت هذا الفرق وأوضحتها بقولها: (قد يبدو من السهل هنا أن نفسر (أقسم) بلفظ (أحلف) ، وليس في استعمال العرب لهما ما يمنع من تفسير أحدهما بالآخر ... لكن التتبع للاستعمال القرآني يمنع هذا الترادف، ويأبى أن نفسر القسم بالحلف، إذ جاءت مادة (حلف) في القرآن الكريم في ثلاثة عشر موضعا كلها بغير استثناء في مقام الحنث باليمين: ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةٌ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ

¹ - محمد محمد داوود، القرآن الكريم و تفاعل المعاني. دراسة دلالية لتعلق حرف الجر بالفعل و أثره في المعاني في القرآن الكريم، ج1، ص 155.

² - سامي عطا حسن، أسلوب القسم الظاهر في القرآن الكريم - بلاغته و أغراضه، جامعة آل البيت- المفرق، المملكة الأردنية الهاشمية، ص 7.

³ - المرجع نفسه، ص8.

... ﴿﴾ ، ﴿﴾ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ... ﴿﴾ ، ﴿﴾ وَلَا تَطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ
مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿﴾¹.

ثانياً: تعريف القسم اصطلاحاً:

القسم في الاصطلاح هو ربط النفس بالامتناع عن شيء أو الإقدام عليه بمعنى معظماً
عند الحالف حقيقة أو اعتقاداً.²

و يمكن أن نقول بعبارة أبسط أنه توكيد أمر المحلوف عليه بذكر اسم الله تعالى، أو
صفة من صفاته.

ثالثاً: أركان القسم:

أركان القسم عند النحاة: حرف قَسَمٍ، ومُقَسَّمٌ به، ومُقَسَّمٌ عليه، ومن النحويين من زاد
فيها، كابن خالويه، إذ قال: "واعلم أنَّ القَسَمَ يحتاج إلى سبعة أشياء: أحرف القَسَمِ، والمُقَسِّمِ،
والمُقَسَّمِ به، والمُقَسَّمِ عليه، والمُقَسَّمِ عنده، وزمان، ومكان".³

و لكننا سنتناول أهم هذه الأركان و هي أربعة:

1- المُقَسِّم: وهو إما الله، وإما العباد.

أما قسم العباد فيكون لتأكيد خبر أو دفع شك أو رد إنكار. و أما قسم الله فقد قيل فيه: ما
معنى القسم منه تعالى؟ فالقسم من وسائل التأكيد التي لا تليق به عز و جل لأن من يُقسِم
يضع نفسه موضع المتهم في صدقه، و قد كثر القسم في القرآن الكريم كثرة تلفت النظر
وتدعو إلى التساؤل، و تعددت مذاهب الفقهاء و المفسرين في الرد عليه.

¹ - سمية محمد عناية حاج نايف، صيغة نفي القسم في القرآن الكريم، أطروحة لنيل درجة دكتوراه فلسفة في اللغة العربية، جامعة بغداد،
آب/أوت 2004، ص18.

² - موسى إبراهيم الإبراهيم، تأملات قرآنية- بحث منهجي في علوم القرآن الكريم، طبعة دار الشهاب، ص169.

³ - سمية محمد عناية حاج نايف، صيغة نفي القسم في القرآن الكريم، ص20.

و للإجابة على هذا السؤال، يذكر الإمام الزركشي في كتابه البرهان في علوم القرآن قول الأستاذ أبو القاسم القشيري:

" إنَّ الله ذكر القسم لكمال الحجة و تأكيدها، وذلك أنَّ الحكم يُفصل باثنين: إما بالشهادة و إما بالقسم فذكر تعالى النوعين حتى لا يبقى لهم حجة"¹.

و هذا إنما يكون مع الكافر، أما المؤمن فإنه لا يحتاج إلى شيء من ذلك.

و ذكر بعض المفسرين أن القسم إنما يجيء في القرآن ليقطع طريق الجدل الذي كان متوقعا من المخاطبين، و بخاصة أنه قد جاء لتأكيد عدد من القضايا التي بالغ القوم في إنكارها، و كان من شأنهم مع النبي صلى الله عليه و سلم أنهم كانوا يقولون "إنه يريد التفضل علينا و هو يجادلنا فيما يعلم خلافه، فلم يبق له إلا أن يقسم فأنزل الله عليه أنواعا من القسم بعد الدلائل..."².

و ذكر بعضهم أن القسم إنما جاء في القرآن لأن الناس ليسوا سواء في قبول الأخبار والتصديق بها فمنهم من لا يقر بالشيء إلا بالبرهان الحقيقي، و منهم من لا ينتفع بالبرهان الحقيقي، بل ينتفع بالأشياء الإقناعية نحو القسم.

و يرى بعض العلماء (أن القرآن إنما أنزل بلغة العرب، و إثبات المطالب بالحلف واليمين طريقة مألوفة عند العرب)³.

و هذا الرأي يمكن أن يكون تعليلا لورود أساليب القرآن كافة، إذا احتكنا إلى المؤلف عند العرب، فكل أسلوب في القرآن جار على ما ألف العرب و عرفوا في كلامهم.

2- المُقسَم به: و يكون أمرا جليلا دائما، و قد أقسم العرب في الجاهلية بعمرهم،

فقالوا: "لعمرك، ولعمري، و لعمر أبيك..." و أقسموا بحياتهم، فقالوا: "و حياتك،

¹ - بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق أبي الفضل الديمياطي، دار الحديث- مصر، 2006، ص 647.

² - علي بن محمد بن عبد المحسن الحارثي، أسلوب القسم في القرآن الكريم- دراسة بلاغية، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في البلاغة و النقد، جامعة أم القرى- المملكة العربية المتحدة، 1991، المجلد الأول، ص88.

³ - المرجع نفسه، ص90.

وحياة أبيك...." و أقسموا بالجد فقالوا: "و جدك"، و أقسموا بالعزة، و الرأس، فقالوا: "و عزتك، ورأسك...."

و يبدو لنا أن هذه الألوان من الأقسام تكريم للمقسم به. فعمر الإنسان، و حياته، و رأسه، و شرفه، و عزته، و جدّه... من الأمور المكرمة الغالية عنده، فيحلف بها الحالف تكريماً لنفسه أو لمن يخاطب.¹

و لكن الإسلام حرّم القسم بغير الله لأنه تعظيم لغيره سبحانه و تعالى.

قال رسول الله صلى الله عليه و سلم في النهي عن مثل هذه الأقسام: " من حلف بغير الله فقد أشرك"²، كما روى البخاري بإسناده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه و سلم أدرك عمر بن الخطاب و هو يسير في ركب يحلف بأبيه، فقال: "ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بأبائكم، و من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت"³. إذن فعلى كل مسلم يخاف الله أن لا يقسم إلا بالله أو باسم من أسمائه أو صفة من صفاته عزّ و جلّ، و كل من يخالف ذلك فهو آثم.

الله وحده أن يقسم بما يشاء أما العباد فليس لهم أن يقسموا بغير الله، و كل حلف بغير الله ضرب من الشرك.

و قد قيل: كيف أقسم الله سبحانه بمخلوقاته، و قد ورد النهي علينا ألا نقسم بمخلوق؟
قيل: فيه ثلاثة أجوبة:

(أحدها: أنه حذف مضاف، أي "و ربّ الفجر" و "و ربّ التين"، و كذلك الباقي.
و الثاني: أن العرب كانت تعظّم هذه الأشياء و تُقسّم بها، فنزل القرآن على ما يعرفون.
و الثالث: أن الأقسام إنما تجب بأن يقسم الرجل بما يعظّمه أو بمن يُجلّه و هو فوقه، والله تعالى ليس شيءٌ فوقه فأقسم تارة بنفسه، و تارة بمصنوعاته، لأنها تدلّ على بارئ و صانع.

¹ - بكرى شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن، ط4، دار الشروق، 1980، ص239.
² - محمد عبد القادر أبو فارس، كتاب الإيمان و النذور، (د.ط)، دار الشهاب، باتنة- الجزائر، ص67.
³ - المرجع نفسه، ص66.

و قسمه بالنبي صلى الله عليه و سلم في قوله: "لَعْمُرُكَ" ليعرّف الناس عظمته عند الله، ومكانته لديه).¹

و نلاحظ في أقسام القرآن الكريم أن ما ورد منها على لسان المخلوقات كان قسما بالله دون غيره، أما الله فقد أقسم بنفسه و بمخلوقاته تعظيما لشأنها و بيانا لقدرها و مكانتها. قال الإمام ابن القيم رحمه الله:

"و هو سبحانه يقسم بأمر على أمور، و إنما يقسم بنفسه الموصوفة بصفاته و آياته المستلزمة لذاته و صفاته و إقسامه ببعض مخلوقاته دليل على أنه من عظيم آياته فعلى المسلم أن يحذر من القسم بغير الله و أسمائه و صفاته لما يترتب على ذلك من مخالفة أمر الله و تعظيم غيره سبحانه و تعالى".²

و يذهب ابن القيم في محاولة لتفسير أقسام القرآن إلى الرأي القائل بأن الله تعالى إنما أقسم بنفسه و آياته، و أن القسم بالمخلوقات أيضا من باب القسم بذاته فإنها من آياته. (و أراد بهذا الأصل إزالة شبهة تعظيم المخلوق فوق مكانته، بناء على القول بأن القسم يتضمن تعظيم المقسم به. قال ابن أبي الإصبع: القسم بالمصنوعات يستلزم ذكر الفاعل، إذ يستحيل وجود مفعول بغير فاعل).³

و نضيف أن قسم الله ببعض مخلوقاته إنما هو توجيه لنا لننتفكر في عظمة هذه المخلوقات و نستدل بها على خالقها سبحانه و تعالى.

و لننأمل جلال القسم في قوله تعالى: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ، وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ. إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ. فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ.. ﴾ الآيات 75-78 من سورة الواقعة، و قوله سبحانه: ﴿ وَ النَّجْمِ إِذَا هَوَى، مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَ مَا غَوَى. وَ مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ الآيات 1-4 من سورة النجم. لننظر كيف وجه النظر إلى ما حفظ تلك

¹ - بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ص 647.

² - موسى إبراهيم الإبراهيم، تأملات قرآنية- بحث منهجي في علوم القرآن الكريم، ص 171.

³ - عدنان محمد زرزور، علوم القرآن- مدخل إلى تفسير القرآن و بيان إعجازه، ط1، المكتب الإسلامي للطباعة و النشر، 1981، ص 347.

النجوم في مواقعها فلا تسقط و لا تضطرب، من قدرة قادرة على هذه الصيانة و الضبط، و ما يبعثه هويّ النجوم من رهبة في النفس. و كلا الأمرين دلالة على الخالق، و مثار إعجاب بخلقه، وإيمان به عز و جل.¹

3- جواب القسم أو المُقسَم عليه: القسم يحتاج إلى جواب، و جوابه لا بد أن يكون جملة، و هي المقسم عليه. و جملة جواب القسم إما أن تكون جملة فعلية أو إسمية، مثبتة أو منفية.

و الغالب في المقسم عليه أن يكون جملة خبرية كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ و قد يكون جملة طلبية كقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ الآيتان 92، 93 من سورة الحجر.

و قد (أجاز أبو الحسن الأخفش أن يُتَقَى القسم بلام كي و الفعل المضارع و جعل منه قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ﴾ (التوبة: 62) إذ المعنى: لِيُرْضَنَّكُمْ².

"فإذا كان جواب القسم جملة فعلية مثبتة فعلها مضارع و جب أن يُؤكَّد باللام الواقعة في جواب القسم و نون التوكيد. مثل: و الله ليخرجنَّ العدو مدحورا.

و إذا كان جملة فعلية مثبتة فعلها ماض أُكِّد باللام و قد مثل: و الله لقد فاز الصابر.

و إذا كان جملة اسمية مثبتة أُكِّدَت بِإِنَّ و اللام بعدها. مثل: و الله إنَّ محمداً لعلی حق.

و إذا كان جملة فعلية منفية فعلها مضارع نفيت بـ (لا)، مثل: و الله لا يذهب دم الشهداء بلا ثمن.

و إذا كانت جملة فعلية منفية فعلها ماض نفيت بـ (ما)، مثل: و الله ما قصر من عامل في المصنع.

و إذا كان جملة اسمية منفية نفيت بـ (ما)، مثل: و الله ما الحياةُ مستقرَّةٌ على حال واحدة.¹

¹ - المرجع السابق، ص 352.

² - أحمد خضير عباس، أسلوب التعليل في اللغة العربية، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 2007م، ص 51.

و القسم في الكلام إنما يكون لتأكيدهِ و بيان أهميته و لفت الأنظار إلى حقيقته و كنههِ ولا يكون القسم في الأحوال الظاهرة العادية و دون مقتضى إليه و إلا كان عبثاً و لغوا في الكلام.

قال ابن القيم رحمه الله:

"و المقسم عليه يراد بالقسم توكيده و تحقيقه فلا بد أن يكون مما يحسن فيه ذلك كالأمور الغائبة و الخفية إذا أقسم الله على ثبوتها".²

و يمكن إجمال الأمور المقسم عليها في القرآن في أصول أربعة هي أسس الإيمان، و قد أقسم الله على أنها حق يجب على الخلق معرفتها و الإيمان بها، و هذه الأصول هي:

- تثبيت أساس التوحيد: مثل قوله تعالى: ﴿و الصافات صفا. فالزاجرات زجرا. فالتاليات ذكرا. إن إلهكم لواحد. رب السموات و الأرض و ما بينهما و رب المشارق﴾ الآيات 1- 5 من سورة الصافات.
- تقرير أمر النبوة و الإشادة بصدق القرآن الكريم: و مما جاء فيه قوله تعالى: ﴿يس. و القرآن الحكيم. إنك لمن المرسلين﴾ الآيات 1- 3 من سورة يس.
- إثبات الحياة الأخرى، و ما يتصل بها من حساب، فثواب أو عقاب: كقوله تعالى: ﴿و الذاريات ذروا. فالحاميات وقرأ. فالجاريات يسرا. فالمقسمات أمرا. إنما توعدون لصادق. و إن الدين لواقع﴾ الآيات 1- 6 من سورة الذاريات.
- توضيح المهم من أحوال الإنسان و تصرفاته في هذه الحياة: مثل قوله تعالى: ﴿و التين و الزيتون و طور سينين و هذا البلد الأمين لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا و عملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون﴾ الآيات 1- 6 من سورة التين.

¹ - أحمد مختار عمر، مصطفى النحاس زهران، محمد حماسة عبد اللطيف، النحو الأساسي، ط4، منشورات ذات السلاسل، الكويت، ص306.

² - موسى إبراهيم الإبراهيم، تأملات قرآنية- بحث منهجي في علوم القرآن الكريم، ص 171.

و جواب القسم يذكر تارة - و هو الغالب - و تارة يُحذف، و حذفه من أحسن الأساليب، لأنه يدل على التفضيم و التعظيم، (و أكثر ما يكون هذا إذا كان في نفس المقسم به ما يدل على المقسم عليه، و هي طريقة القرآن، فإن المقصود يحصل بذكر المقسم به؛ فيكون حذف المقسم عليه أبلغ و أوجز (...). فمن هذا قوله تعالى: ﴿ص. و القرآن ذي الذكر﴾ فإن في المقسم به من تعظيم القرآن و وصفه بأنه ذو الذكر، المتضمن لتذكير العباد و ما يحتاجون إليه، و للشرف و القدر، ما يدل على المقسم عليه، وهو كونه حقا من عند الله غير مفترى)¹.

و أيضا كقوله ﴿و الفجرِ و ليلِ عشرٍ، و الشفعِ و الوترِ، و الليلِ إذا يسرٍ، هل في ذلك قسمٌ لذي حجرٍ﴾. فالمراد بالقسم أن الزمان المتضمن لمثل هذه الأعمال جدير أن يقسم الرب عز و جل به، فلا يحتاج إلى جواب. و قيل: مذکور، و هو قوله "إن ربك لبالمرصاد"².

(و ذهب بعض الباحثين إلى ضرورة البحث عن المناسبة بين المقسم به و المقسم عليه، و هذه المناسبة عندهم أخصّ و أدقّ من أن يكون تنوع المقسم به إمعانا في الدلالة على الله تعالى أو على قدرته و عظمته ... بل و يرون في هذا المقسم به بالذات على الأمر المقسم عليه في هذا الموطن صلة مباشرة، أو مناسبة ظاهرة أو خفية، و من الأمثلة لهذه الصلة أو المناسبة الظاهرة... قوله تعالى: ﴿و النجم إذا هوى. ما ضلّ صاحبكُم و ما غوى. و ما ينطق عن الهوى﴾ اختار القسم بالنجم إذا هوى و خرج عن مداره على أن النبي لم يضلّ و لم يخرج عن حدود الرسالة التي أرسل بها، و التي أمر بإبلاغها إلى الناس، و لهذا قال ﴿و ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيّ يوحى﴾ فليس الأمر أمره، و لا القرآن كلامه: ﴿لو تقول علينا بعض الأقاويل. لأخذنا منه باليمين. ثم لقطعنا منه الوتين. فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾ الآيات 44 - 47 سورة الحاقة)³.

¹ - ابن قيم الجوزية، التبيان في أقسام القرآن، علق عليه و صحّحه فواز أحمد زمرلي، ط2، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، 1998، ص: 31:30.

² - بكري شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن، ص244.

³ - عدنان محمد زرزور، علوم القرآن- مدخل إلى تفسير القرآن و بيان إعجازه، ص353.

4- حروف القسم: تحتاج أفعال القسم إلى ما يوصلها إلى المقسم به، و لهذا جيء بحروف القسم الجارّة للمقسم به. (قال الخليل: إنما تجيء بهذه الحروف لأنك تضيف حلفك إلى المحلوف به... و معنى هذا كما شرحه سيبويه أنك... إذا قلت: بالله و والله و تالله فإنما أضفت الحلف إلى الله سبحانه. فهذه الحروف تضيف معنى القسم إلى المُقسَم به...؛ لأن فعل القسم لا يصل بنفسه إلى المقسم به).¹

و من حروف القسم نجد (الباء و الواو و التاء و اللام و من... و لكن الحروف الثلاثة الأولى هي أكثر حروف القسم ورودا في كلام العرب و لم يرد غيرها في القرآن الكريم، وسنأتي الآن على ذكرها بالتفصيل حرفا حرفا.

أ- الباء: هي الأصل في القسم؛ لأنها حرف الجر الذي يعدى به الحلف، يقال أحلف بالله و أقسم بالله و نحو ذلك (... و يؤيد أيضا أنها الأصل في القسم أنها تدخل على المضمّر كما تدخل على المظهر، فنقول بالله لأقومن و به لأفعلن.²

و تتفرد عن باقي حروف القسم بثلاثة أمور هي:

- "جواز إثبات فعل القسم و فاعله مع الباء أو حذفهما؛ نحو: أقسم بالله لأجتهدنّ، أو بالله لأجتهدنّ. أما مع غير الباء فيجب حذف فعل القسم و فاعله.
- جواز أن يكون المُقسَم بالباء اسما ظاهرا، أو ضميرا بارزا، نحو: بربّ الكون لأعملنّ على نشر السلام، بك لأنزلن عند رغبتك الكريمة. أما غير الباء فلا يجزى إلا الظاهر.
- جواز أن يكون القسم استعطافيا"³ - و هو الذي يكون جوابه جملة إنشائية تجيء بعد جملة القسم لتحريك النفس و إثارة شعورها - كما جاء في قول الشاعر:

بِعَيْنَيْكَ يَا سَلْمَى ارْحَمِي ذَا صَبَابَةٍ أَبِي غَيْرَ مَا يُرْضِيكَ فِي السَّرِّ وَالْجَهْرِ.

أما القسم بغير الباء فمقصور - في الرأي الغالب - على القسم غير الاستعطافي.

¹ - علي بن محمد بن عبد المحسن الحارثي، أسلوب القسم في القرآن الكريم- دراسة بلاغية، المجلد الأول، ص 29.

² - عبد السلام محمد هارون، الأساليب الإنشائية في النحو العربي، ط5، مكتبة الخانجي بالقاهرة، 2001، ص 162.

³ - عباس حسن، النحو الوافي، ط3، دار المعارف بمصر، ج2، ص 497.

ب- الواو: هي أكثر حروف القسم استعمالاً، (و تدخل على الاسم الظاهر فقط، نحو قوله تعالى: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ. وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ. وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ. إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾¹).

ج- التاء: أما التاء فلا تدخل إلا على لفظ الجلالة (الله)، نحو قوله تعالى: ﴿... تَاللَّهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ (يوسف: 91).

(و حكي عن الأخفش دخولها على (الربّ) نحو: تربي، و قيده بعضهم بإضافته إلى الكعبة نحو: تـرب الكعبة ... على أن دخولها على غير لفظ الجلالة كقولهم: تربي و تالرحمن و تحياتك غير جائز عند كثير من النحاة و قد وصفه بعضهم بالشذوذ.²)
و جاء في النحو الوافي لعباس حسن:

"و التاء تفيد مع القسم التعجب، و لا تجرّ من الأسماء الظاهرة إلا ثلاثة: (الله - ربّ - الرحمن) و من الشذوذ أن تجرّ غير هذه الثلاثة"³.

و يجري على التاء ما يجري على الواو من حذف لجملة القسم، و في كونها لا تستعمل في الاستعطاف و في عدم جواز دخولها على المضمرة.

د- اللام: من معانيها (الدلالة على القسم و التعجب معاً، بشرط أن تكون جملة القسم محذوفة، و أن يكون المقسم به هو لفظ الجلالة؛ كقولهم: "لله لا ينجو من الزمان حذر" (...)) و من الجائز أن تُحذف هذه اللام و يبقى المقسم به على حاله من الجر بشرط أن يكون لفظ الجلالة).⁴

¹ - عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية: علم المعاني، دط، دار النهضة العربية، بيروت- لبنان، 1984، ص77.

² - علي بن محمد بن عبد المحسن الحارثي، أسلوب القسم في القرآن الكريم- دراسة بلاغية، المجلد الأول، ص32.

³ - عباس حسن، النحو الوافي، ج2، ص489.

⁴ - المرجع نفسه، ج2، ص477.

هـ- من: مكسورة الميم و قد تُضمّ، و هي مختصة بلفظ "رَبِّي" لا يُقسم بها مع غيره (...). وذهب الكوفية إلى أنّ "مُن" المضمومة مقصورة من "أَيُّمَنُ اللهُ"، و المكسورة

مقصورة من "يمين الله".¹

رابعاً: أنواع القسم: القسم إمّا ظاهر و إمّا مضمّر:

1- الظاهر: هو ما صرّح فيه بالقسم و المقسم به²، و معناه أنّ القسم الصريح يمكن أن (يستدل عليه بحرف القسم، مثل قوله تعالى: ﴿وَ السَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلَفٍ﴾، أو يستدل عليه بفعل القسم كقول طرفة:

وَ الْيَتُ، لَا يَنْفَكُ كَشَحِي بَطَانَةً لِعَضْبٍ، رَقِيقِ الشَّفْرَتَيْنِ، مُهَنْدٍ.

أو يستدل عليه بالحرف و الفعل معاً، كقوله تعالى: ﴿وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾، أو يستدل عليه بلفظ من ألفاظ القسم، اسماً كان أو مصدرًا³، كقول زهير:

يَمِينًا، لَنِعَمِ السَّيِّدَانِ وَجَدْتُمَا عَلَى كُلِّ حَالٍ، مِنْ سَحِيلٍ وَ مُبْرَمٍ.⁴

و القسم الصريح نوعان: الأول: ما كان جواب القسم فيه جملة خبرية، و هو الكثير

الشائع من أساليب القسم كقولهم: بالله لأساعدنّ الضعيف...

¹ - عبد السلام محمد هارون، الأساليب الإنشائية في النحو العربي، ص164.

² - موسى إبراهيم الإبراهيم، تأملات قرآنية- بحث منهجي في علوم القرآن الكريم، ص170.

³ - سمية محمد عناية حاج نايف، صيغة نفي القسم في القرآن الكريم، ص22.

⁴ - فخر الدين قباوة، إعراب الجمل و أشباه الجمل، الطبعة الثالثة، دار الأفاق الجديدة، ص 85.

الثاني: ما كان جواب القسم فيه جملة إنشائية، و هو قليل في أساليب القسم و يسمى بالقسم الاستعطافي، و تختص به الباء من بين حروف القسم كقولهم: بالله هل ترحم الضعيف؟...¹

2- القسم غير الصريح أو المضمّر: هو ما لم يُصرّح فيه بفعل القسم و المقسم به ويدلّ عليه اللام المؤكدة التي تدخل على جواب القسم كقوله تعالى: ﴿لَتَبْلُؤُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ أي و الله لتبلون²، أو يدلّ عليه (المعنى كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ {مريم: 71} تقديره "و الله").³

أو: هو ما لا يعلم بمجرد لفظه كون الناطق به مقسماً مثل استعمال الفعل "علم" نحو قولنا: "و لقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق".

كما يمكن أن نميّز أنواعاً أخرى من القسم على أساس الأغراض التي يعبر عنها وهي:

1- القسم التقديسي: و هو إقسام الإنسان بمعبوده، فهو عند المسلمين: أن يقسم بالله أو بصفة من صفاته، فيقول أحدهم: أقسم بالله، أو بعزته، أو بجلاله لأفعلن كذا، و هو أقوى أنواع القسم تأكيداً للمقسم عليه، و هو القسم الشرعي، الذي يآثم الإنسان على نقضه بعد تأكده.

2- القسم التشريفي: يحس الإنسان في نفسه عزة و رفعة، فيحمله هذا إذا أراد تأكيد كلام أن يقول: و رأسي، أو و حياتي، أو لعمرى لأفعلن كذا، و قد يريد إعزاز المخاطب وإكرامه فيقول: و رأسك، أو لعمرك، فكل هذه الأقسام تفيد التأكيد، و مع أنها تشعر بتعظيم المقسم به، إلا أنها لا تصل إلى حدّ التقديس.

3- القسم الاستدلالي: التقديس و التشريف لا يلزمان المقسم به، بل قد يكون حقيراً، أو بغيضاً ثقيلًا، و قد يكون القسم للتذكير بالمقسم به و التنبيه إليه، و قد يكون للاستدلال بالمقسم به على المقسم عليه، أو لتشبيه المقسم عليه بالمقسم به.⁴

¹ - سمية محمد عناية حاج نايف، صيغة نفي القسم في القرآن الكريم، ص 22.

² - موسى إبراهيم الإبراهيم، تأملات قرآنية، ص 170.

³ - الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ص 648.

⁴ - سامي عطا حسن، أسلوب القسم الظاهر في القرآن الكريم- بلاغته و أغراضه، ص 26.

خامسا: صيغة نفي القسم:

ورد في القرآن الكريم استعمال عددٍ من أساليب القسم الصريح والمضمر التي كان العرب يستعملونها في كلامهم شعرا أو نثرا قبل نزوله ، ومنها القسم الصريح بعد الواو كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام:23)، و مما ورد في شعر عنتره قوله:

وَ اللهُ مَا خَلَيْتُ فِي أوطَانِهِمْ
إِلَّا النّوَائِحَ صَارِحَاتٍ فِي الفلَا.

ومن القسم غير الصريح نجد: (لا جرم) وهي بمنزلة (لا بدّ ولا محالة) قال تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنْ لَهُمُ النَّارُ﴾ (النحل:62)، ومن أيمانهم في الجاهلية ((لاجرم لقد أحسنت)).

إلا أن القرآن الكريم انفرد باستعمال صيغة لم ترد في ما وصل من آثار العرب في الجاهلية لا في شعرهم و لا نثرهم، وهي صيغة نفي فعل القسم (لا أقسم).

ومع أنّ العرب في الجاهلية لم يستعملوا هذه الصيغة بمعنى يفيد نفي القسم أو زيادة (لا)، إلا أنّهم استعملوا (لا) النافية قبل حرف القسم والمقسم به، وكثّر عندهم سبقها للقسم بلفظ الجلالة (الله)، نحو قول السموأل:

وقالوا إنه كنز لرغب
فلا والله أغدر ما مشيت

وكثّر في أشعارهم كذلك (لا) النافية تسبق القسم بـ(الأب) كقول امرئ القيس:

فلا وأبيك ابنة العامري
لا يدعي القوم أنني أفر

أمّا صيغة نفي القسم التي انفرد القرآن الكريم باستعمالها، فهذا إحصاء لموضعها في القرآن الكريم:

1- الآيات الكريمة التي وردت فيها صيغة (لا أقسم) في القرآن الكريم:

وهي على وفق ترتيبها في المصحف الشريف¹، قال تعالى:

1- ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ* وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ* إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ (الواقعة: 75-77).

2- ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ* وَمَا لَمْ تُبْصِرُوا لَئِنَّ لَكُمْ لَعَلًّا لِقَوْلِ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ (الحاقة: 38-40).

3- ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ* عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ (المعارج: 40، 41).

4- ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ* وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ (القيامة: 1، 2).

5- ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ* الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾ (التكوير: 15، 16).

6- ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ* وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ* وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ* لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ (الانشقاق: 16-19).

7- ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ* وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ (البلد: 1، 2).

أما ترتيب هذه الآيات الكريمة على وفق نزولها على النبي، صلى الله عليه وسلم، فعلى النحو الآتي:

1- ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ* الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾.

2- ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ* وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾.

3- ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ* وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾.

4- ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ* وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ* إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾.

¹ - سمية محمد عناية حاج نايف، صيغة نفي القسم في القرآن الكريم، ص ص (53، 54).

5- ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ* وَمَا لَأَنْ تَبْصِرُونَ* إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ* ﴾.

6- ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ* عَلَى أَنْ نَبْدَلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ* ﴾.

7- ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ* وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ* وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ* لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ* ﴾.

وإذا تتبعتنا ترتيب السور التي ورد فيها القسم من حيث نزولها على الرسول، صلى الله عليه وسلم، وليس الترتيب الموجود في المصحف الشريف، وجدنا أن البداية كانت مع السور التي فيها قسم صريح من الله، جل شأنه، ثم جاءت بعدها التي وردت فيها صيغة (لا أقسم). فمن السور المكية الأخيرة من حيث ترتيب نزولها: (الحاقة ثم المعارج ثم النبأ ثم النازعات ثم الانفطار ثم الانشقاق)¹ ومن بين هذه وردت صيغة (لا أقسم) في كل من الحاقة والمعارج والانشقاق.

إن فالبداية كانت مع السور التي ورد القسم فيها صريحا من الله، جل جلاله، وخواتم السور المكيّة كانت مع السور التي وردت فيها صيغة (لا أقسم) والسورة المدنيّة الوحيدة التي ورد فيها قسم صريح من الله، جل جلاله، هي سورة النساء في قوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (النساء: 65)، وفي الآية الكريمة قسم لتأكيد حقيقة الإيمان بعد أن كان القسم الصريح في السور المكية توجيهها للناس نحو الإيمان.²

2- آراء العلماء في صيغة (لا أقسم):

اختلف العلماء و المفسرون في عرض أقوالهم لتفسير آيات نفي القسم في القرآن الكريم اختلافاً كبيراً، و تباينت آراؤهم في قوتها وضعفها، وفي بعض الأحيان كانت متضاربة، و من مجمل أقوالهم:

¹ - الزركشي- البرهان في علوم القرآن، ص 136.

² - سمية محمد عناية حاج نايف، صيغة نفي القسم في القرآن الكريم، ص 56.

أ- (لا أُقسِمُ) بمعنى (أقسِمُ)، و (لا) زائدة للتوكيد أو صلة في الكلام، وجودها كعدمه:

وقد استدل أصحاب هذا الرأي بافتراضهم أن (لا) وردت في القرآن الكريم زائدة في مواضع عدّة،¹ و أنها (هنا صلة على عادة العرب، فإنها ربّما لفظت بلفظة "لا" من غير قصد معناها الأصلي، بل لمجرد تقوية الكلام و توكيده كقوله: ﴿ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ ﴾ {طه: 92، 93} يعني أن تتبعني)².

كما اعتمدوا على جوانب أخرى كقولهم: "إنّ القرآن كلّهُ كالسورة الواحدة، ولذلك جوّزوا زيادة (لا) في بداية الكلام".³

وحرف الزيادة في العربية له دور في إثبات الكلام وتأكيدّه، وإن فقد هذا الحرف تأثّر المعنى بفقد معنى التوكيد منه فصار أقلّ درجة. ومن هنا نفهم أن حرف الزيادة ليس عبئاً إضافياً أو شيئاً مهماً يمكننا أن نتخلص منه بسهولة. وأحرف الزيادة في العربية متعددة، منها: (الباء) في خبر ليس وفي التعجب، و(من) في الجملة المنفية وبعدها نكرة، و(لا) مثل قول الشاعر:

لا لا أبوح بحب بثنة إنها أخذت علي موثقا وعهودا⁴.

فلو لم نعتبر لا زائدة لانقلب المعنى من النفي إلى الإثبات لأن نفي النفي إثبات، فصار قصد الشاعر إنه سيبوح، والمعنى الأصلي لا أبوح وهو المراد، و (لا) زائدة.

ب- (لا) في (لا أُقسِمُ) ردُّ لكلامٍ يُخالف المُقسَمَ عليه، و(أقسِمُ) كلامٌ مُستأنف:

ورد هذا الرأي عند كثير من المفسرين والنحويين، فمنهم من ذكره رأياً ضمن الآراء التي قبلت في صيغة (لا أُقسِمُ)، ومنهم من تبناه معنى لـ(لا) في الصيغة نفسها.

¹ - المرجع نفسه، ص 93.

² - محمد الأمين بن محمد بن المختار الحكيني الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، إشراف مكتب البحوث و الدراسات، (د ط)، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، 1995م/ 1415هـ، ج8، ص370.

³ - سمية محمد عناية حاج نايف، صيغة نفي القسم في القرآن الكريم، ص125.

⁴ - www.asdaff.com منتديات أصداف/ الصدقات الإسلامية/ الإسلام و الشريعة/ القسم في القرآن الكريم - شوهد يوم 2011/01/20 على

قال الفراء في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِبِئَمِّ الْقِيَامَةِ﴾ (القيامة:1).

(... ولكنَّ القرآن جاء بالردِّ على الذين أنكروا: البعث، والجنة، والنار، فجاء الإقسام بالردِّ عليهم في كثيرٍ من الكلام المُبتدأ منه، وغير المُبتدأ: كقولك في الكلام: لا والله لا أفعل ذلك؛ جعلوا (لا) وإن رأيتها مُبتدأة ردًا لكلامٍ قد كان ماضي).¹

كما جاء في كتاب "أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن" لمحمد الأمين الحكيني الشنقيطي:

"كلَّ يمين قبلها ردّ كلام، فلا بدّ من تقديم (لا) قبلها، ليفرق بذلك بين اليمين التي تكون جحدا و اليمين التي تُستأنف"².

ج- (لا أُقْسِمُ) أصلها (لأُقْسِمُ) :

أي إنّ (لا) الواردة في صيغة (لا أُقْسِمُ) هي لامٌ أُشْبِعَتْ فتحتها فصارت (لا) والأصل: (لأُقْسِمُ).

يعتمد هذا الرأي على قراءة وردت في آية القيامة "لَا أُقْسِمُ بِبِئَمِّ الْقِيَامَةِ" (القيامة:1) دون سواها من الآيات التي وردت فيها الصيغة.

قال ابن جرير: اختلف القراء في قراءة قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِبِئَمِّ الْقِيَامَةِ﴾، فقرأت ذلك عامة قراء الأمصار: "لا أقسم" مفصولة من أقسم سوى الحسن و الأعرج، فإنه ذكر عنهما أنّهما كانا يقرآن ذلك: "لأقسم بيوم القيامة" بمعنى: أقسم بيوم القيامة.³

حين أُغِيَت الألف من (لا) الواقعة في صيغة (لا أُقْسِمُ) على وفق القراءة المذكورة في الآية الكريمة، أُلْغِيَ مع الألف معنى (النفى) في قوله تعالى: (لا أُقْسِمُ) وأصبحت (لا) لامًا أُلْحِقَتْ بالفعل (أُقْسِمُ) لتصير (لأُقْسِمُ).⁴

¹ - الفراء، معاني القرآن، ط3، عالم الكتب، بيروت، 1983، ج3، ص207.

² - محمد الأمين بن محمد بن المختار الحكيني الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ج8، ص369.

³ - المرجع نفسه، ج8، ص369.

⁴ - سمية محمد عناية حاج نايف، صيغة نفي القسم في القرآن الكريم، ص145.

ولام الابتداء لا تدخل على الفعل ودخولها في الآية على جملة من مبتدأ وخبر،
والتقدير: فلأنا أقسم ثم حذف المبتدأ.

د- (لا) في صيغة (لا أقسم) نفي للقسم:

أي أن الله عز و جل يرفض و يمتنع عن القسم، و منه فالصيغة تؤدي معنى (لا أقسم)
أو (لن أقسم). و قد ذكر العلماء و المفسرون جملة من الآراء في محاولة منهم لشرح
الصيغة فقالوا:

- هي تنزيه لله سبحانه و تعالى أن يقسم على أمر لا يحتاج إلى قسم.
 - القصد منها المبالغة في تحقيق حرمة المقسم به.
 - تعظيم المقسم عليه و تفخيم شأنه، و أن يكون أهم من أن يُقسم عليه بأمر هينة.
 - لا ضرورة للقسم إذ الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم أصلاً.
- ه- آراء متفرقة:

ورد في كتب التفسير عدد من الآراء المتفرقة التي قيلت في (لا) الواردة في صيغة
(لا أقسم)، وهي آراء سطحية لم تُنسب إلى أحد، ولم يكن ذكرها في كتب التفسير إلا
لغرض الرفض والتضعيف والإنكار، أو لإيرادها ضمن آراء قيلت في (لا)، أي
للعرض فحسب، وهذه الآراء هي:

- (لا أقسم) بمعنى (ألا) للتنبيه: قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ
بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ (الواقعة: 75) : (وقيل: (لا) بمعنى (ألا) للتنبيه كما قال: *ألا عم
صباحاً أيها الطلل البالي* ونبه بهذا على فضيلة القرآن ليتدبروه وإنه ليس بشعرٍ
ولا سحرٍ ولا كهانةٍ كما زعموا)¹

¹ - شمس الدين القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: هشام سمير البخاري، دط، دار عالم الكتب، الرياض-السعودية، 2003، ج17، ص223.

- (لا أُقسِمُ) كلمة قسم: ورد هذا المعنى عند القاسمي في تفسيره قوله تعالى: "فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ" (الواقعة: 75) حين قال: (... وأما (لا أُقسِمُ) بتمامها صيغة من صيغ القسم، على ما ارتضاه بعض المحققين)، هذا الرأي لا يمكن وصفه إلا بالرأي الغريب، لأنه تجاهل وجود (لا) بشكل كامل، بل ألغى حتى معنى النفي فيها، وأدمج رسمها بـ(أُقْسِمُ) إدماجاً تعسفياً حتى ظهر له أن (لا أُقسِمُ) كلمة واحدة بمعنى (أُقْسِمُ)، ولم يذكر مع الرأي الهدف من وضع (لا) قبل (أُقْسِمُ) ولم يذكر لها نظائر من العربية في غير القرآن الكريم.¹

- (لا أُقسِمُ) معناها الاستفهام الإنكاري: قال الرازي، وهو يعرض معنى نفي القسم في قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ (... أن يكون الغرض منه الاستفهام على سبيل الإنكار، والتقدير: ألا أُقسِمُ بيومِ القيامة. ألا أُقسِمُ بالنفسِ اللوامة على أن الحشر والنشر حق)².

وهذا القول يدعونا إلى زيادة همزة الاستفهام إن لم يكن برسمها فبحضور معناها، وليست زيادتها في المعنى بالأمر الهين، لأن مجرى الكلام سيتحوّل من أسلوب النفي إلى أسلوب الاستفهام، ونحن نعلم أنه لا يجوز لنا الزيادة في كلام الله تعالى، فالله، جلّ جلاله، لا يعوزه الكلم، فإن كان المراد هو الاستفهام فما المانع من ذكر همزة الاستفهام قبل (لا).

- (لا) في (لا أُقسِمُ) بمعنى الاستثناء: ذكر هذا الرأي الزركشي في كتابه البرهان في علوم القرآن حيث قال: و أجاز الخارزجي في "لا أُقسِمُ بيومِ القيامة" (القيامة: 1) كون (لا) منه بمعنى الاستثناء فحذفت همزة وبقيت (لا).³

¹ - سمية محمد عناية حاج نايف، صيغة نفي القسم، ص 153.

² - المرجع السابق، ص 154.

³ - الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ص 1144.

بعد هذا العرض لآراء العلماء حول تفسير و معاني صيغة نفي القسم (لا أقسم) نصل إلى نهاية المبحث الأول الذي أوردنا فيه خصائص أسلوب القسم في اللغة العربية لننتقل بعده مباشرة إلى المبحث الثاني الذي سنتناول فيه أسلوب القسم في اللغة الفرنسية.

المبحث الثاني: القسم في اللغة الفرنسية

الفصل الثاني:
الفصل الثاني:
الترجمة الدينية

- تمهيد:

تطرقنا فيما سبق إلى أسلوب القسم و خصائصه في اللغة العربية، حيث رأينا التعريف اللغوي و الاصطلاحي للقسم، ثم أركان القسم من مُقسِم و مُقسَم به و مُقسَم عليه و مختلف حروف القسم و معانيها و استعمالاتها و أخيراً أنواع القسم. و الآن نحاول أن نبحث في أسلوب القسم و خصائصه في اللغة الفرنسية، و نبدأ بتعريفه اللغوي ثم صيغته.

أولاً: تعريف القسم وصيغته : (Définition et formules du serment)

إذا ما بحثنا عن معاني الفعل "Jurer"، بمعنى "أقسم"، في القواميس الفرنسية وجدنا ما يأتي: جاء في قاموس « le petit Larousse 2009 »:

Jurer: Prononcer solennellement un serment en engageant un être ou une chose que l'on tient pour sacrés.¹

[يقسم: يلفظ يمينا بجلال مع إشراك ذات أو شيء يُعتبر ذا قداسة]².

كما يورد القاموس الحرّ "ويكسيونير" (Wiktionnaire- Le dictionnaire libre)

عدّة معاني هي:

1. Affirmer par serment, en prenant un dieu, ou quelqu'un, ou quelque chose à témoin.

[يؤكد عن طريق القسم باتخاذ إله أو شخص أو شيء شاهدا على ذلك]³.

2. (Souvent) Confirmer, ratifier une chose par serment ; s'engager par serment à quelque chose.

[غالبا) يؤكد أو يقرّ أو يرتبط بشيء ما تحت القسم]⁴.

3. (Simplement) Assurer, certifier une chose.⁵

¹ - Le petit Larousse 2009, dictionnaire multimédia.

² - ترجمة ذاتية.

³ - ترجمة ذاتية.

⁴ - ترجمة ذاتية.

⁵ - fr.wiktionary.org/wiki / jurer- consulté le lundi 19 novembre 2012 à 09h 44m.

[ببساطة) يضمن أو يؤكد شيئاً¹].

أما "DICTIONNAIRE DE THEOLOGIE" الذي يختص في إعطاء المعاني

من وجهة نظر دينية فجاء فيه ما يلي:

Jurer, c'est prendre Dieu à témoin de la vérité d'un discours, ou de la sincérité d'une promesse, et faire une imprécation contre soi-même, si l'on ment, ou si l'on n'accomplit pas ce que l'on promet : c'est donc un acte de religion par lequel on fait profession de craindre Dieu et sa justice.²

يقسم أي يتخذ الله شاهداً على صدق كلامه أو وعده و يدعو بالسوء على نفسه ليصيبه في حالة كذبه أو عدم وفائه بما يعد به، و بهذا يكون القسم فعلاً دينياً يظهر من خلاله خشيتنا من الله و من عدالته³.

إذن فقد كانت هذه أهم معاني الفعل "Jurer" في اللغة الفرنسية، و إذا ما بحثنا عن مصدره وجدنا لفظ "jurement" الذي يعنى "القسم"، و لكن هذه الكلمة ليست مستعملة أو رائجة للتعبير عنه، و إنما نلاحظ استعمال كلمة أخرى أكثر شيوعاً و هي "serment"، و قد جاء تعريف هذه الكلمة في القواميس الفرنسية على أنها:

- "Affirmation solennelle, en vue d'attester la vérité d'un fait, la sincérité d'une promesse, l'engagement de bien remplir les devoirs de sa profession (officiers ministériels, avocats, médecins) ou de sa fonction (garde-chasse)".⁴

¹ - ترجمة ذاتية.

² - L'abbé Bergier, Dictionnaire de théologie, tome 4, p397.

³ - ترجمة ذاتية.

⁴ - Le petit Larousse illustré- 2001, p935.

[تأكيد رسمي لإظهار حقيقة فعل أو صدق وعد أو التعهد بإتمام واجبات مهنته أو وظيفته]¹.

- "Affirmation ou promesse solennelle faite en invoquant un être ou un objet sacré, une valeur morale reconnue, comme gage de sa bonne foi."²

[تأكيد أو وعد رسمي يتم باستدعاء ذات أو شيء مقدّس، فهو قيمة معنوية معترف بها كضمان على حسن النية]³.
كما نجد أيضا:

On appelle serment l'acte par lequel une personne prend Dieu à témoin de la vérité d'une affirmation ou de la sincérité d'une promesse.

[يُطلق القسم على الفعل الذي يتخذ فيه شخصٌ اللهَ شاهداً على حقيقة خبر أو صدق وعد]⁴.

أما الموسوعة الحرة "ويكيبيديا" (Wikipédia, l'encyclopédie libre) فإنها تعرّف القسم _____م (le serment) كالآتي:

Un **serment** est, d'une manière générale, une affirmation solennelle et codifiée qu'une personne fait par voie orale en vue d'attester la vérité d'un fait, la sincérité d'une promesse, l'engagement de bien remplir les devoirs de sa fonction.⁵

¹ - ترجمة ذاتية.

² - Le Robert quotidien- Dictionnaire pratique de la langue française, 1996.

³ - ترجمة ذاتية.

⁴ - ترجمة ذاتية.

⁵ - <http://fr.wikipedia.org/wiki/serment>, consulté le 19/11/2012 à 10h 03m.

[القسم، بصورة عامة، هو تأكيد رسمي و مقنن يتلفظ به الشخص شفها ليثبت حقيقة حدثٍ أو صدقٍ وعدٍ أو التزامه بالقيام بكافة واجبات وظيفته]¹.

و يورد « Le grand vocabulaire français » (المعجم الفرنسي الكبير) التعريف الآتي:

Affirmation d'une chose en prenant à témoin Dieu, ou ce que l'on regarde comme saint, comme divin.²

[تأكيدُ شيء، و ذلك باتخاذ الله أو غيره ممّا نعتبره مقدّساً أو إلهياً شاهداً على ذلك]³.

كما نجد في مجموعة من القواميس الإلكترونية

(Mediadeco, Académie française et Littré) التعاريف الآتي ذكرها:

Définition Mediadico

Affirmation, promesse que l'on fait sur son honneur ou en prenant à témoin ce que l'on regarde comme sacré .

[تأكيدٌ أو وعدٌ يقطعُه الشخص على شرفه أو يتمّ باتخاذ ما يعتبره مقدّساً شاهداً على

ذلك]⁴.

Dictionnaire de L'académie française (8ème édition)

Affirmation ou promesse faite en attestant Dieu, un être ou un objet sacré.¹

¹ - ترجمة ذاتية.

² - Le grand vocabulaire français, Par une société de gens de lettres, tome 26, p 308.

³ - ترجمة ذاتية.

⁴ - ترجمة ذاتية.

[تأكيد أو وعد يتمّ بإشهاد الله أو شخص أو شيء ذي قداسة]².

من خلال إمعان النظر في هذه التعاريف، نتوصل إلى أنها تشترك مع التعاريف العربية للقسم في نقطتين أساسيتين هما:

- القسم ضرب من أضرب التوكيد، حيث يأتي لتأكيد خبر أو لإثبات حسن نية أو للتعبير عن صدق وعد... .
- ارتباط معنى القسم بالمقدّسات، حيث يكون باتخاذ شخص أو شيء مقدّس بالنسبة للمتكلم كشاهد على صدق كلامه، غالبا ما يكون الآلهة.

و هذه النقطة الثانية تقودنا إلى البحث في الدلالة الدينية للقسم، إذ الملاحظ عن القسم أنه متداول عند جميع الشعوب، و أنه ذو طابع ديني؛ فهو يختلف من شعب لآخر بحسب ديانته، و هذا ما أكده الدارسون منذ القدم، إذ ينقل لنا "شارل شاربي" (Charles CHARRIER) تعريف سيسيرون (Cicéron) للقسم الذي أجزه في قوله:

« A Rome, Cicéron caractérise d'un mot le serment : *affirmatio religiosa*, et cette définition est aussi exacte que concise ».³

[في روما، وصف سيسيرون القسم بكلمة قائلا: تأكيد ديني، و هذا التعريف دقيق بقدر ما هو موجز]⁴.

كما يزيد على ذلك في موضع آخر قوله:

« La forme du serment (...) est telle qu'est la religion de chaque pays ».⁵

¹ - www.mediadeco.com/dictionnaire/definition/serment, consulté le 17/11/2012.

² - ترجمة ذاتية.

³ - Charles Charrier, Le serment : étude de droit positif et de législation, Thèse pour le doctorat, Université de Paris- Faculté de droit, 1899, p13 (source : gallica.bnf.fr/ Bibliothèque nationale de France).

⁴ - ترجمة ذاتية.

⁵ - Même référence, p5.

[صيغة القسم ترتبط بديانة كل بلد]¹.

و يوافقهُ "رينيه موتيرد" (René MOUTERDE) الرأي بقوله:

« Les formes de la prestation du serment varient suivant les temps et suivant les croyances des peuples ; mais elles ont toujours pour but de faire impression sur la conscience de celui qui jure et de lui inspirer une crainte salutaire du mensonge »².

[تختلف صيغ أداء القسم بحسب الأزمنة و معتقدات الشعوب، و لكنها تهدف دائما إلى إعطاء انطباع عن نزاهة المُقسم و توليد خوف إيجابي في نفسه من الكذب]³.

إذن فالغاية من استعمال القسم واحدة؛ إذ أنّ المُقسم -مهما كانت ديانتَهُ- يسعى من خلال القسم إلى إثبات صدقه. و لكن الاختلاف يُلاحظ في الصيغة، فهذه الأخيرة تختلف بين الشعوب باختلاف ديانتهم، و مع ذلك فإنّ المُقسم به دائما ما يكون مُقدّسا و ذا مكانة رفيعة مميزة في النفوس و غالبا ما تكون له أبعاد و دلالات دينية.

فعرّب الجاهلية مثلا كان من عاداتهم القسم بأسماء الأصنام (كالكالات و العزّي) و القسم بالعمر و بالأبَاء و الأجداد... و بعد مجيء الإسلام حرّم القسم بغير الله، فلا يجوز للمسلم أن يُقسم إلا بالله أو أسمائه و صفاته. أما النصارى فنلاحظ عندهم تعدّد المُقسم به؛ فهم يُقسمون بالمسيح و بأسماء مريم العذراء و بالروح القدس كما يُقسمون بالسماء و بالإنجيل وبالقدّيسين...، مع أنّ الأصل عندهم أيضا منع ذلك؛ إذ نجد هذا النقل لنص من نصوص الإنجيل عن المسيح يقول فيه:

« ... pour moi, je vous dis de ne pas jurer du tout, ni par le ciel qui est le trône de Dieu, ni par la terre qui est son marche-pied, ni par Jérusalem

¹ - ترجمة ذاتية.

² - René Mouterde, Du serment considéré comme moyen de preuve en droit civil ; romain et français, Thèse pour le doctorat, Faculté de droit de Paris, 1871, p13 (source : gallica.bnf.fr/ Bibliothèque nationale de France).

³ - ترجمة ذاتية.

qui est la ville du grand Roi, ni par votre tête, puisque vous ne pouvez pas changer la couleur d'un seul de vos cheveux».¹

[... أما أنا فأقول لكم: لا تقسموا البتة، لا بالسماة التي هي عرش الله، و لا بالأرض التي هي موطن قدميه و لا بالقدس التي هي مدينة الملك العظيم، و لا بروؤوسكم لأنكم لا تملكون أن تغيروا لون شعرة واحدة منها]².

من خلال تحليل هذا النص نفهم أن المسيح لم ينهاه عن القسم بغير الله فحسب بل نهى عن مُطلق القسم نهائياً (*je vous dis de ne pas jurer du tout*) مُذكراً العباد بضعفهم أمام خالقهم، و لهذا لا يجوز لهم أن يقسموا بغيره، إذ لا يملكون أن يغيروا شيئاً دون إرادته.

و هذا ما أكدّه "دوغرونبون" (De Grandpont) في بحثه "قدسية القسم"

(Sainteté du serment) حين قال:

« Le sauveur recommande à la vérité à ses disciples de ne jurer en aucune façon ; comme Solon avait dit auparavant : (...) Soyez entre vous si fidèles que nul n'ait à révoquer en doute la bonne foi d'un autre »³.

[يوصي المسيح تلاميذه بقول الحقيقة و أن لا يقسموا بأي وجه من الوجوه، كما قال سولون من قبل: ... كونوا صادقين مع بعضكم البعض بحيث لا يشك أحدكم في حسن نية الآخر]⁴.

و لكن بعض رجال الدين النصارى من المعاصرين يرون بأن المقصود من هذا النهي أعمق من المعنى الحرفي و بأن المراد منه يقتصر على القسم في الكلام العادي المتداول بين الناس في حياتهم اليومية و يخرج عن ذلك القسم على أمور قانونية في المحاكم و غيرها:

¹ - Bergier, Dictionnaire de théologie, tome 4, p397.

² - ترجمة ذاتية.

³ - A.Guichon de Grandpont, Sainteté du serment, Cherbourg- imprimerie de Thomine, 1846, p9.

⁴ - ترجمة ذاتية.

Le Sauveur parle du discours ordinaire, et non des actes publics de justice : les jurements qu'il condamne n'étaient certainement pas des formules usitées devant les juges.¹

[يتحدّث المسيح عن الكلام العادي و ليس عن الأفعال العمومية المتعلقة بالقضاء، فالأقسام التي يمنعها ليست بالتأكيد تلك المؤدّة أمام القضاة]².

و يبدو أنّ الأصل في منع القسم بدأ قبل هذا بمنع إحدى صيغته الدينية القديمة و هي اللعنة أو الدعاء بالسوء (imprécation)؛ و التي سبق الإشارة إليها في التعريف الديني للقسم حسب (Dictionnaire de théologie):

« ... et faire une imprécation contre soi-même, si l'on ment, ou si l'on n'accomplit pas ce que l'on promet ».³

[... و يدعو بالسوء على نفسه ليصيبه في حالة كذبه أو عدم وفائه بوعده].

إذ جاء عن منع استعمال هذه الصيغة من القسم:

Jésus- Christ réproouve les imprécations que l'on fait contre soi-même en disant :

« Ne jurez point par votre tête ; en effet, lorsqu'un homme jure ainsi, c'est comme s'il disait : Je consens à perdre la tête ou la vie, si je ne dis pas la vérité. Or, c'est à Dieu seul de disposer de notre vie ; nous n'avons aucun droit d'y renoncer sans son ordre. Il nous est défendu de souhaiter du mal au prochain, à plus forte raison de faire contre lui des imprécations (...) Le respect que nous devons à Dieu et à son saint nom

¹ - www.entretienschretiens.com consulté le : 26/11/2012 à 23h :04m.

² - ترجمة ذاتية.

³ - L'abbé Bergier, Dictionnaire de théologie, tome 4, p397.

doit nous empêcher de l'invoqué par légèreté ; à plus forte raison par colère et par brutalité.»¹

يستتكر المسيح اللعنات التي يلقيها الشخص على نفسه قائلاً: "لا تقسموا أبدا برؤوسكم، فعندما يقسم امرئ برأسه فكأنما هو يقول: أنا أقبل بفقدان رأسي أو حياتي إن لم أقل الحقيقة. والحال أن الله وحده يملك حياتنا، فليس لنا أدنى حق في التخلي عنها دون إذنه. لقد نهانا عن تمني السوء لذوي القربى، فما بالك بأن نتمناه لأنفسنا (...). إن الاحترام الذي ينبغي أن نكنه لله و لاسمه المقدس يفرض علينا الامتناع عن استحضاره في صغائر الأمور لا سيما عند مواقف الغضب و الوحشية"².

إن فالمسيحية لم تتكبر هذا النوع من القسم فحسب، بل أنها استهجنـت القسم دون ضرورة و اعتبرت أنه من مخلفات العصور البربرية، فقد نهى المسيح عن التلاعب باسم الله المعظم من خلال الإقسام به على كل كبيرة و صغيرة.

و لكن هذه الصيغة المنهي عن استعمالها قد لفتتنا في كثير من المواضع مما يشير إلى أنها كانت شائعة و كثيرة الاستعمال، و نذكر منها:

- La première de ces formulations est **liée à la malédiction** : un personnage désireux de garantir solennellement la véracité d'une déclaration ou la solennité d'un engagement, **se voue lui-même à sa perte s'il ment.**³

¹ - Même référence, p399

² - ترجمة ذاتية.

³ - Danièle Aubriot-Sévin, Formulations possibles du serment et conceptions religieuses en Grèce ancienne, Kernos [En ligne], 4 | 1991, consulté le 10 octobre 2012. URL : <http://kernos.revues.org/291> ; p 91.

[أولى هذه الصيغ مرتبطة باللعنة: أي أن شخصا ما حينما يريد أن يؤكد رسميا بأن

قوله صادق أو أن تعهده جاداً، فإنه ينذر هو نفسه خسارته في حالة كذبه]¹.

- On voue la personne ou l'objet qui est cher, à **la vengeance de Dieu** au cas de parjure.²

[نكرس الشخص أو الشيء العزيز على أنفسنا لانتقام الله في حالة الحنث]³.

و أيضا:

- Le serment est une déclaration que fait une personne en prenant Dieu à témoin de sa sincérité et **en se vouant aux châtements divins** pour le cas où elle ne serait pas sincère. Elle contient ainsi deux éléments religieux : l'invocation et **l'imprécation ou exécution**.⁴

[القسم هو تصريح يقوم به شخص متّخذاً الله شاهداً على صدقه و مكرّساً نفسه للعقاب

الإلهي في حال كان هذا التصريح كاذباً، و بذلك فهو يشمل عنصرين دينيين: الابتهاال إلى

الله و إلقاء اللعنة على الذات]⁵.

من هذا التعريف يمكننا القول بأن القسم عند النصارى يقوم بصورة أساسية على

عنصرين: أما العنصر الأول (l'invocation) فمعناه التوجّه بالقسم إلى الله و إتهاده على

صحته:

- L'invocation est ordinairement un appel à Dieu lui-même.⁶

[الابتهاال هو نداء موجّه إلى الله نفسه]⁷.

¹ - ترجمة ذاتية.

² - Charles Charrier, Le serment : étude de droit positif et de législation, p7.

³ - ترجمة ذاتية.

⁴ - Référence précédente, p3.

⁵ - ترجمة ذاتية.

⁶ - René Mouterde, Du serment considéré comme moyen de preuve en droit civil ; romain et français, p14

⁷ - ترجمة ذاتية.

و أما العنصر الثاني (l'imprécation) فهو أن يدعو الإنسان على نفسه بأن يصيبه مكروه أو أن يفقد عزيزا إن هو حنث في قسمه.

L'imprécation est l'acte par lequel celui qui jure appelle sur sa tête, s'il se parjure, les foudres de la justice suprême et la peine due à son impiété.¹

[إلقاء اللعنة على الذات هو أن يقوم المُقسِم باستدعاء غضب العدالة العليا على نفسه، وأن تُسلط عليه العقوبة جرّاء معصيته في حالة حنثه بقسمه]².

و الأمر المُلاحظ هنا هو غياب إشهد الآلهة على ما يقسم عليه:

On voit que les dieux ne sont pas invoqués, qu'ils n'ont pas le moins du monde à intervenir : le jureur est le sujet du verbe (exprimé à la première personne de l'optatif), et aucune volonté extérieure n'est sollicitée.³

[نلاحظ غياب الابتهاال إلى الآلهة و عدم إشراكهم و لو بأدنى قدر في هذا النوع، حيث يكون المُقسِم هو من يقوم بالفعل (الذي يأتي تصريحه مع ضمير المتكلم في صيغة التمني) ولا التماس لأية إرادة خارجية]⁴.

و يرد مثال ذلك على لسان "كريون" (Créon) في أسطورة "أوديب" (Edipe) بقوله:

Ainsi fait Créon* dans Œdipe-Roi, pour donner de sa loyauté envers Œdipe la plus solide affirmation: « *Que toute chance m'abandonne et*

¹ - Même référence, p15.

² - ترجمة ذاتية.

³ - Danièle Aubriot-Sévin, Formulations possibles du serment et conceptions religieuses en Grèce ancienne, p92

⁴ - ترجمة ذاتية.

*- Créon selon la Mythologie grecque est le roi de Thèbes dans le mythe d'Œdipe.

*que je meure à l'instant même sous ma propre imprécation, si j'ai jamais fait contre toi rien de ce dont tu m'accuses».*¹

متلما أكدّ كريون في "الملك أوديب" على ولائه له بأقوى صور التأكيد قائلاً: "ليهجرنى الحظّ و لتفارقني الحياة في الحين بلعنة مني على نفسي إن أنا قمت قطّ بشيء واحد ضدّك ممّا تتهمني به".²

استنادا إلى ما سبق، يظهر لنا وجود صيغتين مختلفتين للقسم تعتمد كلّ منهما على أحد العنصرين المذكورين أعلاه: الأولى تكون بذكر المُقسم به و تعظيمه ثم ذكر المُقسم عليه بعده، و أما الثانية فيغيب فيها ذكر المُقسم به و ينوب عنه الدعاء على النفس بالشرّ و الخسارة إن كان المُقسم عليه كذبا؛ و لهذا تأتي غالبا على شكل جملة شرطية.

De là deux parties à distinguer dans la formule du serment : l'invocation et l'imprécation.³

[من هنا نميّز جزئين في صيغة القسم: الابتهاال و اللعنة]⁴.

و لكن قد يحدث أحيانا أن تجتمع هاتان الصيغتان كلتاهما في قسم واحد، و ذلك دلالة على تحري المقسم إثبات صدقه أمام المُقسم له.

و نجد المثال على ذلك في إلياذة هوميروس (l'Iliade)، حين يقسم أغاميمنون (Agamemnon) لأخيل (Achille) على أنه لم يمسّ بريسييس (Briséis) بقوله:

« Que Zeus⁵ d'abord m'en soit témoin, le plus haut, le plus grand des dieux! et la Terre et le Soleil! et les Érinyes⁶ qui, sous terre, châtient les morts parjures à un serment! non, jamais je n'ai porté la main

¹ - Danièle Aubriot-Sévin, Formulations possibles du serment et conceptions religieuses en Grèce ancienne, p91.

² - ترجمة ذاتية.

³ - René Mouterde, Du serment considéré comme moyen de preuve en droit civil ; romain et français, p13.

⁴ - ترجمة ذاتية.

⁵ - Divinité suprême de l'Olympe. Dieu du Ciel et maître des dieux.

⁶ - Les trois déesses de la Vengeance (Alecto, Tisiphoné et Mégère).

sur la jeune Briséis, ni par désir avoué de son lit, ni pour nulle autre cause. Elle est restée intacte, toujours, dans ma baraque. Et, **si je commets ici le moindre parjure, que les dieux me fassent souffrir les mille maux qu'ils font souffrir à qui les a offensés en jurant !**»¹

[ليكن أوّلاً زوس - أعلى و أعظم الآلهة - شاهدي، و الأرض و الشمس، و آلهة الانتقام التي تعاقب الموتى الحانثين بالأيمان تحت الأرض على أي لم أضع يدي قطّ على الشابة بريسييس لا لرغبة في مشاركة فراشها و لا لأي غرض آخر، و أنها بقيت في منزلي دون مساس. و إن كان جزء و لو يسير من قسمي هذا كذبا، فلتجعلني الآلهة أعاني الأمرين ولتعاقبني بمثل ما تعاقب به أولئك الذين أهانوها حين أقسموا كذبا]².

فهذا القسم مثال على اجتماع الصيغتين، حيث ابتدأ المُقسم بإشهاد الآلهة على قوله، ثم صرّح بالمقسم عليه، و اختتم بأن دعا على نفسه في حالة كذبه بأن تصيبه أقسى العقوبات التي يمكن أن تصيب من يحلف على كذب:

Il commence par prendre les dieux à témoin; il affirme ensuite qu'il ne l'a pas touchée; puis il appelle sur soi, pour le cas où il aurait menti, les maux qui accablent les parjures: on a donc une addition des deux procédés.³

[استأنف كلامه باتخاذ الآلهة شهودا ثم أكد على أنه لم يمسهَا ثم دعا على نفسه بأن ينال ما يناله الحانثون من عقاب في حالة كذبه، إذن فقد اجتمعت كلتا الطريقتين هنا]⁴.

¹ - Danièle Aubriot-Sévin, Formulations possibles du serment et conceptions religieuses en Grèce ancienne, p97.

² - ترجمة ذاتية.

³ - Danièle Aubriot-Sévin, Formulations possibles du serment et conceptions religieuses en Grèce ancienne, p97

⁴ - ترجمة ذاتية.

و ما يلفت الانتباه هو أنّ هذه الصيغ، و بالرغم من قدمها؛ إذ تضرب بجذورها في عمق التاريخ و تعود إلى الحقبة الإغريقية و الرومانية، إلا أنّها بقيت معروفة و مستعملة بعد آلاف السنين، و متداولة بين العامة (مع تغيّر المُقسّم به طبعا لتغيّر الديانة المُتبعة).

Aussi l'histoire du serment à Athènes et surtout à Rome, les admirables définitions et formules antiques sont elles encore celles du serment dans les monarchies nouvelles.¹

[كما أن تاريخ القسم في أثينا، و في روما خاصة، يكشف أنّ التعريفات المعمول بها والصيغ القديمة للقسم هي نفسها التي بقيت متداولة في الممالك الحديثة]².

و يبقى أن نقول بأنّ الصيغة الأعمّ و الأبسط للقسم تتصّ أساسا على ذكر فعل القسم "jurer"؛ فقولنا مثلا "je jure" صيغة كافية و وافية. أما بالنسبة لباقي عناصر القسم كالمُقسّم به مثلا فتبقى أقلّ أهمية منها في العربية، إذ يُمكن الاستغناء عنها دون الإخلال بمعنى القسم. و يجدر التنبيه أيضا إلى أنّه إضافة إلى الصيغة اللفظية للقسم، فإنّ المُقسّم يُصاحبها في بعض الأحيان بحركات و وضعيات تزيد من قداسة القسم أو غلاظته. و معظم هذه الحركات مرتبطة باليد اليمنى؛ فهذه الأخيرة قد تُرفع عاليا عند النطق بصيغة القسم:

Le prestataire **levait la main droite** vers le ciel : attestation par le geste qui confirmait l'attestation par la parole.³

[كان المُقسّم يقوم برفع يده اليمنى عاليا: أداء القسم بالحركات الذي يصاحب و يؤكد الأداء اللفظي]⁴.

و هذه الحركة معروفة منذ أزمنة غابرة و قد بقيت مستعملة على مرّ السنين:

¹ - A.Guichon de Grandpont, Sainteté du serment,p9.

² - ترجمة ذاتية.

³ - Charles Charrier, Le serment : étude de droit positif et de législation, p7.

⁴ - ترجمة ذاتية.

... en faisant observer que la formule usitée de nos jours est celle-là même qu'employait Abraham. Celui qui doit jurer **lève la main** et affirme sa prétention.¹

[... نلاحظ أن الصيغة المعمول بها في وقتنا الحاضر هي نفسها الصيغة التي استعملها إبراهيم، فمن يجب عليه أداء القسم يرفع يده ليؤكدّه]².

كما كانت معروفة أيضا عند اليونانيين:

Comme tous les autres peuples anciens, les Grecs juraient **debout, la main droite levée** ou étendue sur l'autel du dieu.³

[مثل باقي الشعوب القديمة، كان اليونانيون يؤدّون القسم في وضعية القيام و اليد اليمنى مرفوعة أو مبسوطة على مذبح الإله]⁴.

و قد توضع اليد على الصدر الذي هو مكنم الفؤاد و موطن الصدق:

Ce grand acte se fait dans l'attitude la plus consciencieuse, **la main sur le cœur** ou levée vers le ciel.⁵

[يتم هذا العمل العظيم على الهيئة الأكثر صرامة؛ حيث تكون اليد موضوعة على الصدر أو مرفوعة نحو السماء]⁶.

و لا يفوتنا هنا التنويه باستعمال اليد اليمنى لأداء القسم عند العرب القدماء أيضا، حيث كان هؤلاء إذا تقاسموا يضرب كل منهم يمينه على يمين الآخر، و لهذا سُميت القسم **يميناً**.

¹ - René Mouterde, Du serment considéré comme moyen de preuve en droit civil ; romain et français, p16.

² - ترجمة ذاتية.

³ - Charles Charrier, Le serment : étude de droit positif et de législation, p11.

⁴ - ترجمة ذاتية.

⁵ - René Mouterde, Du serment considéré comme moyen de preuve en droit civil ; romain et français, p3.

⁶ - ترجمة ذاتية.

و إضافة إلى هذه الحركات المذكورة كرفع اليد أو وضعها على الصدر، قد توضع أيضا على أشياء ذات قداسة دينية تختلف باختلاف ديانة الشعوب؛ فكما هو معلوم عندنا نحن المسلمين، فإنّ المُقسِم يضع يده على المصحف الشريف تماديا في إثبات صدقه و إظهار براءته، و لكن ذلك لا يكون إلّا في الحالات الشائكة التي تستدعي اللجوء إلى ذلك.

و هذا الأمر قديم جدًا، ففي اليونان مثلا، كانوا يبسطون أيديهم على المذبح الذي تُقَدَّم عليه الأضاحي و القرابين: (... ou étendue sur l'autel du dieu).

و أما النصارى - خاصة في وقت سطوة الكنيسة - فكانوا يضعون أيديهم على الإنجيل:

Puis il n'y eut plus qu'une formule unique, la main placée sur l'Évangile.¹

ثمّ لم يعد هناك إلا صيغة واحدة تتمّ بوضع اليد على الإنجيل².

لكن في الوقت الراهن تلاشت معظم هذه الحركات ذات الدلالات الدينية المختلفة و لم يعد استعمالها متداولًا كما في القديم خاصة في الأيمان الرسمية كالقسم في المحاكم على سبيل المثال، و ذلك عملاً بمبدأ فصل الدين عن الدولة، و مراعاة للاختلافات العرقية والطائفية، ففرنسا - باعتبارها دولة جمهورية لائكية - قد ألغت كل صيغة ذات دلالة دينية.

La France étant un Etat républicain et laïc, le serment n'est pas prêté la main sur la Bible, ni sur aucun objet de culte ou se référant à une croyance quelconque, même si une partie le demande. La formule du serment ne fait référence à aucune religion ou philosophie.³

¹ - Même référence, p21.

² - ترجمة ذاتية.

³ - <http://www.juritravail.com/lexique/Serment.html>, consulté le 20/11/2012 à 11.55.

[لا يتم أداء اليمين في فرنسا -كونها دولة جمهورية علمانية- بوضع اليد على الكتاب المقدس أو على أي شيء خاص بالعبادة أو له دلالة عقائدية معينة حتى لو طالبت بعض الجهات بذلك، فصيغة القسم لا تشير إلى أي ديانة أو فلسفة]¹.

إذن فقد كانت هذه لمحة بسيطة عن مختلف صيغ القسم في الفرنسية على مدى التاريخ وإشارة إلى بعض الحركات التي قد تصاحب أداء القسم، و الآن نمرّ إلى أنواع القسم في الفرنسية.

ثانياً: أنواع القسم: (Les types du serment)

يمكن تعداد أنواع مختلفة للقسم بحسب تقسيمات مختلفة:

1- حسب أغراض القسم (l'objet du serment): يمكن تمييز نوعين:

- On distingue le serment **promissoire** (...) et le serment **affirmatif** (...) suivant que l'objet du serment est un fait à venir qu'il s'agit de faire arriver ou un fait passé mais dont l'existence est incertaine et qu'il s'agit de prouver.²

يمكن تمييز القسم **الوعدى** و **التأكيدى** بحسب كون المُقسم عليه حدثاً مستقبلاً حيث نعد بإتمامه أو حدثاً ماضياً لكن في موضع الشكّ حيث نقوم بتأكيدهِ]³.

إذا كان الأمر المُقسم عليه حدثاً ماضياً يحتاج إلى تأكيد يكون القسم (affirmatoire):

- On donne le nom **d'affirmatoire** ou **assertoire** au serment par lequel une personne affirme l'existence ou la non-existence d'un fait.⁴

Il porte non sur l'avenir mais sur le passé.¹

¹ - ترجمة ذاتية.

² - Charles Charrier, Le serment : étude de droit positif et de législation, p29.

³ - ترجمة ذاتية.

⁴ - René Mouterde, Du serment considéré comme moyen de preuve en droit civil ; romain et français, p10.

يُسمى القسم تأكدياً إذا قام الشخص بتأكيد حدوث أو عدم حدوث شيء ما².

أما إذا كان وعدا بتحقيق حدث في المستقبل فيكون (promissoire):

- Le serment promissoire porte sur l'avenir ; il est la garantie de l'accomplissement d'une obligation ou d'un devoir.³

[يتعلق القسم الوعدي بالمستقبل، فهو ضمان لإتمام التزام أو القيام بواجب]⁴.

2- حسب الإجراءات (la procédure): يمكن تمييز نوعين أيضاً، و ذلك حسب ما إذا

كان أداء القسم قضائياً أو لا.

On distingue le serment **judiciaire** (...) et le serment **extrajudiciaire** (...); suivant que le serment se présente ou non dans un litige.⁵

[يمكن تمييز القسم القضائي و القسم غير القضائي بحسب ما إذا كان القسم يؤدي أم لا في دعوى قضائية]⁶.

3- حسب المصدر (la source): يمكن تمييز ثلاثة أنواع:

On distingue le serment **conventionnel**, le serment **légal** (...) et le serment **judiciaire**.⁷

[يمكن أن نميّز القسم الاصطلاحي و القسم القانوني و القسم القضائي]⁸.

نصل هنا إلى نهاية الفصل الأول من الدراسة النظرية و الذي عرضنا فيه أهم خصائص

الأسلوب المدروس في اللغتين العربية و الفرنسية، و ننتقل بعده إلى الفصل الثاني الذي

¹ - Même référence, p12.

² - ترجمة ذاتية.

³ - René Mouterde, Du serment considéré comme moyen de preuve en droit civil ; romain et français, p10.

⁴ - ترجمة ذاتية.

⁵ - Charles Charrier, Le serment : étude de droit positif et de législation, p29.

⁶ - ترجمة ذاتية.

⁷ - Charles Charrier, Le serment : étude de droit positif et de législation, p28.

⁸ - ترجمة ذاتية.

سيكون الحديث فيه عن الترجمة الدينية بصفة عامة و ترجمة معاني القرآن الكريم كنموذج

خاص مع عرض آراء العلماء حول حكمها.

المبحث الأول:
المبحث الأول:
لمحة عن الترجمة الدينية

مدخل:

تعتبر الترجمة الدينية من أصعب أنواع الترجمات وذلك لتعلقها بمواضيع دينية، و هي ذات أهمية بالغة في التعريف بالأديان و نشرها بين الشعوب غير الناطقة باللغة التي نزلت بها. وقد ظهرت ترجمات عديدة للكتب الدينية لأهداف عديدة كانت تارة توسعية و تارة تبشيرية و أخرى بدافع الفضول. و من الجدير بالذكر، أن الترجمة الإسلامية من بين هذه الترجمات تحظى بحصة الأسد من الاهتمام وذلك لكثرة المسلمين غير العرب إذ يعنى المترجمون بترجمة معاني القرآن بالإضافة إلى ترجمة تفاسير القرآن والأحاديث النبوية وكل ما يتعلق بالأمور الدينية.

و قد أثار هذا النوع من الترجمة اهتمام العلماء و الدارسين في مجالات التاريخ و الترجمة و الفلسفة منذ القديم، فحاضوا فيه بشدة بل و اعتمدوا عليه كنموذج استخلصوا منه نظريات هامة في مجال الترجمة، و هذا ما أشار إليه "أليكسيس نوس" (Alexis Nouss) بقوله:

Les théories de la traduction ne manquent pas non plus de prendre la traduction biblique comme exemple-type et d'articuler leurs problématiques sur cette expérience.¹

[نظريات الترجمة ليست بقليلة و هي تعتمد بشكل كبير على ترجمة الكتاب المقدس كنموذج وتربط إشكالياتها بهذه التجربة]².

و من أشهر منظري الترجمة و الذي اهتم اهتماما بالغا بالترجمة الدينية الأمريكي "يوجين نايدا" (Eugene Nida). و قد عنى نايدا عناية خاصة بترجمة الإنجيل و اشتغل عليها، و كان يشير في كتاباته إلى التاريخ الحافل الذي عرفته هذه الترجمة:

¹ - Alexis Nouss, présentation : traduire le sacré, sacraliser le traduire, TTR : traduction, terminologie, rédaction, vol.3, n°2, 1990, p7.

² - ترجمة ذاتية.

Dans ses travaux, Nida s'est attaché à souligner la place centrale qu'occupent les écrits bibliques dans l'histoire de la traduction en occident : « aucun autre type de traduction ne possède une aussi longue histoire, aucun n'implique autant de langues différentes(...) aucun n'englobe des textes aussi divers, ni ne couvre des aires culturelles aussi distinctes »¹.

[اهتم نايدا في أعماله بالتركيز على المكانة المهمة التي تشغلها الكتابات الإنجيلية في تاريخ الترجمة في الغرب: "لا يملك أي نوع آخر من أنواع الترجمة مثل هذا التاريخ العريق، و لا يشتمل أي منها على هذا الكم من اللغات المختلفة و لا يضم أي منها نصوصا بهذا التنوع كما لا يغطي مجالات ثقافية بهذا الوضوح]².

و قد اشتهر نايدا بنظريته عن التكافؤ الديناميكي و التكافؤ الشكلي و التي كانت ذات أهمية كبيرة في مجال الترجمة (حيث أزاح النظريات التقليدية للمعنى و اهتم به مرتبطا بالسياق)³ و التي يركّز فيها على كيفية تأثر المتلقي و يحرص من خلالها أن يكون تأثره بالنص المترجم موازيا لتأثر القارئ بالنص الأصل.

إلى جانب نايدا، نجد أيضا الفرنسي هنري ميشونيك (Henri Meschonnic) الذي يختص في مجال شعرية الترجمة، و الذي(عثر على المجال الأمثل في الدراسات و الترجمات التوراتية كي يوفق بين مواهبه كعالم لغة وشاعر)⁴.

و هو يرى أيضا بأنّ للإنجيل خاصية شعرية مميّزة توحى بقديسته و تعلّقه بالذات الإلهية:

¹ -Mathieu Guidère, Introduction à la traductologie, 2^{ème} édition, de boeck, p23

² - ترجمة ذاتية.

³ - سعيدة كحيل، نظريات الترجمة- بحث في الماهية و الممارسة، ص61.

⁴ - <http://www.jehat.com/Jehaat/ar/Ghareeb/Henry5-3-2013.htm> شوهده يوم: 2013/06/23 على الساعة: 01.24

Henri Meschonnic, pour sa part (...) voit dans la Bible une poétique spécifique, fondée sur une « oralité codifiée » (1999, 428) qui marque un certain rapport au divin.¹

[من جهته، يرى هنري ميشونيك بأن للكتاب المقدس خاصية شعرية متميزة قائمة على "شفوية مقننة" تشير إلى وجود نوع من الارتباط الإلهي]².

و تتلخص نظرية ميشونيك عن الترجمة الشعرية في ضرورة نقل النص بجميع خصائصه الجمالية و الفنية من اللغة المصدر إلى اللغة الهدف.

و لا ننسى أن نذكر أيضا الفيلسوف الفرنسي المولود بالجزائر "جاك داريدا" (Jaques Derrida) الذي كان مهتما بالترجمة الدينية، و الذي أثار موضوع قبول النصوص المقدسة للترجمة أو مقاومتها لها في مقالته "Des Tours de Babel" حيث يرى أن علينا أن (نخاطب لغات ونصوصاً مقدسة مغايرة للغتنا ونصنا المقدس إذا كنا نريد أن نرى صورة العالم كاملة)³.

و المهتمون بالترجمة الدينية غير هؤلاء كثيرون.

و قد طرحت الترجمة الدينية الكثير من الإشكاليات التي وقفت عائقا في وجه المترجم أبرزها إشكالية الأمانة في ترجمة النصوص الدينية خاصة و أن هذه الأخيرة لا تقبل التحريف أو التلاعب بمعناها.

و الحقيقة أن إشكالية الأمانة في الترجمة دائما تُطرح، و دائما ما يُتهم المترجم بعدم وفائه للنص الأصلي حتى ظهرت المقولة: "كل مترجم خائن"، و لكنها تبدو أعظم حين يتعلق الأمر بالنصوص الدينية.

¹ - Alexis Noss, la traduction des textes sacrés, théologique vol.15, n°2, 2007, p6.

² - ترجمة ذاتية.

³ - لينين لونغ/ ترجمة: محمد حبيب، (الترجمة والدين-ترجمة النصوص-المقدسة) <http://syrbook.gov.sy/content/> 2013/06/27

La locution italienne "*Traduttore, traditore*" (Traducteur, traître) qui signifie que toute traduction est fatalement infidèle et trahit, par conséquent, la pensée de l'auteur du texte original illustre bien l'acuité du problème, surtout lorsqu'il s'agit de prescriptions considérées comme venant de Dieu.¹

[تعني العبارة الإيطالية "مترجم، خائن" أن كل ترجمة لاتحترم مبدأ الأمانة لا محالة. وعليه، فإن نقل أفكار كاتب النص الأصلي يُعتبر مثالا جيدا على حدّة المشكلة، خاصة إذا تعلق الأمر بتعليمات دينية مصدرها من عند الله²].

و لهذا السبب يفضل الكثير عدم ترجمة النصوص الدينية حفاظا عليها من التحريف والزوال.

Certains musulmans considèrent qu'il faut laisser le Coran dans son écriture originale afin que la parole de Dieu ne soit pas déformée par des traductions successives. Toutefois, le fidèle qui veut accéder à la pensée de Dieu doit alors faire de longues études d'arabe littéraire, en plus d'acquérir de solides connaissances de théologie et du contexte dans lequel ont été écrits les versets (idem pour la Bible) afin d'éviter les contre-sens.³

[يعتقد بعض المسلمين أنه يجب ترك القرآن بكتابته الأصلية خشية أن تُحرّف كلمة الله جرّاء الترجمات المتعاقبة. و مع ذلك، فإنّ من يتحرّى الأمانة و يسعى إلى الإمام بجميع المعاني المُعبّر عنها في كتاب الله عليه أن يقوم بدراسات مطوّلة في أدبيات اللغة العربية

¹ - <http://cisseron.canalblog.com/archives/2007/10/15/6549249.html> شوهذ يوم 2012/07/14 على الساعة: 18.22

² - ترجمة ذاتية.

³ - المرجع نفسه.

فضلا عن اكتسابه قاعدة متينة من المعارف في علم اللاهوت و إحاطته بالسياق الذي وردت فيه الآيات (والشيء نفسه بالنسبة للكتاب المقدس) بغية تفادي الوقوع في المعاني الخاطئة¹.
كما اختلف في فكرة قابلية ترجمة النصوص الدينية ، ففريق يرى أنه لا بدّ من ترجمتها لنقل كلمة الله بين خلقه، و فريق آخر يرى أنه من المستحيل ترجمتها لانفرادها بأسلوب مميز يعجز المترجمون عن نقل جميع أبعاده.

*D'un côté, il y a ceux qui considèrent la traduction comme un don qui permet de traduire la parole divine ; de l'autre, il y a ceux qui estiment impossible de transposer le mystère de la parole de Dieu dans le langage des humains et qui considèrent, par conséquent, la traduction comme un sacrilège et le traducteur comme un blasphémateur.*²

[من جهة، هناك من يعتبرون الترجمة هبة تسمح بنقل و تفسير كلام الله و من جهة أخرى، هناك من يعتقدون بأنه يستحيل نقل أسرار الكلام الإلهي إلى لغات البشر و بالتالي يعتبرون الترجمة تدنيسا له و المترجم منتهكا لحرمة³].

و مع هذه الاختلافات في الآراء، تبقى الترجمة الدينية ذات أهمية لا يمكن أن ننكرها، و قد كان لا بدّ من الخوض فيها للتعرف على إشكالياتها و لمحاولة تذليل بعض عقباتها.
و الحديث عن هذا يطول، و لن نوفق في هذا المقام الضيق أن نعرض كلّ ما قيل في هذا المجال الواسع، و لكننا ارتأينا أن نقدّم للحديث عن ترجمة القرآن بالإشارة إلى بعض المهتمين بالترجمة الدينية و عرض آرائهم حولها.

¹ - ترجمة ذاتية.

² - Mathieu Guidère, Introduction à la traductologie, p23

³ - ترجمة ذاتية.

المبحث الثاني:
المبحث الثاني:
ترجمة معاني القرآن
ترجمة معاني القرآن

- تمهيد:

عادة تحترم ترجمة النصوص المقدّسة مبدأ الحرفية التي يثبتها القديس جيروم St Jérôme¹ لكن اعتماد هذا النوع من الترجمة لنقل معاني القرآن الكريم لا تجوز، لأنها، كما يقول الدكتور القرضاوي، "لا تستطيع أن تعبّر عن محتوى القرآن و مضمونه"². إنها ترجمة قاصرة تشوه معاني الآيات ولا تفي بالهدف الذي ينبغي أن يتحقق منها وهو: إيضاح مقاصد القرآن وبيان هداياته فهي ترجمة تُفقد القرآن خصائصه الأسلوبية والنظمية³. فالقرآن يتبع منهاجاً فريداً في التعبير عن المعاني... و هو منهاج مُطرد يظهر في كل أبحاثه و موضوعاته، و إنه يعبر عن المعاني المتعددة بلفظة واحدة. و طبعاً أن منهاجاً تعبيرياً بهذا الشكل يستعصي على الترجمة... و إذا وقع ما قد يسمى ترجمة من حيث الصورة، فهو في الحقيقة ليس إلا تشويهاً لمعاني القرآن و تلبيساً للمقصود بغيره و تمزيقاً لأحكامه و حججه⁴.

و المترجم الذي يعتمد هذا النوع من الترجمة لا يعبأ كثيراً بمقاصد القرآن و أغراضه الإنسانية النبيلة و لا يعبأ كذلك بما يتضمنه القرآن من مختلف الحقائق و العلوم كأسباب النزول و وجوه الإعجاز و سمو المعاني و الأهداف و روعة المبنى و الأسلوب... فكل ما يبيغيه محصور في النقل المجرد للكلمة⁵.

أما الترجمة التفسيرية فهي المطلوبة و الجائزة شرعاً، كما سيأتي، لأنها أقدر على نقل معاني القرآن و إظهار بلاغته و أسرار إعجازه، و هي التي تمكن شعوب العالم بمختلف لغاتها من الاطلاع على هدايات القرآن و إدراك معانيه و شرائعه، ذلك أنها تقوم على (نقل التفسير الراجح للقرآن إلى لغة أخرى غير العربية، و يمكن أن نطلق على هذا النوع من الترجمة: ترجمة تفسير القرآن أو تفسير القرآن بلغة كذا... و على هذا الأساس فإن

¹ - مريان لوديرار، الترجمة اليوم و النموذج التأويلي، نقلته إلى العربية نادية حفيز، دط، دار هومة الجزائر، 2008م، ص113.

² - يوسف القرضاوي، كيف نتعامل مع القرآن؟، ط2، دار الشروق، 2000م، ص434.

³ - محمد بهاء الدين حسين، ترجمة القرآن الكريم: حكمها و آراء العلماء فيها، دراسات الجامعة الإسلامية العالمية شيتاغونغ بنغلاديش، ديسمبر 2006، المجلد الثالث، ص134.

⁴ - بكري شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن، ص140.

⁵ - أمير عبد العزيز، دراسات في علوم القرآن، ط2، دار الشهاب للطباعة و النشر، باتنة-الجزائر، 1408هـ/1988م، ص227.

الترجمة التفسيرية تقوم على نقل التفسير الإجمالي للآية أو العبارة القرآنية و ليس على تحويل الكلمة إلى ما يقابلها في اللغة الأخرى¹.

و هذه الترجمة للمعاني أشبه بتفسير مختصر للقرآن يُترجم إلى اللغات الأخرى ... و لهذا يُضاف إلى صاحبه أو أصحابه فيقال: هذه ترجمة معاني القرآن أو تفسيره كما فهمها فلان من الناس، أو كما فهمتها لجنة من العلماء المختصين.²

لكن لهذه الترجمة شروطها إذ بدونها لا تُحقق الأهداف المرجوة منها والتي سبق ذكره، أما هذه الشروط فهي:

- معرفة القائم بالترجمة بأوضاع اللغتين وأساليبيهما وخصائيهما أي لغة الأصل المترجم منها واللغة المترجم إليها.

- وفاء الترجمة بجميع معاني الأصل وأن تكون صيغة الترجمة مستقلة عن الأصل غير متداخلة فيه بحيث يمكن الاستغناء بها عنه وأن تحل محله كأنه لا أصل هناك ولا فرع.

- معرفة القائم بالترجمة، معرفة تخصصية بالمادة المترجمة وأنواع العلوم المتعلقة بها.³

- حكم ترجمة القرآن شرعا:

إن موضوع ترجمة القرآن الكريم من الموضوعات المهمة في الدراسات القرآنية، حيث تأتي أهميته وخطورته من تعلقه بكتاب الله تعالى الذي كان لفظه كمعناه من الله تعالى.

و قد طُرحت إشكالية الحكم الشرعي لترجمة القرآن الكريم خلال تاريخ الإسلام، و لكنها في صدر الإسلام و إبان نزول الوحي لم تكن مثار جدل كما صارت بعد ذلك. و قد اختلفت آراء علماء الإسلام المتقدمون منهم و المعاصرون في هذا الموضوع، و فيما يلي استعراض بصورة موجزة لآراء أصحاب المذاهب الأربعة حوله:

¹ - المرجع السابق، (ص ن).

² - يوسف القرضاوي، كيف نتعامل مع القرآن، ص 434.

³ - محمد بهاء الدين حسين، ترجمة القرآن الكريم: حكمها و آراء العلماء فيها، ص 134.

1 - آراء أصحاب المذاهب:

أ - المذهب الحنفي:

ذكر السرخسي أن الإمام أبا حنيفة أجاز ترجمة الفاتحة لأهل فارس فقال: "وأبو حنيفة رحمه الله استدل بما روي أن الفرس كتبوا إلى سلمان الفارسي رضي الله عنه أن يكتب لهم الفاتحة بالفارسية. فكانوا يقرؤون ذلك في الصلاة حتى لانت ألسنتهم للعربية"¹

وقد نقل هذا الأثر الإمام النووي في المجموع بلفظ هذا نصه: "إن قوماً سألوه - أي سلمان الفارسي - أن يكتب لهم شيئاً من القرآن، فكتب لهم فاتحة الكتاب بالفارسية"².

و لكن يجدر التنبيه إلى أن هذا القول كان محط جدال الكثيرين، و معظمهم شكك في صحته و منهم الشيخ محمد سليمان الذي يقول في تعقيب له على هذا الأثر: "إن النبي صلى الله عليه و سلم لم يقرّ سلمان على ذلك، وليس في كتاب من كتب الحديث والآثار رواية لهذا الإقرار، ويكفي في القطع بكذب الحديث أن بلاد فارس لم تفتح في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما دخل الإسلام بلاد العجم في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه"³.

وتحدث القاضي أبو بكر الباقلاني عن رأي الإمام أبي حنيفة أيضاً في المسألة قائلاً بعدم جواز قراءة القرآن بالفارسية ومستدلاً على ذلك بأن قراءة القرآن سنة متبعة، وإن ذلك مذهب السلف والخلف من الأمة، وأنه لا يجوز تبديل اللفظة منه بما هو في معناها من العربية بالفارسية، ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن حدث خلاف بعض أصحاب أبي حنيفة، فبعضهم ينكره على أبي حنيفة، وبعضهم يثبتته.⁴

و ورد في البرهان للزمخشري أن الكواشي قال في تفسير سورة الدخان: "أجاز أبو حنيفة القراءة بالفارسية بشرطية و هي أن يؤدي القارئ المعاني كلها من غير أن ينقص منها

1 - شمس الدين السرخسي، المبسوط، دار المعرفة للطباعة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ج1، ص37 .

2 - محي الدين شرف النووي، المجموع شرح المذهب، مطبعة الإمام بمصر، ج3، ص34.

3 - محمد بهاء الدين حسين، ترجمة القرآن الكريم: حكمها و آراء العلماء فيها، ص135.

4 - المرجع نفسه، ص: 135، 136.

شيئاً أصلاً، قالوا: و هذه الشريطة تشهد أنها إجازة كالإجازة، لأن كلام العرب خصوصاً القرآن الذي هو معجز فيه من لطائف المعاني و الإعراب ما لا يستقل به لسان من فارسية و غيرها¹.

ب - المذهب المالكي:

جاء في حاشية الدسوقي على الشرح الكبير " لا تجوز قراءة القرآن بغير العربية، بل يجوز التكبير في الصلاة بغيرها، ولا بمرادفه من العربية، فإن عجز عن النطق باللغة العربية وجب عليه أن يأتي بمن يحسنها، فإن أمكنه الائتمام ولم يأتي بطلت صلاته، وإن لم يجد إماماً سقطت عنه الفاتحة، وذكر بالعربية وسبحه، وقالوا: على كل مكلف أن يتعلم الفاتحة بالعربية، وأن يبذل وسعه في ذلك، ويجهد نفسه في تعلمها"².

ج - المذهب الشافعي:

قال النووي في المجموع: " مذهبنا - أي الشافعية - أنه لا تجوز قراءة القرآن بغير لسان العرب سواء أمكنته العربية أم عجز عنها، وسواء كان في الصلاة أو في غيرها، فإن أتى بترجمته في صلاة بدلاً عنها لم تصح صلاته سواء أحسن القراءة أم لا. وبه قال جماهير العلماء منهم مالك وأحمد وأبو داود."³

و يرى الإمام الغزالي أن القرآن متعبد بلفظه، و لذا فلا مجال لأن تؤدي التراجم المقصود الحقيقي لكلام الله.⁴

د - المذهب الحنبلي:

قال الزركشي: "لا تجوز قراءته بالعجمية سواء أحسن العربية أم لا، في الصلاة وخارجها لقوله تعالى: "إنا أنزلناه قرآناً عربياً" وقوله تعالى: "ولو جعلناه قرآناً أعجمياً..."

1 - بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ص313.

2 - محمد بهاء الدين حسين، ترجمة القرآن الكريم: حكمها وآراء العلماء فيها، ص136.

3 - محي الدين شرف النووي، المجموع شرح المذهب، ص 379 .

4 - محمود العزب، إشكاليات ترجمة معاني القرآن الكريم، ط1، نهضة مصر للطباعة و النشر و التوزيع، 2006، ص38.

ثم قال: استقر الإجماع على أنه تجب قراءته على هيئته التي يتعلق بها الإعجاز، لنقص الترجمة عنه، ولنقص غيره من الألسن عن البيان الذي اختص به دون سائر الألسنة. وإذا لم تجز قراءته بالتفسير العربي لمكان التحدي بنظمه فأحرى ألا تجوز الترجمة بلسان غيره " 1

نلاحظ أنّ أصحاب المذاهب قد عارضوا فكرة ترجمة القرآن و ركزوا في معارضتهم هذه على قضية التلاوة في الصلاة بغير اللسان العربي، و نستثني من ذلك الأمام أبا حنيفة الذي أجازها، و قد قيل (إنه عاد فتراجع عن ذلك)².

2- آراء المُحدثين:

أ- المعارضون:

لم يكن أصحاب المذاهب وحدهم من رفض هذه الفكرة بل تبعهم كثيرون نذكر منهم ابن قتيبة الذي رفض من وجهة أدبية جواز ترجمة القرآن، كما ورد في كتابه "تأويل مشكل القرآن" منطلقاً من قوله بوجود المجاز في العربية، و عدم وجوده في غيرها من اللغات. و عارض الرازي في تفسيره "الكشاف" مبدأ الترجمة، و كذلك ابن قدامة و مثله ابن تيمية الذي عارض جواز الترجمة، مع القدرة على العربية أو العجز عنها. ثم عارضه النيسابوري كذلك في "غرائب القرآن" و رأى أنه يخالف العقل. و لم يكن السيوطي في كتاب "الإتقان في علوم القرآن" آخر من عارض، بل كان الأستاذ الإمام محمد عبده الإصلاحية الكبير من أشدّ معارضي مبدأ ترجمة القرآن، و سمى محاولة ذلك خطبا عظيما، كما يقول في "تفسير المنار"³.

و لم يقف الأمر عند هؤلاء، إذ أنّ موضوع ترجمة القرآن الكريم بقي مطروحا وصولا إلى العالم المعاصر حيث ظهرت دراسات حديثة لبعض علماء المسلمين ومفكرهم حوله،

1 - بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ص 312 .

2 - محمود العزب، إشكاليات ترجمة معاني القرآن الكريم، ص 38.

3 - المرجع نفسه، ص 38.

فاحتدم النقاش والجدال بينهم، فمن هذه الدراسات ما يمنع الترجمة، ومنها ما يجيزها بل يوجبها خدمة للدعوة الإسلامية، ولكل فريق من الفريقين وجهة نظره الخاصة في المسألة، وله أدلته.

أمّا المعارضون للترجمة، و هم الذين تأثروا بأقوال أصحاب المذاهب و العلماء المتقدمين، فنجد منهم السيد محمد رشيد رضا الذي أبدى رأيه في الترجمة كما يأتي فيقول:
... لا يباح للمسلمين ترجمة القرآن بلغة أخرى يتعبد بها في الصلاة والتلاوة والتشريع، ويطلق عليها اسم كلام الله وكتاب الله والقرآن الكريم.¹

كذلك نشر محمد سعيد الباني دراسة بهذا الخصوص تحت عنوان "الفرقدان النيران في بعض المباحث المتعلقة بالقرآن" انتهى فيها إلى القول بمنع وحرمة ترجمة القرآن الكريم، استند في ذلك إلى أدلة وبراهين من وجهة نظره.

كما أصدر الشيخ محمد سليمان نائب المحكمة العليا الشرعية بمصر - والذي كان يحمل لواء الحملة ضد ترجمة القرآن الكريم - كتاباً في الموضوع نفسه تحت عنوان "حدث الأحداث في الإقدام عن ترجمة القرآن" عارض فيه ترجمة معاني القرآن الكريم، ووصفها بأن وراءها غرضاً استعمارياً هو القضاء على القرآن تمهيداً للقضاء على الإسلام. وذهب فيه إلى القول بأن ترجمة القرآن بالشكل المقترح ممنوعة بإجماع المذاهب الأربعة... وأن لا خلاف في وجوب الاعتقاد بأن القرآن اسم للنظم والمعنى معاً حتى يكفر من أنكر كون النظم منزلاً.²

ب - المجيزون:

أما المجيزون لها فقد كان على رأسهم الشيخ محمد مصطفى المراغي (شيخ الأزهر الذي كان من أبرز الذين أجازوا الترجمة، بل جهد و نادى بضرورتها ما دامت لا تذهب

¹ - محمد بهاء الدين حسين، ترجمة القرآن الكريم: حكمها و آراء العلماء فيها، ص 138.

² - المرجع السابق، ص 138.

بالنص العربي، و لكنه قال بعدم تسمية الترجمة قرآنا، و قال بأن استنباط الأحكام الشرعية و القواعد الفقهية لا يكون إلا من القرآن العربي. و لعله أول من دعا إلى استخدام عبارة "ترجمة معاني القرآن" و ليس ترجمة القرآن.¹

و من أهم متابعيه على ذلك محمد فريد وجدي الذي قال بضرورة الترجمة، حتى لا يعطل القرآن عن الدخول إلى معترك الإفهام، و حتى يكسب أنصارا في الأمم الغربية.²

فقد كان ممن دعا إلى ترجمة معاني القرآن الكريم ترجمة كاملة صحيحة في كتابه تحت عنوان "الأدلة العلمية على جواز ترجمة معاني القرآن إلى اللغات الأجنبية" و فيه يظهر حماسه لضرورة ترجمة القرآن الكريم، وأنه لا مانع من ذلك من جهة النقل والعقل، لأن القرآن الكريم هو آية الله الكبرى للخلق كافة، أنزله بلسان عربي مبين، وأمر الذين يتولونه أن يبلغوه للعالم بكل وسيلة تصل إليها قدرتهم..ويقول فيه:

إن الاقتصار على كتابة الرسائل عن الإسلام - كما يرى معارضو ترجمة معاني القرآن الكريم- باللغات الأجنبية لا يغني عن ترجمة معاني القرآن في تعريف الشعوب بحقيقة القرآن والإسلام.³

وهكذا الدكتور محمد حميد الله يدعو إلى ترجمة القرآن الكريم لما يترتب على ذلك من آثار إيجابية في مجال دعوة الأجانب إلى الإسلام، ويوضح ذلك بأن ترك الترجمة للآخرين من غير المسلمين قد تترك آثاراً سلبية في هذا المجال، وأن المستعمرين والمبشرين كانوا هم الجهة المستفيدة من عدم قيام المسلمين أنفسهم بترجمة القرآن الكريم. و قد جاءت دعوته هذه في مقال له، فيما يأتي نص مقتطف منه:

"أما القول بعدم جواز ترجمة القرآن فقد حدث في القرن الماضي في تركيا العثمانية، وفي مقاطعاتها العربية مثل سوريا ولبنان، فلو تدبرنا وتعمقنا لوجدنا أن هذا معاصر لفتوح

¹ - محمود عزب، إشكاليات ترجمة معاني القرآن الكريم، ص 40.

² - المرجع نفسه، (ص ن).

³ - محمد بهاء الدين حسين، ترجمة القرآن الكريم: حكمها و آراء العلماء فيها، ص 139.

الغربيين واستعمارهم بلاد الإسلام، فمعروف أنهم حاولوا بتصوير المسلمين بكل وسيلة، فلم يكتفوا بإرسال المبشرين في شتى الملابس، بل منعوا أيضاً تدريس اللغة العربية حتى في المستعمرات العربية مثل شمالي أفريقيا، والظاهر أنهم أرادوا إتمام حصار قلعة الإسلام بمنع تراجم القرآن بلغات

أجنبية، فالمسلمون غير العرب لا يعرفون العربية، ولن يجدوا تراجم القرآن بلغات يعرفونها فتبقى الساحة فارغة للديانات الأخرى...¹

- حججهم:

ذكرنا آنفاً أن الشيخ المراغي كان من أبرز من أجازوا الترجمة، و قد استند في تجويزه هذا إلى كلام الشاطبي عن إمكان ترجمة الدلالات الأصلية و استحالة ترجمة الدلالات التابعة أو الخادمة حيث يقول: "... و قد نفى ابن قتيبة إمكان الترجمة في القرآن على هذا الوجه الثاني، فأما على الوجه الأول فهو ممكن، و من جهته صح تفسير القرآن وبيان معناه للعامة... و كان ذلك جائزاً باتفاق أهل الإسلام، فصار هذا الاتفاق حجة في صحة الترجمة على المعنى الأصلي".²

كما يتطرق الأستاذ محمد فريد وجدي في كتابه إلى أدلة المعارضين و يناقش شبهاتهم المثارة حول الترجمة، وخاصة تلك التي أثارها الشيخ محمد سليمان الذي حمل لواء المعارضة، و ينتهي من تلك المناقشة إلى القول: بأن المسلمين مضطرون إلى ترجمة القرآن الكريم بأنفسهم و من غير أن يقدر ذلك في عزّة اللغة العربية من ناحيتين:

1- إن الأوربيين ترجموا القرآن ترجمات سقيمة لا بد من تقويمها و عدم تركها على

حالتها.

¹ - المرجع نفسه، ص ص: 139، 140.

² - محمود عزب، إشكاليات ترجمة معاني القرآن الكريم، ص ص (44، 45).

2- إن مصلحة الدعوة تحفزنا إلى ذلك لأننا مكلفون بها شرعاً، والدعوة بالقرآن أبلغ ما يحصل إليه الإمكان، وهي المأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيجب أن نذكر بالقرآن من يفهمه فأما من لا يفهمه من الأجانب فنذكرهم بترجمته...
و ينهي الأستاذ فريد وجدي حديثه بعد ذكره ما تحويه الترجمات من تزييف الحقائق قائلاً:

"لا يعقل أن توجد أداة لنشر الإسلام تضارع القرآن، وليس في قدرة البشر أن يبتكروا أسلوباً كأسلوبه في جذب العقول والأرواح، والترجمة إن حجبت إعجازه اللفظي فلا يمكن أن تحجب إعجازه المعنوي، وهو الذي عليه المعول، وبخاصة في هذا العصر، واخجلاه! إن بعض المسلمين يعملون على صد نور القرآن أن يملأ آفاق الأرض بحجج ما أنزل الله بها من سلطان، بل بشبهات لا تمت إلى العلم ولا إلى العقل بأبعد صلة هداهم الله!¹
و أما الدكتور حميد الله فيقول في مقال له: و مع أن القرآن نزل بلسان عربي مبين فإنه يحتاج إلى التفاسير وهذا لبلاغته وعمق معانيه، وبما أن القرآن أنزله الله ﴿كافة للناس بشيراً ونذيراً﴾ فإن الله يهدي به إلى الإسلام كثيراً من غير العرب، وهؤلاء والحمد لله يزداد عددهم كل يوم... وهم يحتاجون قبل إسلامهم وفي بداية إسلامهم إلى أن يقرؤوا القرآن مترجماً إلى لغاتهم.²

مما سبق يتضح لنا أن ترجمة القرآن ترجمة حرفية أو لفظية محظورة من الوجهة الشرعية ولا تجوز بإجماع العلماء، و ذلك أن الترجمة مهما رقيت (و تقدّمت لا يمكن أن تُغني عن الأصل، و تنقل المعاني كاملة، لأنّ جزء من الحقيقة يضيع أثناء النقل من لغة إلى أخرى)³ ولأنّ (هذا النوع من الترجمة يهدم ما في القرآن من كبريات الخصائص و يذهب

¹ - محمد بهاء الدين حسين، ترجمة القرآن الكريم: حكمها و آراء العلماء فيها، ص 139.

² - المرجع نفسه، ص 140.

³ - محمد الغزالي، كيف نتعامل مع القرآن؟، دط، دار الانتفاضة للنشر و التوزيع، دت، ص189.

بما يجعل الكتاب الحكيم من مزايا فذة لا تتحقق إلا من خلال كلماته العربية المتسقة على نحو يفوق كل اتساق¹.

أما الترجمة الجائزة فإنما هي ترجمة معانيه، وهي التي تسمى الترجمة التفسيرية أو المعنوية بالشروط التي سبق ذكرها في الأول. فمثل هذه الترجمة لا ريب فيها أنها تساعد على تفهيم الأجنبي فحوى القرآن، و لذا فإنها ضرورية بل واجبة لدعوة أمم الأرض وشعوبها إلى الإسلام.

ذلك أنّ محمداً صلى الله عليه و سلم بُعث برسالة الإسلام إلى البشرية عامة على اختلاف أجناسها و ألوانها، و بما أن هذه الأمم قد لا تحسن إلا لغتها، فقد وجب أن تترجم الدعوة بكل ما فيها من أصول إلى السنة الأمم².

و معلوم أن تبليغ الدعوة الإسلامية للناس فريضة و أن نشر حقائق الإسلام و القرآن أمر محتوم و مفروض، و بما أن (القرآن عالمي الوجهة، و هو في الوقت نفسه عربي اللسان، فالواجب على العرب من أمة القرآن ترجمته إلى غير العرب، نشراً لدعوته، و تبليغاً لرسالته، حتى لا تكون للناس عليهم حجة)³.

بهذا نصل إلى نهاية هذا المبحث الذي عرضنا فيه أهم الآراء حول موضوع ترجمة معاني القرآن الكريم و حجج مؤيديها و معارضيها و الذي يعتبر خاتمة الباب الأول و يليه مباشرة الباب الثاني بعنوان "دراسة تطبيقية" و الذي سنقوم فيه بدراسة آيات القسم دراسة تحليلية.

¹ - أمير عبد العزيز، دراسات في علوم القرآن، ص 231.

² - بكري شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن، ص 140.

³ - يوسف القرضاوي، كيف نتعامل مع القرآن العظيم، ص 434.

الباب الثاني:
دراسة تطبيقية

- التعريف بالمدونة و بصاحبها:

نستأنف هذا الجزء أولاً بالتعريف بالمدونة "القرآن الكريم مع ترجمة معانيه إلى اللغة الفرنسية" و بصاحبها الدكتور محمد حميد الله.

هو الدكتور محمد حميد الله بن حاجي أبي محمد خليل بن محمد صبغة الله من أسرة النوائط. ولد يوم الأربعاء 16 محرم 1326هـ الموافق لـ 19 فبراير 1908م بمدينة حيدر آباد بالهند، و توفي رحمه الله في 13 شوال 1423هـ الموافق لـ 17 ديسمبر 2002م في مدينة جاكسلفانيا بالولايات المتحدة الأمريكية بعد أن أقعده المرض و أضعفه.

تلقى العلوم الإسلامية واللغة العربية من المدرسة النظامية "بحيدر آباد"، ودرس اللغة الإنجليزية بجهوده الذاتية. ودخل قسم الدراسات الإسلامية بـ"الجامعة العثمانية" وأنهى البكالوريا بتقدير ممتاز. وواصل دراساته في القانون وحصل على الماجستير عام 1930 ثم نال الدكتوراه من جامعة "بون" لرسالة أعدها بعنوان "العلاقات الدولية في الإسلام" وبعدها سافر إلى "بريطانيا" ومنها إلى "باريس"، وحصل على شهادة دكتوراه ثانية من جامعة السوربون بمقالة قدمها بعنوان "مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي وفي الخلافة الراشدة". ثم رجع إلى "حيدر آباد" والتحق "بالجامعة العثمانية" أستاذاً في "قسم الدين"، ثم عُيّن في "قسم القانون الدولي". وظل يخدم فيها حتى أُختير عضواً في وفد رسمي يمثل حكومة "حيدر آباد" إلى الأمم المتحدة سنة 1948، ثم رجع بعدها إلى فرنسا و قضى فيها جلّ حياته.

تتميز أعماله العلمية وأبحاثه بالأصالة ودقة العرض والشمولية، وكان موضوعه المحبب إليه السيرة النبوية، وقد طبع له أكثر من ألف مقال، كما طبع أكثر من مائة وخمسة وسبعين من كتبه ورسائله. ومعظم كتاباته حول الإسلام والقانون الإسلامي، والسيرة النبوية والرد على الشبهات حول الإسلام.

وللعلم، فإن الدكتور حميد الله هو الباحث الوحيد في العالم الذي قام بترجمة معاني القرآن الكريم إلى ثلاثة لغات أوربية هي الفرنسية و الإنجليزية و الألمانية. و قد كانت الترجمة الفرنسية من أهم أعماله التي قام بها و التي كانت بهدف نشر الإسلام وخدمة تراثه. كانت

بدايتها بطلب من أحد الناشرين المحليين في فرنسا حين قصد الدكتور حميد الله في أحد أيام عام 1950 قائلاً بأنه مهتم بإنجاز ترجمة فرنسية للقرآن الكريم و بأنه يعتقد بأنه الشخص المناسب للقيام بهذه المهمة العظيمة. في بادئ الأمر أعلن الدكتور تردده و عبّر عن تخوفه من عدم تمكنه من القيام بذلك متحجّجاً بأن اللغة الفرنسية ليست لغته الأم و بذلك فلن يكون قادراً على إنجاز ترجمة جيدة كفاية خاصة أن النص العربي الأصلي فيه ما فيه من عناصر البلاغة والإعجاز والعظمة. ولكن سرعان ما اقترح عليه الناشر حلاً مرضياً يتمثل في مراجعة وتهذيب لغة الترجمة التي سيقوم بها من طرف رجل أدب فرنسي، و قد كان هذا الرجل "ميشال ليتورمي" (Michel Léturmy) الذي ساعد في إتمامها. ظهرت الطبعة الأولى لهذه الترجمة عام 1959 في دار النادي الفرنسي للكتاب (Club français du livre)، و قد صدرت لها أكثر من ثلاثين طبعة حيث أعيد طبعها اثنتي عشرة مرة بين سنتي 1959م و 1986م، و تعدّ الترجمة الأكثر مبيعا حيث بيعت أكثر من مليوني نسخة من طبعاتها الأخيرة كما أنها الترجمة الأكثر رواجاً و مقروئية من بين ترجمات اللغات الأوروبية. وجدير بالذكر أنها كانت أول ترجمة تُتجز من قبل مسلم و قد قدّم لها بفصول عن مسألة الوحي و حياة الرسول صلّى الله عليه وسلم وتاريخ جمع القرآن و ترتيب السور والآيات، كما عرفّ بكثير من الترجمات التي عاد إليها خلال عمله هذا و هي ترجمات سابقة في 120 لغة.

بعد هذه الترجمة الموجزة للدكتور حميد الله و التعريف بمدوّنته، و قبل أن نشرع في الدراسة التطبيقية، سنقوم أولاً فيما يأتي باستقصاء مواضع القسم في القرآن الكريم و اختيار ما سيتمّ دراسته منها.

- استقصاء الآيات التي ورد فيها القسم الصريح في القرآن الكريم:

ورد القسم في القرآن الكريم في مواضع كثيرة و سياقات مختلفة، تباين فيها المُقسِمون و ما أقسموا به و كذلك ما أقسموا عليه.

و القسم، كما رأينا، نوعان: مضمراً لا يُعلم بمجرد النطق به أنه قسم و لكن يُفهم من سياق الكلام، و صريح تتوفر فيه أركان القسم كلها أو معظمها.

و لصعوبة استقصاء مواضع القسم المضمرة، سنكتفي في بحثنا هذا بإحصاء مواضع القسم الصريح فقط.

و القسم الصريح، كما ذكرنا سابقاً، هو ما صرَّح فيه بالمقسَم به، كقوله تعالى: ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ* وَطُورِ سِينِينَ* وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ (التين: 1-3).

وقد صنَّف د. كاظم الراوي المواضع التي ورد فيها القسم الصريح في القرآن الكريم، على خمسة أنواع:¹

1- أقسام صدرت من الله، سبحانه وتعالى، ابتداء وإنشاء (...). ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن المواضع التي ذُكرت فيها آيات قسمٍ متصلة كقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا* وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا* وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا* وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا* وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا* وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا* وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا* فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (الشمس: 1-8). عُدَّت موضعاً واحداً، على الرغم من وجود سبع آيات قسمٍ فيها.

2- أقسام علمها الله تعالى رسوله، وأمره بها، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (يونس: 53).

3- أقسام حكاها القرآن الكريم عن الأنبياء والمؤمنين كما في قوله تعالى: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ﴾ (الأنبياء: 57).

¹ - سمية محمد عناية حاج نايف، صيغة نفي القسم في القرآن الكريم، ص ص (29، 30).

4- أقسام حكاها القرآن عن المنافقين والكافرين، نحو قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتِنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام: 23).

5- أقسام حكاها القرآن الكريم عن إبليس، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (ص: 82، 83).

و هنا إحصاء للمواضع التي ورد فيها القسم الصريح كما جاء ترتيبها في المصحف الشريف.

سورة النساء:

﴿ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابْتَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴾ (62) ﴿ فَلَآ وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (65).

سورة المائدة:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْآثِمِينَ (106) فَإِنْ عَثَرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (107).

سورة الأنعام:

﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتِنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ (23). ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ (30).

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنْ جَاءَهُمْ آيَةٌ لِيُؤْمِنَنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (109).

سورة الأعراف:

﴿ وَ قَاسَمَهُمْ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ (21).

سورة التوبة:

﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسِيحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (42) ﴾ .
 ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ (56) ﴾ .
 ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (62) ﴾ .
 ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ أُولُو بِمَا لَمْ يَنْبَأُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (74) ﴾ .

سورة يونس:

﴿ وَاسْتَنْبِئُونَا بِحَقِّ هُوَ قَوْلٌ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (53) ﴾ .

سورة يوسف:

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (73) ﴾ .
 ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ نَفْتًا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (85) ﴾ .
 ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (91) ﴾ .
 ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (95) ﴾ .

سورة الحجر:

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (72) ﴾ .
 ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) ﴾ .

سورة النحل:

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَذَابٌ عَلَيْهِمْ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (38) ﴾ .

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (56) ﴾ .
 ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (63) ﴾ .

سورة مريم:

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (68) ﴾ .

سورة طه:

﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ (72).

سورة الأنبياء:

﴿ وَ تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ ﴾ (57).

سورة النور:

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (53).

سورة الشعراء:

﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ (44).
﴿ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (97).

سورة النمل:

﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ (49).

سورة سبأ:

﴿ وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (3).

سورة فاطر:

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ (42).

سورة يس:

﴿ يس (1) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (3).

سورة الصافات:

﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (1) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (2) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (3) إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ (4).
﴿ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينَ ﴾ (56).

سورة ص:

﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (1) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (2) ﴾ .
﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) ﴾ .

سورة الزخرف:

﴿ حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (3) ﴾ .

سورة الدخان:

﴿ حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (3) ﴾ .

سورة الأحقاف:

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (34) ﴾ .

سورة ق:

﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (1) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (2) ﴾ .

سورة الذاريات:

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا (1) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (2) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (3) فَالْمَقْسَمَاتِ أَمْرًا (4) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (5) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (6) ﴾ .
﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (7) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (8) ﴾ .
﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (23) ﴾ .

سورة الطور:

﴿ وَالطُّورِ (1) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (2) فِي رِقِّ مَنشُورٍ (3) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (4) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (5) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (6) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (7) ﴾ .

سورة النجم:

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (2) ﴾ .

سورة الواقعة:

﴿ فَالْأُقْسُمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77) ﴾ .

سورة التغابن:

﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (7) ﴾ .

سورة القلم:

﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةٍ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2) ﴾.

سورة الحاقة:

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَنَا تَبْصِيرُونَ (39) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40) ﴾.

سورة المعارج:

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (40) ﴾.

سورة المدثر:

﴿ كَلَّا وَالْقَمَرِ (32) وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ (33) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (34) إِنَّهَا لَأِحْدَى الْكُبَرِ (35) ﴾.

سورة القيامة:

﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (2) ﴾.

سورة المرسلات:

﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (1) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (2) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (3) فَالْفَارِقَاتِ فَرَقًا (4) فَالْمُفْلِقَاتِ ذِكْرًا (5) عِذْرًا أَوْ نَذْرًا (6) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٍ (7) ﴾.

سورة النازعات:

﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (1) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (2) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (3) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (4) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (5) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّجِفَةُ (6) تَتَّبِعُهَا الرِّادِفَةُ (7) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (8) ﴾.

سورة التكوير:

"فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ (15) الْجَوَارِ الْكُنُوسِ (16) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ (17) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (18) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (19)"

سورة الانشقاق:

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (16) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (17) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (18) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ (19) ﴾.

سورة البروج:

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (1) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (2) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودِ (3) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (4) ﴾.

سورة الطارق:

- ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (2) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (3) إِنَّ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (4) ﴾ .
 ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (11) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (12) إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ (13) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (14) ﴾ .

سورة الفجر:

- ﴿ وَالْفَجْرِ (1) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (2) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُّ (4) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حَجْرِ (5) ﴾ .

سورة البلد:

- ﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (1) وَأَنْتَ حَلُّ بِهَذَا الْبَلَدِ (2) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (3) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (4) ﴾ .

سورة الشمس:

- ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (2) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَاهَا (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (4) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (5) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (6) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) ﴾ .

سورة الليل:

- " وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (2) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (3) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَى (4) "

سورة الضحى:

- ﴿ وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (3) ﴾ .

سورة التين:

- ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (1) وَطُورِ سِينِينَ (2) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (3) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4) ﴾ .

سورة العاديات:

- ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (1) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (2) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (3) فَأَنْزَرْنَ بِهِ نَعْمًا (4) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (5) إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (6) ﴾ .

سورة العصر:

- ﴿ وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) ﴾ .

إذن فقد كانت هذه هي المواضع التي ورد فيها القسم الصريح في القرآن الكريم، حيث استقصينا في كلِّ سورة الآيات التي ورد فيها القسم و جوابه. و لكننا نلاحظ أن الصيغ المستعملة في أقسام القرآن تتكرَّر في مواضع عدَّة منه. و التكرار من الظواهر التي تلفت النظر في القرآن كله، و لكنها أشدَّ وضوحا في السور المكية منها في المدنية. و كما بينا في أول البحث فإنَّ القسم يرد في السور المكية أكثر بكثير منه في السور المدنية، فما الحكمة من هذا التكرار يا ترى؟

يقول محمد قطب في كتابه "دراسات قرآنية" مبينا الحكمة من ظاهرة التكرار في القرآن:

و حين ننظر إلى القرآن على أنه كتاب التربية لهذه الأمة، و للبشرية كلها التي ينبغي أن تدخل في دين الله، تزول عنا غرابة هذه الظاهرة، و تصبح بعض حكمتها على الأقل مفهومة لدينا.

إنَّ التربية ليست قولة تقال مرة و تنتهي! و كل من مارس التربية مع صغير أو كبير يعلم إلى أي مدى يحتاج من يتلقى التربية إلى التذكير الدائم حتى يستقيم على الأمر المطلوب. (...)

و هكذا يتضح أن التكرار لا يأتي اعتباطا، إنما يأتي لهدف مقصود. أضف إلى ذلك أن القرآن قد نزل على مدى ثلاثة و عشرين عاما متطاولة، فكان المدى بعيدا بين نزول الآية و شبيبتها إلى حدِّ قد يبلغ سنوات.¹

و كما نعلم فإن الخطاب في القرآن المكي كان موجها للكفار و المشركين في مكة، و هو ما استلزم استعمال بعض الأساليب الخاصة بما فيها تكرار بعض الصيغ و العبارات. و أكثر الموضوعات تكرارا هي المرتبطة بالعقيدة و بمشاهد يوم القيامة و بالآيات الكونية. يقول محمد قطب في الكتاب نفسه:

من أكثر الموضوعات ورودا في القرآن، الحديث عن آيات الله في الكون في معرض الحديث عن قضية الألوهية، و في السور المكية بصفة خاصة ترد هذه الإشارات بكثرة ملحوظة (...). إن الجوف في "السور المكية" مشحون بالغضب على الكفار من أول السورة إلى

¹ - محمد قطب، دراسات قرآنية، دار الشروق، ط3، 1982، ص245.

آخرها، و بالوعيد و التأنيب و التنديد، و في هذا الجو الغاضب شديد الغضب ترد الآيات الكونية ردا على المكذبين.¹

ثم يضيف في موضع آخر:

و مشاهد القيامة كذلك من أكثر الموضوعات تكرارا في القرآن، و في السور المكية بصفة خاصة...

و إنه لمن إعجاز هذا الكتاب أن يعرض الموضوعات التي يكرر ذكرها للتذكير و التريية والتوجيه، بهذا القدر المعجز من التنويع بحيث لا تتكرر صورتان متماثلتان أبدا في القرآن كله، على كثرة المواضع التي يرد فيها كل موضوع!²

فما يجدر الإشارة إليه هو أنه مع ما يبدو لنا من تكرار في بعض الآيات فإنه في الحقيقة ليس تكرارا بمعنى الكلمة، ففي كل آية يظهر لنا معنى جديد و (نجد ظاهرة أخرى تستحق منا النظر من حيث هي جمال فني في التعبير، و من حيث هي لون من التأثير الوجداني الفريد. وليبان هذه الظاهرة نحتاج أن نتحدث قليلا في "اللفظ" و "المعنى" و "الموضوع" و "الأسلوب".³

و قد تعدد القسم في السور المكية بالآيات الكونية، و مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ و قوله أيضا: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ أما القسم بيوم القيامة فقد ورد كذلك في قوله تعالى: ﴿ لَا أُقْسِمُ بِبَيْتِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾.

و الآن سنحاول تصنيف آيات القسم المذكورة أعلاه بحسب المقسم به و الصورة التي جاء عليها:

القسم باسم الرب: وردت هذه الصيغة في عدة مواضع من القرآن الكريم، و جاءت مقترنة بحرف القسم الواو في المواضع كلها كما جاءت مضافة إلى ضمائر مختلفة:

¹ - المرجع نفسه، ص 256.

² - المرجع السابق، ص 261.

³ - المرجع نفسه، ص 246.

* مضافة إلى ضمير المخاطب (و ربك) في الآيات: النساء (65)، الحجر (92)، مريم (68).

* مضافة إلى ضمير المتكلم (و ربي) في الآيات: يونس (53)، سبأ (3)، التغابن (7).

* مضافة إلى ضمير المتكلمين (و ربنا) في الآية: الأنعام (30).

* كما جاءت مضافة إلى أسماء المخلوقات و ذلك في الآيتين: الذاريات (23)، المعارج (40).

القسم باسم الجلالة: ورد القسم باسم الجلالة مقترنا بحروف القسم: الباء و الواو و التاء.

(بالله): دائما ما تكون هذه الصيغة مسبوقة بفعل القسم الذي يكون تارة "أقسم" و تارة "حلف" وقد وردت مع الفعل "أقسم" في الآيات الآتية: المائدة (106، 107)، الأنعام (109)، النحل (38)، النور (53)، النمل (49)، فاطر (42). أما مع الفعل "حلف" فوردت في الآيات: النساء (62)، التوبة (42) و (56) و (62) و (74).

(تالله): وردت هذه الصيغة في تسعة مواضع من القرآن الكريم و هي: يوسف (73) و (85) و (91) و (95)، النحل (56) و (63)، الأنبياء (57)، الشعراء (97)، الصافات (56).

(والله): وردت هذه الصيغة مرة واحدة في الآية: الأنعام (23).

القسم بالقرآن الكريم: أقسم الله تعالى باسمين من أسماء القرآن هما "القرآن" و "الكتاب"، و ذلك في خمسة مواضع، و هي حسب ترتيب المصحف الشريف: يس (2)، ص (1)، ق (1)، الزخرف (2)، الدخان (2).

حيث ورد اسم القرآن في المواضع الثلاثة الأولى، و نلاحظ أنه جاء مقترنا في كل مرة بصفة مختلفة، فتارة هو القرآن الحكيم، و تارة القرآن ذي الذكر، و تارة أخرى هو القرآن المجيد.

أما اسم الكتاب فورد في الموضعين الأخيرين مقترنا بالصفة نفسها و هي: الكتاب المبين.

صيغة نفي القسم: وردت صيغة (لا أقسم) في المواضع الآتية: الواقعة (75)، الحاقة (38)، المعارج (40)، القيامة (1، 2)، التكوير (15)، الانشقاق (16)، البلد (1).

كما يجدر بنا التنبيه إلى أن القسم ورد مسبقا بـ "كلا" التي تفيد النفي أيضا في سورة المدثر (32).

إن فقد كانت هذه أهم صيغ القسم المذكورة في القرآن الكريم، أما ما تبقى فهو قسم من الله تعالى بالمخلوقات جاء مقترنا بحرف القسم "الواو"، و قد تباين المقسم به في هذه المواضع لحكمة معينة، و معظم الآيات التي ورد فيها هذا النوع من القسم موجودة في الجزء الأخير من القرآن الكريم (جزء عم).

كما لا ننسى القسم بعمر الرسول عليه الصلاة و السلام في الآية (72) من سورة الحجر، و القسم بعزة الله في الآية (82) من سورة ص، و القسم بعزة فرعون في الآية (44) من سورة الشعراء، إضافة إلى آية أخرى ورد فيها القسم بصيغة "و الذي فطرنا" و ذلك في سورة طه الآية (72)، فكل هذه الصيغ وردت مرة واحدة في القرآن الكريم و لم تتكرر على غرار باقي الصيغ الأخرى، و سنوردها كلها بإذن الله في الدراسة التطبيقية لأنها أمثلة فريدة.

أما بالنسبة لباقي الآيات، فقد ارتأينا أن نحدّد ما سنتناوله منها بالدراسة نظرا لكثرتها و تكرار بعض الصيغ فيها بحيث نقدّم نماذج عن ترجمة كلّ صيغة، و الآيات -إضافة إلى الآيات السابقة- هي:

سورة النساء (62) و (65)، سورة المائدة (106، 107)، سورة الأنعام (23)، سورة الأعراف (21)، سورة يوسف (73) و (85) و (91) و (95)، النمل (49) سورة يونس (1- 3)، سورة ص (1، 2)، سورة الزخرف (1-3)، سورة ق (1)، سورة النجم (1، 2)، سورة الواقعة (75، 76)، سورة الطارق (1- 4)، سورة الفجر (1- 5)،

سورة الـليـلـيـة _____ ل (1 - 4)، سورة التـيـن (1 - 4)، سورة العـادـيـات (1 - 6)، سورة العـصـر (1، 2).

و قد عمدنا إلى تصنيف هذه الآيات بحسب صيغة المقسم به إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول: القسم بالله و بأسمائه و صفاته.

الفصل الثاني: القسم بأسماء القرآن الكريم.

الفصل الثالث: القسم بالمخلوقات.

الفصل الأول:

القسم بالله و أسمائه وصفاته

سورة النساء، الآية (62):

قال الله تعالى: ﴿فَكَيفَ إِذَا أَصَابْتَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ (62)

أركان القسم في الآية:

إن الأركان الظاهرة في هذه الآية هي كل من فعل القسم و حرف القسم و المقسم به و المقسم عليه، أما المقسم فيدل عليه ضمير جماعة الغائبين (هم) الذي يعود على المنافقين المذكورين في الآية (61) من سورة النساء: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾.

و بهذا تكون أركان القسم في هذه الآية هي:

فعل القسم	المقسم	حرف القسم	المقسم به	المقسم عليه
يحلِفون	المنافقون	الباء	الله	إن أردنا إلا إحسانا و توفيقا

التفسير:

ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآيات وجوها عدّة منها:

نزلت هذه الآيات في قضية منافق اسمه "بشر"، حدث خلاف بينه و بين يهودي، و أراد اليهودي أن يتحاكم إلى رسول الله، و أراد المنافق أن يتحاكم إلى "كعب بن الأشرف"، و كان اليهودي واثقا أن الحق له و لم يطلب التحاكم إلى النبي حبا فيه، بل حبا في عدله.¹

و قيل: إن رجلا من المسلمين كان له على رجل من المنافقين حقّ، فدعاه المنافق إلى وثن كان أهل الجاهلية يتحاكمون إليه.¹

¹ - الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، دط، مطبع أخبار اليوم التجارية، 1991م، ج4، ص 2364.

و قيل أيضا: نزلت في جماعة من المنافقين ممن أظهر الإسلام، أرادوا أن يتحاكموا إلى حكام الجاهلية.²

و قوله ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: فكيف بهم إذا ساقتهم المقادير إليك في مصائب تطرقهم بسبب ذنوبهم، و احتاجوا إليك في ذلك.³

و المصيبة هي الأمر يطرأ على الإنسان بما يضره في عرفه. يقول الشيخ الشعراوي معقبا على ذلك: " و لأنهم منافقون فهم يريدون أن يكون هذا النفاق مكتوما، فإذا جاءت حادثة لتفضحهم صارت مصيبة على الرغم من أن الحادثة في واقعها ليست مصيبة".⁴
ثم يضيف:

" و عندما تحدث لهؤلاء المنافقين مصيبة فهم يحلفون بالله كذبا لأنهم يريدون استدامة نفاقهم... و يحاولون أن يعتذروا عما حدث، يحلفون بالله إنهم بالذهاب إلى الطاغوت أرادوا الإحسان و التوفيق بينهم و بين خصومهم".⁵

و منه فقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ يعني: يعتذرون إليك و يحلفون ما أردنا بذهابنا إلى غيرك، و تحاكمنا إلى أعدائك إلا الإحسان و التوفيق أي المداراة و المصانعة لا اعتقادا منا صحة تلك الحكومة.

الترجمة:

الآية	ترجمتها
فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (62)	62- Comment (agiront-ils) quand un malheur les atteindra, à cause de ce qu'ils ont préparé de leurs propres mains ? Puis ils viendront alors près de toi, jurant par Allah : « Nous n'avons voulu que le bien et la réconciliation ». ⁶

¹ - فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت- لبنان، ط1، 1981، ج10، ص159.

² - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ط6، دار الأندلس، بيروت- لبنان، 1984، ج2، ص327.

³ - المرجع نفسه، (ص ن).

⁴ - الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، ج4، ص 2367.

⁵ - المرجع نفسه، (ص ن).

⁶ - محمد حميد الله، القرآن الكريم مع ترجمة معانيه إلى اللغة الفرنسية، منار للنشر و التوزيع، دمشق- سوريا، دون طبعة، 2007، ص88.

التحليل:

اتفق المفسرون على أن الآية نزلت في بعض المنافقين الذين أرادوا أن يتحاكموا إلى جماعة من أهل الكفر و الطغيان و لم يرضوا بالتحاكم إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم، ويمكن القول بأنها أعمّ من ذلك كلّها، فإن فيها ذمّاً لكلّ من عدل عن الكتاب و السنة و لجأ إلى غيرهما.

فالمعلوم أنه تعالى أوجب على جميع المكلفين أن يطيعوا الله و يطيعوا الرسول، و لهذا أراد أن يذكر في هذه الآية أنّ المنافقين و الذين في قلوبهم مرض لا يطيعون الرسول و لا يرضون بحكمه، و إنما يريدون حكم غيره.

و عليه فهؤلاء المنافقون الذين يظهرون إسلامهم و يضمرون كفرهم يواجهون سؤالاً كان لا بدّ من طرحه: لماذا أردتم الاحتكام إلى الطاغوت و تركتم رسول الله صلى الله عليه و سلم؟

فما يكون جوابهم على هذا السؤال؟

يذكر القرطبي في تفسيره "الجامع لأحكام القرآن" إجابة المنافقين على السؤال المذكور حيث يقولون:

ما أردنا بالعدول عنك في المحاكمة إلا التوفيق بين الخصوم، والإحسان بالتقريب في الحكم.¹

كما يؤكد الزمخشري الإجابة نفسها في تفسيره "الكشاف" بقوله على لسان المنافقين:

نحن أردنا إحساناً لا إساءة، و توفيقاً بين الخصمين، و لم نرد مخالفة لك و لا تسخّطاً على حكمك.²

¹ - شمس الدين القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج17، ص264.

² - الزمخشري، الكشاف، ط1، دار الفكر، بيروت- لبنان، 1977، ج1، ص536.

ثم إنهم لا يكتفون بالقول فحسب بل يحلفون على ذلك بدليل الآية، و لكنهم لا يفعلون ذلك إلا بعد أن يُفصح أمرهم و يظهر كيدهم. فسياق الآيات، بحسب قول الرازي، يخبرنا بأنه تعالى حكى في البداية كيف أنهم يتحاكمون إلى الطاغوت مع أنهم أمروا بالكفر به، و يصدّون عن الرسول مع أنهم أمروا بطاعته، ثم ذكر بعد هذا ما يدلّ على شدّة الأحوال عليهم بسبب هذه الأعمال السيئة في الدنيا و الآخرة فقال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابْتَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾¹.

و قد ورد القسم في هذه الآية باستعمال فعل القسم "حلف" إضافة إلى الصيغة "بأنه"، وذلك لأنّ حرف القسم "الباء" هو الحرف الوحيد الذي يجوز ذكر الأفعال معه. و قد ترجم الدكتور حميد الله الفعل و الصيغة بقوله: "jurant par Allah" حيث ترجم فعل القسم باستعمال اسم الفاعل للفعل "jurer" (le participe présent du verbe) « jurer » و حرف القسم "الباء" بالحرف « par » و حافظ على لفظ الجلالة بنقله حرفياً إلى اللغة الفرنسية "Allah".

و لكن لاستعمال الفعل "حلف" دون غيره من الأفعال ضرورة اقتضاها السياق، فهذا الفعل ينفرد عن غيره بزيادة معنى الكذب أو الحنث و هو ما ذكرناه في بداية البحث:-

"قالحلف يدور حول الاحتمال والشك والتردد، وبهذا يكون الحالف غالباً معرضاً للحنث كثيراً، بأنه حلف على الظن وليس عن يقين"².

"...إذ جاءت مادة (حلف) في القرآن الكريم في ثلاثة عشر موضعاً كلها بغير استثناء في مقام الحنث باليمين"³.

و بما أنّ المُقسم في هذه الآيات هم المنافقون فليس غريباً أو مستبعداً أن تكون أقسامهم كاذبة. يقول الرازي في تفسيره لهذه الآية:

¹ - فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، ج10، ص161.
² - سامي عطا حسن، أسلوب القسم الظاهر في القرآن الكريم - بلاغته و أغراضه، ص 7.
³ - سمية محمد عناية حاج نايف، صيغة نفي القسم في القرآن الكريم، ص18.

"يجبئونك و يحلفون بالله كذبا على أنهم ما أرادوا بذلك الصدِّ إلا الإحسان و التوفيق"، كما يضيف في موضع آخر عن الآية نفسها " و يحلفون بالله على سبيل الكذب أنا ما أردنا بتلك الجناية إلا الخير و المصلحة".

و للتذكير فإن الفعل "حلف" لم يرد إلا في خمسة مواضع في القرآن الكريم بما فيها الآية محل الدراسة الراهنة إضافة إلى أربع آيات أخرى وردت كلها في سورة التوبة و هي الآيات (42) و (56) و (62) و (74) و يجدر التنبيه إلى أن كل هذه الأقسام جاءت على لسان المنافقين.

إن فالفعل العربي "حلف" يعبر عن معنى الكذب أو الحنث في اليمين، في حين يلحظ غياب هذا المعنى في الفعل الفرنسي "jurer" الذي يتميز بالعمومية و الشمول، فهو يعبر عن أي يمين أطلقت.

و يلفت انتباهنا أيضا في هذه الترجمة العبارة المكتوبة بين قوسين (agiront-ils) التي تعني (يتصرفون) مع ملاحظة غيابها في الآية المصدر، و مع هذا فإن معناها يفهم من السياق، فالمقصود هو: كيف يتصرفون إذا أصابتهم مصيبة؟ فهذه الإضافة هنا جاءت لتوضيح المعنى و تفسيره للقارئ الأجنبي.

كما نشير إلى ظهور الشولتين في الترجمة الفرنسية دلالة على نقل الكلام بأسلوب مباشر على لسان المنافقين حين حلفهم و تبريرهم لما اقترفوه.

و خلاصة القول أن القسم الصريح ورد في هذه الآية الكريمة مستوفيا جميع عناصره و التي نخص بالذكر منها فعل القسم "يحلفون" الذي يمتاز بزيادة معنى يرتبط ارتباطا وثيقا مع المُقسم في هذا المقام ألا و هو معنى الكذب أو الحنث التي يتناسب مع طبيعة المنافقين و أخلاقهم.

سورة النساء، الآية (65):

قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (65)

أركان القسم في الآية:

ورد القسم الصريح في هذه الآية مسبقا بأداة النفي "لا" و باستعمال حرف القسم "الواو" واسم الرب مضافا إلى ضمير المخاطب "ربك"، و هو قسم من الله تعالى لرسوله الكريم محمد صلى الله عليه و سلم.

المقسم	أداة النفي	حرف القسم	المقسم به	المقسم عليه (جواب القسم)
الله عزّ و جلّ	لا	الواو	ربك	لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم

التفسير:

يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدّسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكّم الرسول صلى الله عليه وسلم في جميع الأمور، فما حكم به فهو الحقّ الذي يجب الانقياد له باطنا و ظاهرا؛ و لهذا قال ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أي إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجا مما حكمت به، و ينقادون له في الظاهر و الباطن، فيسلمون لذلك تسليما كليّا من غير ممانعة و لا مدافعة و لا منازعة، كما ورد في الحديث "والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به".¹

¹ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج2، ص329.

الترجمة:

الآية	ترجمتها ¹
<p>فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (65)</p>	<p>65- Non!... Par ton Seigneur! Ils ne seront pas croyants aussi longtemps qu'ils ne t'auront demandé de juger de leurs disputes et qu'ils n'auront éprouvé nulle angoisse pour ce que tu auras décidé, et qu'ils se soumettent complètement [à ta sentence].</p>

التحليل:

نلاحظ في الآية الكريمة وجود "لا" نافية قبل القسم؛ و للتذكير فإن آيات القسم المسبوقة بـ "لا" وردت في ثمانية مواضع في القرآن الكريم إلا أن هذه الآية انفردت عنها بدخول "لا" دون أن يظهر بعدها فعل القسم في حين اختصت المواضع السبعة الباقية بدخول "لا" على فعل القسم المصرح به (لا أقسم). و قد استثار هذا التركيب اهتمام العلماء و لفتهم إلى التأمل في معانيه، و مما قيل في تفسير وجود "لا" في هذا الموضع (الآية 65 من سورة النساء):

ذكر الزمخشري في الكشاف:

"(فلا و ربك) معناه فوربك كقوله تعالى ﴿فوربك لنسألنهم﴾ و "لا" مزيدة لتأكيد معنى القسم".²

أمّا الشيخ الشعراوي فذكر تفسيراً آخر في كتابه "خواطر حول القرآن الكريم" حيث قال: "...إنه سبحانه أقسم بقوله ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ﴾، و نعلم أن المنافقين قد ذهبوا فحكّموا غير رسول الله، مع أنهم شاهدون بأنه رسول الله، فكيف يشهدون أنه رسول الله ثم يحكّمون غيره و لا يرضون بقضائه؟ و تلك قضية يحكم الحقّ فيها فيقول: لا، هذه لا

¹ - د.محمد حميد الله، القرآن الكريم مع ترجمة معانيه إلى اللغة الفرنسية، ص88.

² - الزمخشري، الكشاف، ج1، ص538.

تكون أبدا. إذن فـ"لا" النافية جاءت هنا لتتفي إيمانهم و شهادتهم أنه رسول الله؛ لأنهم حكّموا غيره... و بعد ذلك أقسم الحقّ فقال: ﴿وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾.¹

كما نجد في تفسير القرطبي نقلا لقول الطبري و غيره حيث يقول:

وقال الطبري : قوله "فلا" ردّ على ما تقدّم ذكره ؛ تقديره فليس الأمر كما يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك ، ثم استأنف القسم بقوله : ﴿وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. وقال غيره : إنما قدّم "لا" على القسم اهتماما بالنفي وإظهارا لقوته ، ثم كرره بعد القسم تأكيدا للتهم بالنفي.²

و ذهب بعض المفسرين إلى أنّ (لا) نافية لفعل محذوف يفسّره المذكور بعد القسم، والتقدير: فلا يؤمنون و ربك لا يؤمنون، فأخبر أولا و كرر بالقسم ثانيا؛ فاستغنى بذكر الفعل الثاني عن ذكره في الأوّل.³

أما الرازي في تفسيره "مفاتيح الغيب" فيلخص ما تقدّم من الأقوال بقوله:

"لا" في قوله "فلا وربك" فيه قولان: الأول: معناه فوربك، كقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلَنَّكَ أَجْمَعِينَ﴾ و "لا" مزيدة لتأكيد معنى القسم، كما زيدت في ﴿لِنَلَّا يَلْمُ﴾ لتأكيد وجوب العلم، و﴿لا يؤمنون﴾ جواب القسم. و الثاني: أنها مفيدة، و على هذا التقدير ذكر الواحدي فيه وجهين: الأول أنه يفيد نفي أمر سبق، و التقدير: ليس الأمر كما يزعمون أنهم آمنوا و هم يخالفون حكمك، ثم استأنف القسم بقوله ﴿فَوَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾ و الثاني: أنها لتوكيد النفي الذي جاء فيما بعد، لأنه إذا ذكر في أول الكلام و في آخره كان أوكد وأحسن.⁴

1 - الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، ج4، ص ص (2373، 2374).

2 - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج5، ص266.

3 - علي بن محمد بن عبد المحسن الحارثي، أسلوب القسم في القرآن الكريم- دراسة بلاغية، المجلد الأول، ص116.

4 - الرازي، مفاتيح الغيب، ج10، ص168.

و الملاحظ من خلال الترجمة أنّ "لا" النافية تُرجمت مُستقلة عن القسم، فالتركيب العربي "فلا و ربك" يوحي بالالتصاق و الاندماج بين أداة النفي و عبارة القسم في حين أنّ الترجمة الفرنسية فصلت بينهما.

و نحن نعزو هذا الانفصال في الشكل إلى تبني المترجم لبعض معاني "لا" المذكورة سابقا دون غيرها؛ إذ يمكن فهمها على أنها ردّ لما تقدّم من القول ثمّ استؤنف القسم بعدها، كما يمكن فهمها على أنها تأكيد للنفي الذي ورد فيما بعد. و منه نرى أنّ المترجم استبعد كون "لا" في هذا المقام مزيدة لتأكيد معنى القسم و إلّا لكان أهملها دون أن يترجمها نهائيا أو لكان ترجمها بأحد الأساليب التي تفيد التوكيد في اللغة الفرنسية.

و الآن ننقل إلى تأمل سرّ القسم باستعمال اسم الربّ مضافا إلى ضمير المخاطب، الذي يعود على الرسول صلى الله عليه و سلّم، دون غيره من صيغ القسم الأخرى في هذا المقام.

قيل: و لما كان المُقسم عليه يؤكد على عدم إيمان أكثر الناس حتّى يحكموا الرسول صلى الله عليه و سلّم لأنّ حكمه من حكم الله تعالى، جاء المقسم به مساوقا للمضمون المقسم عليه فربط في صورته بين اسم الربّ سبحانه المُشرّع من الأحكام ما يصلح أمور عباده، و ضمير الرسول صلى الله عليه و سلّم الذي أمر الخلق باتّباعه و طاعته، و جعلت طاعته من طاعة مُرسله سبحانه و تعالى، و المُشرّع لما جاء به هذا الرسول، و كأنّ صورة المقسم به -بورودها على هذا النحو- تشير إلى التلازم الوثيق بين طاعة الربّ سبحانه، و طاعة رسوله صلى الله عليه و سلّم،

و إلى أنّ طاعة الرسول عليه الصلاة و السلام لا تتفكّ عن طاعته سبحانه، فلا يكون المؤمن مؤمنا ما لم يمتثل لما جاء به الرسول امتثالاً لا حرج فيه و لا تردّد، ففي بناء

صورة المُقسم به (و ربّك) على هذا النحو توثيق للعلاقة بين حكم الرسول صلى الله عليه وسلم وحكم الله تعالى، و هو المضمون الذي أُكِّد في المُقسم عليه.¹

و قيل أيضا أنّ إضافة اسم الرب تعالى إلى ضمير الرسول صلى الله عليه وسلم فيه تكريم و تعظيم له، و هو ما ذهب إليه كثير من المفسرين. (و هذا يتفق مع ما قرره البلاغيون من أنّ الإضافة قد تكون لتعظيم المُضاف أو المضاف إليه، أو لتحقير كلّ منهما، و واضح أنها في هذا الموضع لتعظيم المُضاف إليه).²

يقول الشيخ الشعراوي في هذا السياق:

"و هذا تكريم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، و دليل على أنّ محمداً عليه الصلاة والسلام ذو منزلة عالية."³

و يُضاف إلى ما سبق أنّ في اسم الربّ من معاني التربية و الرعاية و الرحمة ما يناسب حال الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الموقف.⁴ فالله سبحانه حينما خلق سيّدنا محمداً عليه الصلاة و السلام لم يرد الخلق و الإيجاد فقط بل أراد تربية فيها ارتقاءات النبوة مكتملة. وفي هذه الآية، كأنما يحدث الله عزّ و جلّ نبيه الكريم فيقول له:

"فوربك الذي خلقك، و الذي سواك، و الذي ربّك، و الذي أهلك لأن تكون خير خلق الله و أن تكون خاتم الرسل، و لأن تكون رحمة للعالمين، يقسم بهذا كلّه فيقول: " فَلَا وَرَبِّكَ لَأُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ."⁵

مما سبق تتضح خصوصية اختيار الاسم المقسم به في هذا الموضع، و الصورة التي جاء فيها مضافاً إلى ضمير الرسول صلى الله عليه وسلم لتكون صيغة تحمل في طياتها الكثير من المعاني بالرغم من بساطتها: وربّك.

1 - علي بن محمد بن عبد المحسن الحارثي، أسلوب القسم في القرآن الكريم- دراسة بلاغية، المجلد الأول، ص164.

2 - المرجع نفسه، ص165.

3 - الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، ج4، ص 2375.

4 - علي بن محمد بن عبد المحسن الحارثي، أسلوب القسم في القرآن الكريم- دراسة بلاغية، المجلد الأول، ص166.

5 - الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، ج4، ص 2375.

و قد تُرجمت هذه الصيغة بقوله: "Par ton Seigneur!" أي أنّ الواو = par، و:
ربّك = ton seigneur

ما يلفت الانتباه هنا هو أنّ حرف القسم "الواو" تُرجم بالحرف الفرنسي "par" و هو الحرف نفسه الذي تُرجم إليه حرف القسم "الباء" في الآية التي سبقت دراستها (الآية 62 من سورة النساء). و يجدر بنا التذكير بوجود اختلافات بين حروف القسم العربية؛ فمن خصائص الواو مثلاً أنه لا يصحّ معها ذكر فعل القسم في حين يجوز ذلك مع الباء، و هو ما تثبت صحته الآيتان المذكورتان: "يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ" و "وَرَبِّكَ"، إذ ذكر فعل القسم "يحلّفون" مع الباء و جيء بالمقسم به مباشرة دون ذكر فعل القسم مع الواو. لكن رغم الاختلاف تُرجم كلا الحرفين العربيين بالحرف الفرنسي نفسه.

و نحن نُرجع ذلك إلى خصائص كلّ لغة و استعمالات القسم فيها؛ فالقسم في العربية يتميز بوجود حروف تعبّر عنه و لكلّ منها مميّزاته؛ فقد تختصّ باقترانها بكلمات دون أخرى أو بزيادة معان. أمّا القسم في الفرنسية فلم يُلاحظ أن استعمل مع حرف غير "par". و نلفت عناية القارئ إلى أنّ صيغة القسم هنا تناسب السياق الذي ذُكرت فيه، كما تناسب حال المخاطب بالقسم، و تناسب كذلك المضمون الذي يؤكّده هذا القسم. و من كلّ هذا يتّضح لنا وجود تناسب بين صورة المُقسم به و المُقسم عليه في هذه الآية.

و نختم تعليقنا بالتنبيه إلى وجود علامة تعجّب بعد أداة النفي "Non!" و بعد صيغة

القسم

"Par ton Seigneur!" أي إضافة معنى التعجب إلى كلّ من النفي و القسم و هو ما يُلاحظ غيابه في الأصل العربي، إذ لا وجود لأيّ تعبير أو أسلوب يفيد التعجّب.

سورة المائدة:

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْآثِمِينَ (106) فَإِنْ عَثَرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَأَخْرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (107)﴾.

أركان القسم:

الأركان	المقسم	فعل القسم	حرف القسم	المقسم به	المقسم عليه
الآية 106	الشاهدان اللذان حضرا موت صاحب الوصية	يقسمان	الباء	الله	ذكر الوصية كما تركها صاحبها دون تحريف أو كتمان
الآية 107	شاهدان من أهل الميت	يقسمان	الباء	الله	صدق يمينهما في حالة كذب يمين الشاهدين الأوليين

التفسير:

استؤنفت هذه الآي استئنفا ابتدائيا لشرع أحكام التوثق للوصية لأنها من جملة التشريعات التي تضمنتها هذه السورة، تحقيقا لإكمال الدين، و استقصاء لما قد يحتاج إلى علمه المسلمون.¹

قوله (منكم) أي من المسلمين، و قيل أيضا أي من الأقارب و الأهل. و (من غيركم) قيل من غير المسلمين، يعني أهل الكتاب، و قيل أيضا يعني من الأجانب.²

أما في قوله تعالى: ﴿تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ فمعناه: تمسكونهما و لا تتركونهما يغادرانكم حتى يتحملا الوصية.³

¹ محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير و التنوير، ج6، ص80.

² ينظر: تفسير ابن كثير، ج2، ص 670 / الزمخشري، الكشاف، ج1، ص650.

³ محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير و التنوير، ج6، ص85.

أما الصلاة في قوله ﴿مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ فقد فسرها جماعة من أهل العلم بأن المراد بها هو صلاة من صلوات المسلمين.

قال العوفي عن ابن عباس: يعني صلاة العصر (لأنه وقت اجتماع الناس، و عن الحسن، بعد صلاة العصر أو الظهر لأن أهل الحجاز كانوا يقعدون للحكومة بعدهما).¹
و فسرها آخرون تفسيراً مغايراً، و ذلك مثلما قال السدي عن ابن عباس: يعني صلاة أهل دينهما²، يقصد بذلك الشاهدين.

و قوله تعالى: ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ أي لا نعتاض عنه بقليل من المال الزائل حتى لو كان المقسم له أو المشهود له قريباً لنا، ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ التي أمرنا بها، فإن فعلنا شيئاً من ذلك، أي من تحريف الشهادة أو تبديلها أو تغييرها أو كتمها، فـ ﴿إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾.³

و يقول الحق سبحانه و تعالى بعد ذلك في كتابه العزيز: ﴿فَإِنْ عَثَرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَأَخْرَانِ يَوْمَانٍ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتَيْهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

و كلمة (عثر) تعني الوقوع على الشيء على غير قصد⁴، أي دون بحث و تنقيب.

و منه يكون معنى الآية: فإن ظهر لنا دليل ما كذب الشاهدين اللذين حضرا موت صاحب الوصية كتحريفها أو إخفاء بعض تفاصيلها، فلنا أن نستدعي شاهدين من أولياء الميت فيقسمان بالله أن يمينهما أصدق و أن الشاهدين السابقين قد كذبا في الشهادة و أن هذا الاتهام بالكذب ليس افتراء و لكنه قائم على حقيقة.⁵

¹ - الزمخشري، الكشاف، ج1، ص650.

² - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج2، ص672.

³ - ينظر: تفسير الجلالين ص 125/ تفسير ابن كثير، ج2، ص672.

⁴ - الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، ج6، ص3442.

⁵ - ينظر: المرجع نفسه، ص ص: 3441، 3442.

الترجمة:

ترجمتها ¹	الآية
<p>106- Ô les croyants! Quand la mort se présente à l'un de vous, le testament sera attesté par deux hommes intègres d'entre vous, ou deux autres, non des vôtres, si vous êtes en voyage dans le monde et que la mort vous frappe. Vous les retiendrez (les deux témoins), après la Salât, puis, si vous avez des doutes, <u>vous les ferez jurer par Allah</u>: « Nous ne faisons aucun commerce ou profit avec cela, même s'il s'agit d'un proche, et nous ne cacherons point le témoignage d'Allah. Sinon, nous serions du nombre des pécheurs »</p>	<p>يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتَ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبُسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ رَاتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْآثِمِينَ (106)</p>
<p>107- Si l'on découvre que ces deux témoins sont coupables de péché, deux autres plus intègres, parmi ceux auxquels le tort a été fait, prendront leur place et <u>tous deux jureront par Allah</u>: « En vérité, notre témoignage est plus juste que le témoignage de ces deux-là ; et nous ne transgressons point. Sinon, nous serions certainement du nombre des injustes ».</p>	<p>فَإِنْ عَثَرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَأَخْرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (107)</p>

¹ - محمد حميد الله، القرآن الكريم مع ترجمة معانيه إلى اللغة الفرنسية، ص 125.

التحليل:

قيل أنّ لنزول هذه الآيات مناسبةً، و هي حادثة وقعت في آخر حياة الرسول -عليه الصلاة والسلام-:

"رُوي أنه خرج بُديل بن أبي مريم مولى عمرو بن العاص، و كان من المهاجرين، مع عديّ بن زيــــــــــــد و تميم بن أوس، و كانا نصرانيين، تجارا إلى الشام، فمرض بديل و كتب كتابا فيه ما معه و طرحه في متاعه ولم يخبر به صاحبيه و أمرهما أن يدفعوا متاعه إلى أهله و مات، ففتشوا متاعه فأخذا إناءً من فضة فيه ثلاثمائة مثقال منقوشا بالذهب فغيّباه، فأصاب أهل بديل الصحيفة فطالبوهما بالإناء فجددا فرعهوهما إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم" ¹ فنزلت في ذلك.

ففي هذه الآيات، يلفت الله عباده إلى أنه يجب على المرء ألا ينسى في لحظة مواجهة الموت إن كان مدينا لأحد أو كان له دين عند أحد، فإن سافر ضربا في الأرض، فعليه أن يوصي حتى لا يضيع على ورثته حقاً لهم، أو يسدّد ما عليه من دين ليبرئ ذمّته و أن يُشهد على وصيّته اثنين، و وصف الاثنين بأن يكونا عدلين. و لم يترك الحق لنا في هذا الأمر أيّ عذر بل لا بدّ من شهادة اثنين.

(و الشهادة هي الأمر المشهود في الحاضر، و مثال ذلك قوله الحق: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ (من الآية 185 سورة البقرة) (...). و الوصية -كما نعلم- هي إيحاء بأمر يهّم الموصي بالنسبة للموصى إليه ².

و قد ترجمت "الوصية" بلفظة "le testament" التي تعبّر في اللغة الفرنسية عن الرغبات الأخيرة للشخص، و ما يوّد أن يُفعل بأمواله بعد وفاته، و هو المعنى المطلوب هنا.

و قد قدّم الله عزّ و جلّ الوصية على الدين في قوله: ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ (النساء: 12) ليجعلنا نهتمّ بأمرها، ذلك أنّ (الدين حقّ و الوصية تبرّع (...). لأنّ الدين له

¹ - الزمخشري، الكشاف، ج1، ص 650.

² - الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، ج6، ص ص: 3438، 3439.

مُطالِبٍ سَيُطالِبُ به، و لكن الموصى إليه قد لا يكون صاحب حقٍّ و لكنّه يتلقّى تبرّعا بالوصية)¹. و لذلك أراد الحق سبحانه و تعالى أن يؤكّد أمر الوصية حتّى في الوقت الذي يعزّ فيه التأكيد، فأمر الإنسان أن يوصي بها إن كان بين أهله و قومه.

و يؤكّد الحقّ أهميّة الوصية أيضا إن كان الإنسان مسافرا، فإن أحسّ باقتراب الموت فله أن ينادي اثنين من أهل دينه و يوصيهما، و إن لم يجد أحداً من أهل دينه، فليُسمع وصيته اثنين من غير أهل دينه.²

و شرط كون الشاهدين من دين الموصي - هو الإسلام - أحد التفسيرات المذكورة لنص الآية "اثنان ذوا عدلٍ منكم"، فكلمة "منكم" كلمة عامة قد يفهم منها معانٍ مختلفة، كالدلالة على أنّهما من الأهل أو الأقارب أو العشيرة أو للدلالة على الانتماء نفسه في المذهب أو في الدين. و لهذا جاءت الترجمة عامة كذلك، فلم يختار المترجم معنى محدداً دون غيره، بل آثر محاكاة التعبير العربي بترجمته ترجمة حرفية أفادت المعنى و لم تخلّ به، و لهذا قال: "deux hommes intègres d'entre vous".

كما نلاحظ أنّ هذه الترجمة حدّدت صفتين أساسيتين من صفات الشاهدين: الأولى كونهما رجُلين "hommes"، و الثانية كونهما عدلين "intègres".

و قد حدّدت الآية توقيتنا للإتيان بهذين الشاهدين لأداء شهادتهما و هو بعد الصلاة.

و كما رأينا في التفسير، فقد اختلف المفسرون في تحديد معنى الصلاة، و قد جاءت ترجمتها بلفظة "Salât" إشارة إلى عموم معناها و اختلاف تفسيراتها، فلم يعبر عنها بمعنى محدّد دون المعاني الأخرى.

و لكن لماذا حدّد وقت أداء الشهادة من بعد الصلاة؟

¹- المرجع السابق، (ص ن)
²- المرجع نفسه، (ص ن).

قيل: لأنّ الإنسان عادة بعد أن يؤدي الصلاة، سواء أكان من أهل الكتاب أم من غيرهم، تصفو نفسه بالاستعداد للصدق بعد أن وقف بين يدي الله، و يكون في هذه الحالة أقلّ اجترأ على الكذب.¹

(و المقصود أن يقام هذان الشاهدان بعد صلاة اجتمع الناس فيها بحضرتهم "فيقسمان بالله إن ارتبتم" أي إن ظهرت لكم منهما ريبة أنهما خانا أو غلّا)² أو بمعنى آخر إن ظهر لكم (اعتراض بين القسم و المقسم عليه)³.

ففي هذه الحالة يقسمان بالله ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾، (و الضمير في "به" للقسم، و في "كان" للمقسم له، يعني لا نستبدل بصحة القسم بالله عرضا من الدنيا)⁴.

و قد ورد القسم الصريح في كلتا الآيتين السابقتين بأركان متشابهة؛ حيث يُلاحظ أنهما اتفقتا في فعل القسم (يقسمان) و في حرف القسم (الباء) و المقسم به (اسم الجلالة الله)، ولكنهما اختلفتا في المقسم و المقسم عليه.

ففي الآية الأولى، المقسم هما الشاهدان اللذان حضرا موت صاحب الوصية، إذ يقسمان على قول الحقيقة و ذكر الوصية كما تركها صاحبها دون تحريف أو كتمان.

أما في الآية الثانية، فالمقسم هما شاهدان من أهل الميت يقسمان، في حالة خيانة أو كذب الشاهدين الأولين، على أن يمينهما أصدق.

و الملاحظ أنّ الترجمة اختلفت في كلّ آية عن الأخرى، لا نقول اختلافا جذريا؛ لأنّ فعل القسم و حرفه و المقسم به عناصر تكررت في ترجمة كلتا الآيتين، و لكنّ الاختلاف مسّ زمن تصريف فعل القسم.

ففي الآية الأولى، كانت الترجمة: "vous les ferez jurer par Allah"

مقابلا لـ "فيقسمان بالله"، في حين ترجمت العبارة ذاتها في الآية الثانية بـ:

¹ - الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، ج6، ص3439.

² - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج2، ص672.

³ - الزمخشري، الكشاف، ج1، ص650.

⁴ - المرجع نفسه، (ص ن).

" tous deux jureront par Allah "

من خلال التمعن في الترجمتين نتوصل إلى أنّ حرف القسم "الواو" قد تُرجم بالحرف الفرنسي: par (la préposition):.

أمّا المقسم به، و هو اسم الجلالة "الله" فقد حافظ المترجم عليه في اللغة الفرنسية (Allah) لما يحمله من معاني و دلالات عقائدية.

نعود الآن إلى ترجمة فعل القسم:

إذا قلنا في اللغة العربية "فيقسمان"، نفهم منه أنّ هذين الشخصين اللذين يقسمان يقومان بالفعل بمحض إرادتهما دون ضغط أو إكراه؛ و لكن بعض العلماء فسّروه بعكس ذلك بناء على السياق الذي جاءت فيه الآية، و ممّا قالوا:

﴿إِنْ ارْتَبْتُمْ فِي شَأْنِهِمَا وَ اتَّهَمْتُمُوهُمَا فَحَلِّفُوهُمَا﴾¹.

و قيل أيضا بأنّ " قوله تعالى : {إِنْ ارْتَبْتُمْ} شرط لا يتوجب تحليف الشاهدين إلّا به، ومتى لم يقع ريب ولا اختلاف فلا يمين".²

و هذا يفسّر ترجمة الدكتور حميد الله بقوله: "vous les ferez jurer par Allah" ومعناها تحليف هذين الشاهدين بشرط توفرّ الرّيب أو الشكّ في أقوالهما: " si vous avez " "des doutes".

أما بالنسبة للآية الثانية، فإنّ الفعل المضارع "يقسمان" تُرجم بـ: "jureront" المُصرّف في زمن المستقبل البسيط (verbe conjugué au futur simple)، وذلك لأنّه فعل جواب الشرط، لأننا إذا تتبّعنا الجملة من بدايتها وجدناها تُستأنف بشرط: "فَإِنْ عُرِّ عَلَىٰ أَنَّهُمَا... فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ" و ترجمتها:

"Si l'on découvre que... tous deux jureront par Allah"

¹ - الزمخشري، الكشاف، ج1، ص 650.

² - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج6، ص355.

و منه نستنتج أنّ فعل القسم "أقسم" قد تُرجم إلى الفعل الفرنسي "jurer" و هو الفعل نفسه الذي تُرجم إليه فعل القسم "حلف" كما رأينا في الموضوع الذي خصّ بالدراسة الآية 62 من سورة النساء، مع أنّ كلا من الفعلين يختص بالتعبير عن معنى خاصّ في العربية كما أشرنا إليه في الدراسة النظرية و ذكرنا به في الموضوع المذكور أعلاه (سورة النساء: 62).

أما عن المقسم عليه فقد اختلف من آية إلى أخرى باختلاف المقسمين في كل منهما، كما سبق التنبه إليه، و لكن الملاحظ هو تأكيده في كليهما بـ "إنّ" المشدّدة في قولهم: ﴿إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾ و ﴿إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾. و للتعبير عن هذا التوكيد، فقد استعمل المترجم أسلوب الاستثناء بقوله "Sinon" في كلا الآيتين إضافة إلى لفظة "certainment" في الآية الثانية.

سورة الأنعام:

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (23)

أركان القسم في هذه الآية:

القسم في هذه الآية هو قسم صادر من المشركين يوم القيامة و المخاطب به هو الله عزّ و جلّ.

المقسم	المقسم له	حرف القسم	المقسم به	المقسم عليه
المشركون	الله عزّ و جلّ	الواو	اسم الجلالة + اسم الرب	ما كُنَّا مشركين

التفسير:

يخبرنا الله سبحانه و تعالى عن المشركين يوم القيامة حين يحشرهم مع آلهتهم التي كانوا يعبدونها من دونه و يسألهم عنها قائلاً: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَرَعُمُونَ﴾، فتكون إجابتهم: "وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ".

و هم في ظاهر الأمر يدافعون عن أنفسهم، و في باطن الأمر يعرفون الحقيقة الكاملة و هي أن الملك كله لله.¹

و قد ابتدأ الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾؛ و الفتنة أصلها الاختبار، من قولهم: فتن الذهب إذا اختبر خلوصه من الغلث². و قيل في تفسيرها أيضا: قال الضحاك: عن ابن عباس ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ أي حجبتهم. و قال عطاء الخراساني عنه: أي معذرتهم، و كذا قال قتادة. و قال ابن جريج، عن ابن عباس: أي قيلهم (...). قال ابن جرير: و الصواب ثم لم يكن قيلهم، عند فتننا إياهم، اعتذارا عما سلف منهم من الشرك بالله ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.³

أما الزمخشري فيرى أن معنى الفتنة هنا هو الكفر أو الكذب، فيقول: (فتنتهم) كفرهم، و المعنى: ثم لم تكن عاقبة كفرهم الذي لزموه أعمارهم و قاتلوا عليه و افتخروا به و قالوا دين آبائنا إلا جوده و التبرؤ منه و الحلف على الانتفاء من التدين به، ويجوز أن يُراد: ثم لم يكن جوابهم إلا أن قالوا، فسُمي فتنة لأنه كذب.⁴

الترجمة:

الآية	ترجمتها
ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (23)	23- Alors il ne leur restera comme excuse que de dire : « Par Allah notre Seigneur ! Nous n'étions jamais des associateurs ». ⁵

¹ - الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، ج6، ص3561.

² - محمد الطاهر بن عاشور، التحرير و التنوير، دار التونسية للنشر- تونس، دبط، 1984، ج7، ص175.

³ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج3، ص13.

⁴ - الزمخشري، الكشاف، ج2، ص11.

⁵ - محمد حميد الله، القرآن الكريم مع ترجمة معانيه إلى اللغة الفرنسية، ص 130.

التحليل:

يرد هذا القسم في سياق سؤال المشركين عن شركهم يوم القيامة، حيث يقسمون، إجابة على هذا السؤال، على أنهم ما كانوا مشركين أي أنهم ينفون الشرك عن أنفسهم في الدنيا. وهذا بالطبع قسم يخالف الحقيقة و الواقع.

و هنا يتبادر إلى الأذهان سؤال منطقي: لماذا يقسم المشركون على نفي الشرك عن أنفسهم بعد اطلاعهم على حقائق الأمور يوم القيامة و بعد علمهم أن الكذب على الله الذي يعلم السرّ و أخفى محالّ و أن لا جدوى منه؟

ذهب المفسرون في محاولاتهم للإجابة عن هذا التساؤل مذاهب كثيرة، و استدلل كلّ منهم بأدلة معيّنة، و سنذكر أهمّ ما قالوه، و نبتدئ بقول ابن عباس:

يغفر الله تعالى لأهل الإخلاص ذنوبهم، ولا يتعاطم عليه ذنب أن يغفره، فإذا رأى المشركون ذلك؛ قالوا إن ربنا يغفر الذنوب ولا يغفر الشرك فتعالوا نقول إنا كنا أهل ذنوب ولم نكن مشركين.¹

و يقول الطبري: و قد ذكر أنّ هؤلاء المشركين يقولون هذا عند معاينتهم سعة رحمة الله يومئذ.²

أي أنهم لسعة رحمته سبحانه يعتقدون أنهم سيدخلون فيها و لو كان السبيل إلى ذلك القسم بما يخالف الحقيقة.

كما يعلّل آخرون هذا القسم بكون الموقف الذي ورد فيه موقف تحيّر و دهشة جعل المشركين ينسون ما كانوا عليه في الدنيا؛ يقول أبو السعود: و إنّما يقولون ذلك مع علمهم أنّه بمعزل من النفع من فرط الحيرة و الدهش.³

كما يقول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور صاحب تفسير التحرير و التنوير:

¹ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج6، ص401.

² - علي بن محمد بن عبد المحسن الحارثي، أسلوب القسم في القرآن الكريم- دراسة بلاغية، المجلد الأول، ص250.

³ - المرجع نفسه، ص251.

تحتمل الفتنة أن تكون بمعنى اضطراب الرأي و الحيرة في الأمر، و يكون في الكلام إيجاز. و التقدير: فافتننوا في ماذا يجيبون، فكان جوابهم أن قالوا ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾¹.

و يضيف في موضع آخر:

لأن الحيرة و الدهش الذي أصابهم خيل إليهم أنهم يموهون على الله تعالى فيتخلصون من العقاب.²

و يشاطرها الرأي الزمخشري؛ إذ يقول على اعتبار أن المشركين في موضع امتحان يوم القيامة كسائر الخلق:

الممتحن ينطق بما ينفعه و بما لا ينفعه من غير تمييز بينهما حيرة و دهشا.³

و ذكر البعض وجها آخر لتعليل القسم في هذا الموضع، إذ قيل أنه لا يخالف الحقيقة بل إنه قسم صادق، ذلك أنهم كانوا يؤمنون بكل ما جاء به الوحي من التوحيد، و إنما كانوا يُظهرون الشرك و التمسك به مكابرة و عنادا (...). و إذا صح ذلك فإن في قسمهم على نفي الشرك اعتدادا بعلم الله تعالى و اطلاعه على ما كانوا يضمرون، فكأنهم يريدون بذلك التشبث بما كانوا عليه من الإيمان الباطن؛ و اللفت إليه في هذا المقام؛ لعلمهم أن الله تعالى مُطَّلَع عليه، طمعا في رحمته و النجاة من عقابه، لاسيما و أن المشرك لا ينجو في ذلك اليوم.⁴

الآن و قد بيّنا السياق الذي ورد فيه هذا القسم و نقلنا تفاسير العلماء للدوافع التي بعثت المشركين على قوله، نعود لنبحث في صورة المُقسم به الذي يجمع في هذا الموضع بين اسم الجلالة و اسم الرب ليكون التركيب: و الله ربنا.

1 - محمد الطاهر بن عاشور، التحرير و التنوير، ج7، ص176.

2 - المرجع السابق، ص177.

3 - الزمخشري، الكشاف، ج2، ص11.

4 - علي بن محمد بن عبد المحسن الحارثي، أسلوب القسم في القرآن الكريم- دراسة بلاغية، المجلد الأول، ص252.

و قد اختلف العلماء في تفسير ماهية اسم الربّ بالنسبة إلى اسم الجلالة، فمنهم من رأى أنه وصف له و منهم من رأى بأنه منادى. و على هذا كانت له قراءتان؛ فقرأ على النصب وعلى الجرّ. ورد في التحرير و التنوير:

و قرأ الجمهور "ربّنا" - بالجرّ - على الصّفة لاسم الجلالة. و قرأه حمزة و الكسائي، وخلف - بالنصب - على النداء بحذف حرفه.¹

كما ورد في تفسير "معاني القرآن":

تُقرأ ربّنا و ربّنا خفصا و نصبا. قال الفراء: و حدّثني الحسن بن عياش (...). عن علقمة أنه قرأ "و الله ربّنا" قال: معناه: و الله يا ربّنا. فمن قال "ربّنا" جعله محلوفا به.²

و أيّا ما كان الوجه في القراءة، فإنّ (ربّنا) عنصر من عناصر هذا القسم؛ لأنها إمّا أن تكون وصفا للمقسم به فتكون جزءاً من صورته، أو أن تكون اسماً منادياً هو المقسم به نفسه، لاتّحادهما و كونهما من أسماء الله تعالى.

و لاختيار اسم الجلالة للإقسام به في هذا الموضع علاقة وثيقة مع القضية المقسم عليها، و هي نفي الشرك عن أنفسهم، و لذلك خاطبوا الله تعالى باسمه الدال على تفرّده و وحدانيته، ذلك أنّ اسم الجلالة "الله" هو الاسم الذي لا يشترك معه تعالى فيه أحد، فهم بالإقسام به يقرّون و يعترفون بمعناه و هو ما يتماشى ما يقسمون عليه، و هذا ضرب من التناسب بين المقسم به و المقسم عليه. يقول البقاعي في السياق ذاته:

"...فذكروا الاسم الأعظم الذي تندكّ لعظمته الجبال الشّمّ، و تنطق بأمره الأحجار الصّمّ،

الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى التي ظهر لهم كثير منها في ذلك اليوم."³

و للحفاظ على كلّ هذه المعاني فلا يوجد أفضل من اسم الجلالة للتعبير عنها، و منه نلاحظ أنّ المترجم أبقى عليه في ترجمته لما يحمله من معنى التوحّد فجاءت ترجمته:

"Allah".

¹ - محمد الطاهر بن عاشور، التحرير و التنوير، ج7، ص177.

² - أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء، معاني القرآن، ج1، ص330.

³ - علي بن محمد بن عبد المحسن الحارثي، أسلوب القسم في القرآن الكريم- دراسة بلاغية، المجلد الأول، ص254.

أمّا اسم الربّ مضافاً إلى ضمير المتكلمين فيفيد معاني أخرى منها الخضوع و التذلل و طلب الغفران و المبالغة في التبرؤ من الشرك، و هو ما ذكره أبو السعود في قوله:

" و وصفه تعالى بربوبيته لهم للمبالغة في التبرؤ من الإشراف، و قرئ ربّنا على النداء فهو لإظهار الضراعة و و الابتهاج في استدعاء قبول المعذرة.¹"
كما يقول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور:

و ذكرهم الربّ بالإضافة إلى ضميرهم مبالغة في التصل من الشرك، أي لا ربّ لنا غيره.²

و قد تُرجم بالعبارة: *notre seigneur*؛ و ذلك بإضافة اسم الربّ في اللغة الفرنسية "*seigneur*" إلى ضمير المتكلمين "*notre*".

و عليه تكون ترجمة صيغة القسم الكلية هي: *Par Allah notre Seigneur !* و منه نقول أنّ عناصر القسم في العربية قد ترجمت إلى مكافئاتها في اللغة الفرنسية. ولكن ما يشدّ انتباهنا هو علامة التعجب التي أضافها المترجم في نهاية صيغة القسم، و التي يمكن أن نرجعها إلى ما قاله بعض المفسرين من كون الموقف الذي ورد فيه القسم موقف دهشة و تحير.

كما نلتفت إلى وجود أسلوب استثناء في الآية عبّر عنه بالنفي متبوعاً بـ "إلا" في قوله: (لم تكن... إلا)، و قد عبّر عنه الدكتور حميد الله بالصيغة ذاتها بقوله: *il ne leur restera comme excuse que de dire*

و الملاحظ كذلك أنّه ترجم كلمة "الفتنة" بـ "*excuse*" بمعنى العذر، و هو ما قال به عطاء الخراساني كما ذكرنا آنفاً. و قد نسبها إلى جماعة الغائبين، كما في اللفظ العربي، عن طريق الضمير *leur*.

و في الختام نقول بأنّه من خلال ما سبق تتضح لنا خصوصيات اختيار عناصر القسم في هذا الموضوع، فمجيء المقسم عليه في صورته التي ورد عليها لم يكن اعتباطاً، فورود اسم الربّ

¹ - المرجع نفسه، ص255.

² - محمد الطاهر بن عاشور، التحرير و التنوير، ج7، ص177.

مضافا إلى ضمير المتكلمين و اقترانه باسم الجلالة يُظهر المناسبة الموجودة بين المقسم به والمقسم عليه و التي يقتضيها سياق الآية أولا ثم سياق السورة في مجملها و ما اشتملت عليه من تقرير لتوحيد الألوهية و الربوبية.

سورة يوسف:

اشتملت سورة يوسف على أربعة مواضع للقسم جاءت كلها بصيغة واحدة و هي "تالله". و للتذكير فإن هذه الصيغة وردت تسع مرات من أصل عشرة ورد فيها القسم باسم الجلالة سبحانه. و زيادةً على أن هذه المواضع الأربعة تتفق في الصيغة، فإنها تتفق أيضا في المصدر؛ فهي محكية عن إخوة يوسف عليه السلام.

و هذه المواضع الأربعة كما وردت بالترتيب هي:

الموضع الأول:

قال الله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (73)﴾

أركان القسم في الآية الكريمة:

المقسم	المقسم له	حرف القسم	المقسم به	المقسم عليه
إخوة يوسف	المؤذن و من معه	التاء	اسم الجلالة "الله"	لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض و ما كنا سارقين

التفسير:

جاء في تفسير القرطبي:

قوله تعالى : ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾ يروى أنهم كانوا لا ينزلون على أحد ظلماً، ولا يرعون زرع أحد ، وأنهم جمعوا على أفواه إبلهم الأكمة لئلا تعيث في زروع الناس. ثم قال : ﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ يروى أنهم ردوا البضاعة التي كانت في رحالهم ؛ أي فمن رد ما وجد فكيف يكون سارقاً؟!¹

الترجمة:

الآية	ترجمتها
قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (73)	73- « Par Allah , dirent-ils, vous savez certes que nous ne sommes pas venus pour semer la corruption sur le territoire et que nous ne sommes pas des voleurs ». ²

التحليل:

ذكرنا سابقاً، في الحديث عن حروف القسم و معانيها، أن "التاء" تفيد التعجب إلى جانب القسم. و معنى هذا أن إخوة يوسف أقسموا و هم متعجبون من أمر ما، فما هو؟

للإجابة عن هذا السؤال، يجدر بنا أن نراجع الآيات التي وردت قبلاً:

¹ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج9، ص234.

² - د.محمد حميد الله، القرآن الكريم مع ترجمة معانيه إلى اللغة الفرنسية، ص 244.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئَسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (69) فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذِنَ لِمُؤَدِّنِ أَيُّهَا الْعَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (70) قَالَُوا وَ أَفَبُلُوا عَلَيْنَهُمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ (71) قَالَُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَ لِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَ أَنَا بِهِ زَعِيمٌ (72) قَالَُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (73)﴾.

يصدر هذا القسم في سياق حكاية المكيدة التي دبرها سيدنا يوسف، بتوفيق من الله تعالى، لاستبقاء أخيه بنيامين عنده، في الرحلة الثانية التي قام بها الإخوة إلى مصر، حيث أمر بعض أتباعه بدسّ السقاية في متاع أخيه. و السقاية كما قيل هي إناء كان يسقى بها الملك ثم جُعِلت صاعاً يُكَال به، و هي من فضة في قول الأكثرين، و قيل أيضاً من ذهب، و قيل كانت مرصعة بالجواهر¹، و كل هذا إنما يدل على غلاء قيمتها.

و بعد أن جُهِّز إخوة يوسف و همّوا بالعودة إلى ديارهم، نودوا أن يا أصحاب تلك العير أنتم سارقون.

فما كان ردّ فعلهم على هذا الاتهام؟

من سياق الآيات، يظهر لنا أنّ إخوة يوسف أقسموا، و هم مندهشون من اتّهامهم بالسرقة، على أنّهم لم يسرقوا شيئاً، فالكلّ قد علم أنّهم لم يأتوا بغرض الإفساد بسرقة أو غير ذلك، لما شهد منهم من حسن السيرة و دلائل الأمانة في كرّتي مجيئهم. أي أنّهم تعجّبوا مما أضيف إليهم و نفوا أن يكون ممّا تقتضيه سجايأهم.

و واضح أنّهم يُوجّهون هذا القسم إلى المؤذن و من معه من القائمين على خزائن مصر، في مجابهة اتّهام لم يكونوا يتوقّعون، و لم يصدر هذا القسم منهم إلّا بعد أن تأكّدوا بأنهم المعنيون دون غيرهم.

¹ - ينظر: تفسير ابن كثير، ج 4، ص 39 / تفسير الكشاف، ج 2، ص 334.

و قد أظهروا منذ الوهلة الأولى في تصرفاتهم و كلامهم ما يدلّ على براءتهم من التّهمة الموجهة إليهم مع إبداء الدهشة و الاستغراب. و أوّل دليل على ذلك إقبالهم على من اتّهمهم و سؤالهم عمّا ضاع منهم ﴿قَالُوا وَ أَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ﴾ (يوسف: 71)، فهم لم يبادروا إلى نفي السرقة بل بادروا إلى السؤال عن المسروق، و في ذلك تعبير عن ثقّتهم في أنفسهم و اهتمامهم بالأمر.

و هنا قد يتبادر إلى الذهن السؤال الآتي: إن كان إخوة يوسف على هذا القدر من الثقة بأنفسهم، فلماذا لجؤوا إلى القسم بالله إذن؟

يقول علي بن محمد بن عبد المحسن الحارثي في رسالته "أسلوب القسم في القرآن - دراسة بلاغية" بأن صدور القسم من إخوة يوسف إظهار لقوّة الرغبة في نفي ما نسب إليهم¹، و لما له من وقع في نفوس المخاطبين خاصة و أنهم على علم بأن هؤلاء ما جاؤوا للإفساد في الأرض.

و قد رجّح الدكتور أحمد اللهيبي كون القسم واقعا على قوله: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا...﴾؛ لأنّ ذلك ما تجيزه الصناعة النحوية، و يقرّه المعنى. فأما من جهة الصناعة؛ فهي تقتضي أن تدخل (لقد) على الجواب إذا كان فعلا ماضيا مثبتا متصرفا، و أمّا من حيث المعنى، فإن القسم على أن المخاطبين عالمون بنزاهة المُقسِمين من الفساد و السرقة، أبلغ في البراءة مما نسب إليهم، و ألزم للمخاطبين بالقناعة و القبول، لأنهم ذكروهم بما يعلمونه عنهم من الأمانة و حسن المعاملة معهم قبل ادّعاء السرقة.²

و ممّا زاد من قوة تأكيد المُقسم عليه (...) لام التوكيد الداخلة على (قد) التي تفيد التوكيد كذلك (...) لأنها إذا دخلت على الفعل الماضي أفادت تحقّق وقوعه.

و قد أشار المترجم في ترجمته إلى معنى التوكيد المذكور هنا حيث عبّر عنه باللفظ "certes" الذي يفيد التوكيد في اللغة الفرنسية (adverbe d'affirmation).

¹ - علي بن محمد بن عبد المحسن الحارثي، أسلوب القسم، المجلد 2، ص 282.

² - المرجع السابق، ص ص: 283، 284.

أما عن صيغة القسم "تالله"، فقد ترجمها الدكتور حميد الله بـ " Par Allah " أي أن حرف القسم "التاء" يقابله "Par"، و ما يجدر الإشارة إليه هنا هو أن هذه الكلمة هي نفسها التي ترجم إليها حرفا القسم "الباء" و "الواو" كما ورد ذكره فيما سبق.

حيث أن ترجمة الآية 62 من سورة النساء "يخلفون بالله" كانت: "jurant par Allah"، وترجمة الآية 23 من سورة الأنعام "والله ربنا" كانت: "Par Allah notre Seigneur".

أما لفظ الجلالة فقد أثر المترجم أن يحافظ عليه كما هو لما له من دلالات عقائدية في نفوس المسلمين، لكونه اسم الله المعظم.

أما فيما يتعلق بعلامات الترقيم (la ponctuation) فنلاحظ ظهور الشوئتين (les guillemets) دلالة على نقل الكلام بطريقة مباشرة (le discours direct) على لسان إخوة يوسف، إذ نلاحظ أن الفعل "قال" (le verbe introducteur) قد ورد في بداية الآية الكريمة في حين ذكره المترجم في وسطها، و لا ضير في ذلك لأنه يجوز في اللغة الفرنسية في حالة نقل الكلام بطريقة مباشرة.

و نختم تعليقنا بالتنويه إلى الصورة البيانية التي أضافها الدكتور حميد الله في ترجمته حين قال:

"pour semer la corruption sur le territoire" لترجمة العبارة "لنفسد في الأرض"، و هي استعارة مكنية (métaphore). فإذا بحثنا عن معنى الفعل "semer" في اللغة العربية وجدنا من معانيه "زرع"،¹ لتصبح الترجمة الحرفية للعبارة هي:

"pour semer la corruption sur le territoire"

بمعنى "لنزرع الفساد في الأرض". و هي في الحقيقة تفيد المعنى نفسه، و لكن من حيث البلاغة فإننا نرى أنها أبلغ و أقوى.

¹ - د. سهيل إدريس، المنهل - قاموس فرنسي عربي، دار الآداب للنشر و التوزيع، بيروت - لبنان، ط37، 2007، ص1111.

الموضع الثاني:

قال الله تعالى:

﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذَكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ (85)

أركان القسم في الآية الكريمة:

المقسم	المقسم له	حرف القسم	المقسم به	المقسم عليه
إخوة يوسف	أبوهم يعقوب	التاء	اسم الجلالة "الله"	تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين

التفسير:

﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذَكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾، (أي: لا تزال تذكر يوسف و ما حدث له، حتى تُشرف على الهلاك. و الحرَض كما نعلم هو المُشرف على الهلاك، أو يهلك بالفعل).¹

وأصل الحرَض الفساد في الجسم أو العقل من الحزن أو العشق أو الهرم.²

و في معنى تفتأ (قال الكسائي: فَتَأْتُ وَفَتَيْتُ أَفْعَلُ ذَلِكَ أَي مَا زِلْتُ، وزعم الفراء أن لا مضمرة أي لا تفتأ)³، فحذفت (لا) من جواب القسم و هي مرادة -كما يقول المفسرون- لأنَّ خُلُوَّ الفعل من التأكيد باللام يدلُّ على أن الجواب منفي.⁴

و مثله قول الزمخشري: (تفتؤ أراد لا تفتؤ، فحذف حرف النفي لأنه لا يلتبس بالإثبات، لأنه لو كان إثباتا لم يكن بدًّا من اللام و النون و نحوه).¹

¹ - محمد متولي الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، ج11، ص 7050.

² - شمس الدين القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج9، ص 250.

³ - المرجع نفسه، ص 249.

⁴ - علي بن محمد بن عبد المحسن الحارثي، أسلوب القسم، المجلد2، ص 289.

الترجمة:

الآية	ترجمتها ²
قَالُوا تَاللَّهِ تَقَاتُ تَذْكَرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (85)	85- Ils dirent: « Par Allah! Tu ne cesseras pas d'évoquer Joseph, jusqu'à ce que tu t'épuises ou que tu sois parmi les morts » .

التحليل:

في هذه الآية قسم آخر صادر من إخوة يوسف عليه السلام، و موجّه إلى أبيهم يعقوب عليه السلام، فما مناسبة هذا القسم؟

لقد صدر هذا القسم منهم بعد أن أخبروه بما وقع لابنه بنيامين في مصر و بما آل إليه أمره؛ إذ اتُّهم بالسرقة و حبسه عزيز مصر هناك. كما أنّ الأخ الأكبر، و على ضوء هذه الأحداث، قرّر ألا يفارق البلدة إلى أن يأذن له أبوه بالرجوع إليه راضيا عنه أو يستردّ أخاه أو يتوفّاه الله³. و قد يتساءل السائل: إن كانوا أخبروه عن المصاب الذي حلّ ببنيامين و أخيه الأكبر، فلم ورد ذكر يوسف في هذا المقام إذن؟

يقول الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره "مفاتيح الغيب" عن سبب حزن سيدنا يعقوب على ابنه يوسف -عليهم السلام-:

"واعلم أنه لما ضاق صدره بسبب الكلام الذي سمعه من أبنائه في حق بنيامين عظم أسفه على يوسف عليه السلام (...). عند هذه الواقعة لوجوه:

الوجه الأول: أن الحزن الجديد يقوي الحزن القديم الكامن والقدر إذا وقع على القدر كان أوجع (...).

والوجه الثاني: أن بنيامين ويوسف كانا من أم واحدة. وكانت المشابهة بينهما في الصورة

¹ - الزمخشري، الكشاف، ج2، ص 339.

² - محمد حميد الله، القرآن الكريم مع ترجمة معانيه إلى اللغة الفرنسية، ص 245.

³ - ينظر: تفسير ابن كثير، ج4، ص43.

والصفة أكمل، فكان يعقوب عليه السلام يتسلى برؤيته عن رؤية يوسف عليه السلام، فلما وقع ما وقع زال ما يوجب السلوة فعظم الألم والوجد.

الوجه الثالث: أن المصيبة في يوسف كانت أصل مصائبه التي عليها ترتب سائر المصائب والرزايا، وكان الأسف عليه أسفا على الكل.

الرابع: أن هذه المصائب الجديدة كانت أسبابها جارية مجرى الأمور التي يمكن معرفتها والبحث عنها. وأما واقعة يوسف فهو عليه السلام كان يعلم كذبهم في السبب الذي ذكره، وأما السبب الحقيقي فما كان معلوما له، وأيضا أنه عليه السلام كان يعلم أن هؤلاء في الحياة. وأما يوسف فما كان يعلم أنه حي أو ميت، فلهذه الأسباب عظم وجده على مفارقتة وقويت مصيبتة على الجهل بحاله¹.

فلما كان هذا هو حال سيدنا يعقوب بعد سماع الخبر وجّه له أبناؤه هذا القسم: ﴿قَالُوا تَاللّٰهِ تَقْتًا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾.

و أما المقسم عليه، فهو قوله: ﴿تَقْتًا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ و معناه: تالله لا تزال تذكر يوسف حتى يفسد جسمك و عقلك فتصير إلى حال قريبة من الهالك، أو تكون من الهالكين.

و من هنا، يظهر لنا أنّ أبناء يعقوب لا يُقسمون لأبيهم على أنه لا يزال يذكر أخاهم يوسف فحسب، بل يزيدون عليه النتيجة الحتمية التي سيؤول إليها بسبب ذلك.

يقول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور في تفسير التحرير و التنوير: "و جواب القسم هو "تقتاً تذكر يوسف" باعتبار ما بعده من الغاية، لأنّ المقصود من هذا اليمين الإشفاق عليه بأنّه صائر إلى الهلاك بسبب عدم تناسيه مصيبة يوسف -عليه السلام- و ليس المقصود تحقيق أنه لا ينقطع عن تذكر يوسف"².

¹ - فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، ج 18، ص ص: 196، 197.
² - محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير و التنوير، ج 13، ص 44.

و الصيغة المختارة للقسم هنا هي (تالله)، و كما ذكرنا سابقا فإن حرف القسم "التاء" يفيد زيادة معنى على القسم، غالبا ما يكون التعجب، و لهذا يُلاحظ قلة استعمالها في القسم واختصاصها باسم الجلالة دون غيره، و يفسر الطيبي ذلك (بأنّ المُقسَم عليه بالتاء يكون نادر الوقوع لأنّ الشيء المُتَعَجَّب منه لا يكثر وقوعه و من ثمّ قلّ استعمال التاء إلاّ مع اسم الجلالة لأن القسم باسم الجلالة أقوى القسم)¹.

و عن ترجمتها، فإننا نلاحظ أنّها قد ترجمت كما في الآية السابقة بـ: Par Allah.

و لكن ما يلفت الانتباه في هذا المقام هو إضافة علامة التعجب بعد صيغة القسم، و هو ما لم يظهر في ترجمة الآية السابقة مع أن صيغة القسم في كلتا الآيتين هي ذاتها، و التي تعبّر عن معنى التعجب إلى جانب القسم في كليهما أيضا.

فـمجيء التاء في هذا القسم مُتَّسِق مع المُقسَم عليه، و ذلك أنّه أمر عجيب و غريب من جـهات، و أوّل ذلك أنّ الإخوة يتعجبون من ذكر أبيهم ليوسف بعد هذا العهد، و هو يعلم -حسب ما أخبروه- بأنه قد هلك.

ثمّ إنهم يُمعنون في هذا التعجب بناءً على ما في أنفسهم من اليقين بأنه قد هلك لا محالة، إذ كيف ينجو طفل صغير من ذلك الجبّ الذي ألقوه فيه.

و في استعمال التاء أيضا دلالة على التعجب من سياق ذكر يعقوب لابنه يوسف، إذ كان من الجائز في اعتقادهم أن يذكر بنيامين و الأخ الأكبر حديثي عهد بالفراق، و لم يكن متوقعا ذكره يوسف الذي مضى على غيابه سنوات.

و أخيرا فإنها تنقل حيرة الإخوة و دهشتهم لما يرونه من حال أبيهم، إذ لا يزيد طول العهد إلّا تماديا فيما هو فيه من محبة يوسف و الحزن عليه.

و لما كان القسم هنا على أمر غريب -كما تمّ توضيحه- جاءت العناصر اللغوية في هذا القسم معبرة عن هذه الغرابة، فقد جيء من كل باب بأغرب صيغة. أما عن صيغة القسم،

¹ - المرجع السابق، (ص ن).

فإن (تالله) هي أغرب ألفاظ القسم إلى أخواتها (بالله و والله). و أما عن الفعل الذي يجاور القسم، فهو أغرب الصيغ في بابيه، إذ أن كان و أخواتها أكثر استعمالاً من (تفتأ) و أعرف عند العامة. و قد أتى بعدهما أغرب ألفاظ الهـلاك و هو (الحرص).

يقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب مشيراً إلى إعجاز القرآن الكريم في المؤاخاة بين هذه الألفاظ الثلاثة: "و لو أن كلمة واحدة منها دخلت بين أرقّ الكلام و أسلسه لذهبت برونقه، و لخرجت به عن سلاسته و رفته إلى غرابة غريبة و خشونة موحشة. و لكن القرآن جاء بها في هذا الإطار المحدود من النظم ومع ذلك فهي ما هي خفةً و سلاسةً و اتساقاً".¹

و الملاحظ في ترجمة جواب القسم أن الفعل المضارع المثبت (تفتأ) و الذي يعني (تظلّ) أو (تزال) بصيغة النفي (la forme négative) الآتية: (Tu ne cesseras pas). فالمتروجم أظهر صيغة النفي التي كانت مخفية أو مقدّرة في الآية الكريمة، كما سبق الإشارة إليه.*

ثمّ إنّ زمن تصريف الفعل الفرنسي (cesseras) هو المستقبل البسيط (le futur simple)، فكان المترجم يريد أن يعبر عن قناعة الأبناء بأنّ أباهم سيظلّ يذكر يوسف و لن يتوقّف عن فعل ذلك في المستقبل، و لا بأس في ذلك لأنه لم يخرج عن المعنى و لقول بعض المفسرين فيه: "وإنما قالوا له ذلك لأنهم علموا باليقين أنه يداوم على ذلك".²

الموضع الثالث:

قال الله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللّٰهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ (91)

أركان القسم في الآية الكريمة:

المقسم عليه	المقسم به	حرف القسم	المقسم له	المقسم
-------------	-----------	-----------	-----------	--------

¹ - علي بن محمد بن عبد المحسن الحارثي، أسلوب القسم، المجلد 2، ص 295.

* - راجع قول الكسائي و الزمخشري في الجزء المتعلق بتفسير الآية سابقاً.

² - شمس الدين القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، المجلد 9، ص 250.

إخوة يوسف	يوسف عليه السلام	التاء	اسم الجلالة "الله"	لقد آثرك الله علينا و إن كنا لخاطئين
-----------	------------------	-------	--------------------	--------------------------------------

التفسير:

الإيثار: التفضيل بالعطاء (...). و المراد: الإيثار في الدنيا بما أعطاه الله من النعم.¹

يقول بعض المفسرين: "آثرك الله علينا" أي: خصك بشيء فوق ما خص به الآخرين، وهو لم يؤثرك بظلم لغيرك، و لكنك كنت تستحق ما آثرك به من الملك و علو الشأن و المكانة.²

الترجمة:

الآية	ترجمتها
قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (91)	91- Ils dirent: « Par Allah! Vraiment Allah t'a préféré à nous et nous avons été fautifs ». ³

التحليل:

ها هو قسم آخر يرد في هذه السورة على لسان إخوة سيدنا يوسف، و هو في هذه الآية موجه إليه بعد أن عرفوا أنه هو نفسه عزيز مصر و ذلك حين ﴿قَالُوا أَعْنَكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَ هَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقُ وَ يَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (90) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (91)﴾ (يوسف: 90، 91).

¹ - محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير و التنوير، ج13، ص 50.

² - محمد متولي الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، ج11، ص 7063.

³ - محمد حميد الله، القرآن الكريم مع ترجمة معانيه إلى اللغة الفرنسية، ص 246.

فالإخوة هنا يقسمون ليوسف على أن الله فضله عليهم، و يقرّون كذلك، إضافة إلى هذا، على أنهم كانوا خاطئين و مذنبين في حقّه.

و هنا تأتي مناسبة للتنبيه إلى الفرق بين (خاطئين) و (مخطئين).

يقول الشيخ الشعراوي: (المادة واحدة هي: "الخاء" و "الطاء" و "الهمزة"، و لكن المعنى يختلف، فالخاطئ هو من يعلم منطقة الصواب و يتعدّأها، أما المخطئ فهو من لم يذهب إلى الصواب؛ لأنه لايعرف مكانه أو طريقه إليه)¹.

و هذا يفسّر استعمال لفظ (خاطئين)، فالواضح من سياق قصة سيّدنا يوسف أن إخوته كانوا على علم بالصواب و لكنهم اختاروا أن يسلكوا طريق الخطأ.

و صيغة القسم المستعملة هنا هي (تالله)، و قد حافظ الدكتور حميد الله على ترجمتها كما في الآيتين السابقتين، حيث ترجمها بـ "Par Allah".

كما نلاحظ أنّه لم يهمل معنى التعجب الذي يفيد حرف القسم هنا (التاء)، حيث عبّر عنه باستعمال علامة التعجب التي تلت صيغة القسم مباشرة.

كما نلاحظ ورود صيغ تأكيد أخرى إضافةً إلى القسم باسم الجلالة، و هذه الصيغ تتمثّل في اللام و قد في قولهم (لقد أترك...) إضافةً إلى "إن" المخففة و دخول اللام على خبرها في قولهم (و إن كنا لخاطئين..).

و لم يهمل المترجم الإشارة إلى صيغ التأكيد هذه في ترجمته؛ فعبر عنها بكلمة "Vraiment" التي تفيد التوكيد في اللغة الفرنسية أيضاً.

و أمّا عن استعمالها، فإنّ (المؤكدات لا تتعاضد على هذا النحو إلاّ إذا كان الكلام في سياق إثبات قضية يُنكرها المخاطب، أو يلوح من حاله ما يدعو إلى التأكيد، و إن لم يكن

¹ - محمد متولي الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، ج11، ص 7064.

منكرا لها، و القضية التي يراد إثباتها هنا ليست مما يحتاج تأكيده عند المخاطب، لأن يوسف أعلم بما آتاه الله من فضل، ثم هو أكثر علما بالحكم بكونهم خاطئين).¹

ورد في تفسير التحرير و التنوير: "و صيغة اليمين مستعملة في لازم الفائدة، و هي علمهم و يقينهم بأن ما ناله هو تفضيل من الله و أنهم عرفوا مرتبته، و ليس المقصود إفادة تحصيل ذلك لأن يوسف -عليه السلام- يعلمه".²

فما المقصود إذن من احتشاد كل هذه المؤكدات في هذا الخطاب إن كان المخاطب عالماً، بل متأكداً من المُقسَم عليه؟

إن تأمل هذه الآيات يهدينا إلى أن المؤكدات في هذا المقام جاءت (لتأكيد ما تضمنته المُقسَم عليه من الاعتراف بالذنب و الندم عليه (...)) و هي معانٍ تحركت في نفوس المُقسَمين في تلك اللحظة التي تجلّى لهم فيها كثير مما آثر الله به يوسف عليهم، و تجلّى لهم فيها مقدار ما ارتكبه من ذنوب؛ فجاءت هذه المؤكدات معربة عن هذه المعاني، و مبينة عمقها في تلك النفوس (...). كما أن لهذه المؤكدات قيمة في تصوير تلك المعاني كما هي في نفوس المتكلمين؛ و ذلك أنهم في هذا المقام قد أدركوا من إيثار الله تعالى ليوسف ما لم يدركوه من قبل، فجرى في كلامهم الإفصاح عنه في أقوى صور التأكيد، كما أقروا بكونهم مذنبين في صورة مؤكدة أيضاً؛ لأنهم لم يشعروا ببشاعة جرمهم كما شعروا به في تلك اللحظة).³

الآن، و بعد أن وضّحنا سبب تعدّد أساليب التوكيد في هذه الآية، نذهب للبحث عن معنى التعجب فيها.

فالصيغة التي اختارها الإخوة للقسم هنا تماثل نظيرتها في الآيتين السابقتين و هي (تالله). و التاء، كما ذكرنا سابقاً، تختص دون غيرها من أدوات القسم بإضافة معنى غالباً ما يكون التعجب، و قد تعدّدت بواعثه في هذا الموقف.

¹ - ينظر: علي بن محمد بن عبد المحسن الحارثي، أسلوب القسم، المجلد2، ص ص (299، 300).

² - محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير و التنوير، ج13، ص 50.

³ - علي بن محمد بن عبد المحسن الحارثي، أسلوب القسم، المجلد2، ص 300.

فالباعث الأول على تعجب الإخوة و دهشتهم هو نجاة أخيهم يوسف من الكيد الذي كادوه له، و الذي لا يكاد ينجو منه أحد، و قد كانوا يظنون أنه في عداد الهالكين.

أما الثاني، فهو ما آلت إليه حاله. فالأمر لم يقف عند نجاته فقط، بل تعداه إلى رفعة شأنه و علو مكانته، فهو نفسه عزيز مصر الذي استعطفوه و تذللوا بين يديه.

و من ناحية أخرى، فإن في قولهم "و إن كنا خاطئين" تعجبا و استنكارا لما صدر عنهم زمن جهلهم و طيشهم. فكأنهم كانوا يقولون: إنه لأمر عجيب حقا أن يترك إخوة أخاهم، و هو طفل صغير، في ذلك الجب معرضا للهلاك. غريب أن يصدر هذا العمل المخزي من أي شخص، فما بالك و قد صدر منا نحن أبناء يعقوب النبي؟!

و بهذا نكون قد وقفنا على معاني التعجب المعبر عنها من خلال استعمال صيغة القسم "تالله" دون باقي الصيغ في هذا المقام.

الموضع الرابع:

قال الله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (95)﴾

أركان القسم في الآية الكريمة:

المقسم	المقسم له	حرف القسم	المقسم به	المقسم عليه
أبناء يعقوب أو أهله	يعقوب عليه السلام	التاء	اسم الجلالة "الله"	إنك لفي ضلالك القديم

التفسير:

في هذه الآية يقسم أبناء يعقوب لأبيهم على أنه في ضلاله القديم.

و معنى الضلال: (البعد عن الطريق الموصلة. و الظرفية مجاز في قوّة الاتّصاف والتلبّس و أنه كتلبّس المظروف بالظرف. و المعنى: أنك مستمر على التلبس بتطلب شيء من غير طريقه. أرادوا طمعه في لقاء يوسف -عليه السلام-).¹

و لكن للشيخ الشعراوي -رحمه الله- رأي مخالف لتفسير الضلال، حيث يقول:

(الضلال هنا يعني شدة الانشغال بالمحبوب و كثرة السؤال عنه و البحث المتلاحق).²

و هم لا يعنون الضلال بمعنى الخروج عن المنهج، و لكنهم يعنون محبته الشديدة ليوسف، و تعلّقه به، و التمني لعودته، و كثرة الحديث عنه، و توقع لقائه.³

و قيل أيضا: (في معنى هذا الضلال ثلاثة أقوال: أحدها: أنه بمعنى الخطأ ...

و الثاني: أنه الجنون... و الثالث: أنه الشقاء و العناء).⁴

و قد وصفوا هذا الضلال بالقديم لطول مدته، و كانت مدّة غياب يوسف عن أبيه عليه السلام اثنتين و عشرين سنة.⁵

الترجمة:

الآية	ترجمتها
قَالُوا تَاللّٰهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (95)	95- Ils lui dirent: « Par Allah te voilà bien dans ton ancien égarement ».

التحليل:

المُخاطَب في هذا المقام هو سيدنا يعقوب عليه السلام، (وقيل : إن الذي قال له ذلك من بقي معه من ولده (...)) وقيل : قال له ذلك من كان معه من أهله وقرابته، وقيل : بنو بنيه وكانوا صغارا فالله أعلم).⁶

¹ - محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير و التنوير، ج13، ص 53.

² - محمد متولي الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، ج11، ص 7070.

³ - ينظر: المرجع نفسه، (ص ن).

⁴ - علي بن محمد بن عبد المحسن الحارثي، أسلوب القسم، المجلد2، ص 307.

⁵ - ينظر: الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير و التنوير، ج13، ص 53.

⁶ - شمس الدين القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، المجلد 9، ص 261.

(و الأقرب كونه من مقول إخوة يوسف عليه السلام؛ فهم مهيوون لمثل هذا القول كما هو واضح من سياق القصة و ترتب أحداثها).¹

و صيغة القسم الواردة هنا لا تختلف عن سابقتها في هذه السورة، و هي حرف القسم (التاء) مقترنا باسم الجلالة (الله). أما فيما يتعلّق بترجمتها، فإن المترجم حافظ على نفس العبارة "Par Allah" كما في الآيات السابقة، و لكنه لم يعبر عن معنى التعجّب و الانفعال هنا بأي شكل من الأشكال، حيث نلاحظ غياب علامة التعجب التي ظهرت في ترجمة الآيتين (85) و (91) من السورة نفسها.

و نلاحظ أن الآية الكريمة _____ قد اشتملت، بالإضافة إلى القسم، على كَثِيرٍ من ضروب التوكيد و التوثيق و أولها تأكيد المُقسم عليه بـ "إنَّ" و اللام الداخلة على خبرها في قولهم: "أنك لفي ضلالك"، ثم في جعل الضلال متلبسا به فهو "فيه"، ثم في إضافة هذا الضلال إليه في قولهم "ضلالك" تعبيراً عن كونه ضلالاً خاصاً به، و مبالغة في إصاقه به.

و قد أشار الدكتور حميد الله إلى هذه التوكيدات في الترجمة الفرنسية باللفظة "bien" التي من معانيها التعبير عن التوكيد أيضاً؛ فهي مرادفة للألفاظ: Réellement Assurément.²

و قد اقتضت الضرورة ورود التأكيدات السابقة لما في الأمر المُتحدّث فيه من وجوه الغرابة بالنسبة للمُتكلِّمين، فهم لم يقولوا ما قالوه إلّا بعد أن أخبرهم أبوهم بأنه يجد ريح يوسف. فلما كان الأمر كذلك جاءت التاء في عناصر القسم لتُتَمِّمَ السَّيَاق و لتلائم ما في المُقسم عليه من وجوه الغرابة و الندرة.

فمن الغريب، عند كل أحد، أن يجد يعقوب ريح ابنه يوسف بالرغم من عدم علمه بحياته، و بالرغم من بعد المسافة التي تفصله عنه. و هو عند إخوته المتيقنين بوفاته أبعد و أغرب.

¹ - علي بن محمد بن عبد المحسن الحارثي، أسلوب القسم، المجلد 2، ص 307.
² - Le petit Larousse 2009, dictionnaire multimedia

كما يكشف لنا سياق القصة تعجب الأبناء من موقف أبيهم، و ذلك أنهم كانوا يتوقعون في مثل حاله أن ينتهي عمّا هو فيه من ذكر يوسف و إهلاك نفسه من الحزن عليه، أو على الأقل أن يخفف من ذلك، فإذا به يقول لهم: ﴿...إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ...﴾، و هو عكس ما كانوا يتوقعون سماعه، و نقيض ما يريدون سماعه أيضا.

و من خصوصيات التاء هنا أيضا افتتاحها لخطاب فيه نوع من الخشونة¹، حتى قال بعض المفسرين إن هذا عقوق²، حيث أظهر المتكلمون جملة من الانفعالات منها التضجر و الغضب لذكر يوسف المتكرر أمامهم. و هذا يؤكد (أن للتاء موقعا في المواقف المعبرة عن حركة النفوس و اضطرابها، و أن دلالتها في القسم لا تقتصر على معنى التعجب).³

سورة طه:

قال الله تعالى: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72)﴾

أركان القسم:

المقسم	المقسم له	حرف القسم	المقسم به	المقسم عليه
السحرة	فرعون	الواو	الذي فطرنا	لن نؤثرك على ما جاءنا من البيّنات

التفسير:

¹ ينظر: الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير و التنوير، ج13، ص 53.

² ينظر: شمس الدين القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، المجلد 9، ص 261.

³ علي بن محمد بن عبد المحسن الحارثي، أسلوب القسم، المجلد2، ص 311.

اختلف العلماء في تفسير قوله "و الذي فطرنا"، فقال بعضهم بأنه قسم. يقول الفراء:

"و لو أرادوا بقولهم "و الذي فطرنا" القسم بها كانت خفضا و كان صوابا، فكأنهم قالوا:
لن نؤثرك والله".¹

و رأى البعض الآخر أنها قد تفيد معنى غير القسم؛ ففسروها بكونها معطوفة على ما قبلها، يقول ابن كثير:

"و الذي فطرنا} يحتمل أن يكون قسما، و يحتمل أن يكون معطوفا على البيئات".²

و يقول القرطبي: "و الذي فطرنا} قيل: هو معطوف على {مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ} أي
لن نؤثرك على ما جاءنا من البيئات ولا على الذي فطرنا أي خلقنا. وقيل: هو قسم أي والله
لن نؤثرك".³

كما يقول الشعراوي: "و قولهم {و الذي فطرنا} أي: و لن نؤثرك أيضا على الذي
فطرنا، أو تكون: {و الذي فطرنا} قسم على ما يقولون، كما تقول: لن أفعل كذا و الذي
خلقك، فأنت تقسم ألا تفعل هذا الشيء".⁴

و بما أن دراستنا تختص بمواضع القسم، فلن نتطرق إلى معنى العطف و سنكتفي
بالحديث عن معنى القسم.

و الفعل {فطرنا} بمعنى خلقنا. جاء في لسان العرب:

فَطَرَ اللهُ الخَلْقَ يَفْطِرُهُمْ: خلقهم و بدأهم، و الفِطْرَةُ: الابتداء و الاختراع.⁵

كما جاء في القاموس المحيط:

فَطَرَهُ يَفْطِرُهُ و يَفْطِرُهُ: شَقَّه (...). و اللهُ الخَلْقَ: خلقهم و بدأهم. و الأمر: ابتدأه و

أنشأه.¹

¹ - الفراء، معاني الفراء، ج2، ص187.

² - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج4، ص526.

³ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج11، ص225.

⁴ - الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، ج15، ص9328.

⁵ - ابن منظور، لسان العرب، ص3433.

و أما في جواب القسم، فمعنى "تؤثرك" - كما جاء في تفسير الجلالين - أي نختارك²، أما الشعراوي فقال بأنها بمعنى فضلك³. و البيّنات هي الأمور الواضحة التي تحسم كلّ جدل حولها، فلا تقبل الجدل و المهاترات لأنّ حجّتها جليّة واضحة⁴، و هي هنا تدلّ على صدق موسى. و قد فسّرهما ابن عباس باليقين و العلم⁵، و كذا ابن كثير الذي قال: "أي لن نختارك على ما حصل لنا من الهدى و اليقين"⁶.

الترجمة:

الآية	ترجمتها ⁷
قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا	72- « Par celui qui nous a créés, dirent-ils, nous ne te préférons jamais à ce qui nous est parvenu comme preuves évidentes. Décrète donc ce que tu as à décréter. Tes décrets ne touchent que cette présente vie.

التحليل:

جاءت هذه الآية في سياق قصّة سيّدنا موسى و مواجهته مع سحرة فرعون يوم الزينة أمام الناس. ففي ذلك اليوم، تجلّى الحقّ لهؤلاء السحرة بمعجزة عصا سيدنا موسى عليه السلام، فقد علموا بأنّ هذا من فعل ربّ قدير و ليس مجردّ سحر؛ ذلك أنّهم أعلم الناس بالسحر و أمهرهم فيه. و لهذا سارعوا إلى إعلان إيمانهم أمام فرعون و ملائه. و هنا غضب فرعون و هدّدهم بقطع أيديهم و أرجلهم إن لم يرجعوا عن ذلك فما كان جوابهم إلّا أن "قَالُوا

1 - الطاهر أحمد الزاوي، ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير و أساس البلاغة، ج3، ص503.

2 - جلال الدين المحلي و جلال الدين السيوطي، القرآن الكريم و بهامشه تفسير الإمامين الجليلين، (د ط)، دار ابن كثير، (د ت)، ص316.

3 - الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، ج15، ص9327.

4 - المرجع نفسه، ص 9328.

5 - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج11، ص225.

6 - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج4، ص526.

7 - محمد حميد الله، القرآن الكريم مع ترجمة معانيه إلى اللغة الفرنسية، ص316.

لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا".

و كما بيّنا سابقا في أركان القسم، فإنّ المقسم به هنا هو قولهم "و الذي فطرنا"، و هذه الصيغة تتركب من حرف القسم "الواو" إضافة إلى "الذي فطرنا" و المقصود به الله جلّ و علا. و للتذكير فهذا هو الموضع الوحيد في القرآن الكريم الذي ورد فيه القسم بهذه الصيغة. و كما ذكرنا آنفا، فإنّ المفسرين فسّروا قوله تعالى "وَالَّذِي فَطَرَنَا" بكونه إمّا قسما و إمّا عطا على ما قبله، و من خلال هذه الترجمة يتضح لنا أنّ الدكتور حميد الله مع الرأي القائل بكونه قسما، فجاءت الترجمة كالآتي:

"Par celui qui nous a créés". فالحرف "Par" يقابل حرف القسم "الواو، و باقي العبارة بمعنى الذي فطرنا أو الذي خلقنا.

إذن فقد أقسم السحرة هنا بالله عزّ و جلّ و لكنهم لم يستعملوا لفظ الجلالة أو اسم الربّ كما هو مألوف في صيغ القسم، بل أقسموا مبينين فعلا من أفعال الله تعالى الذي لا يقدر على فعله إلّا هو سبحانه، و هو فعل الفطر أو الخلق. فكأنهم يريدون بذلك أن يؤكّدوا لمن يسمعون بأن لا خالق في هذا الكون إلّا الله سبحانه و تعالى و هذا أعظم دليل على قدرته و قوته جلّ و علا، كما أنهم يعترفون و يُقرّون بأنهم عباد الله الضعفاء الذين لا يملكون أن يفعلوا شيئا لأنفسهم أو لغيرهم بالرغم من القوة الظاهرية التي كان الناس يعتقدون أنّهم يملكونها.

أمّا المُقسَم عليه أو جواب القسم فهو قولهم "لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ"، و هذا الكلام موجّه إلى فرعون. و قد جاءت ترجمته:

Nous ne te préférons jamais à ce qui nous est parvenu comme
preuves évidentes

أي أنّ المترجم استعمل الفعل الفرنسي "préférer" الذي يعني نفضلك لترجمة الفعل "نؤثرك"، كما ترجم "البينات" بقوله: preuves évidentes و ذلك بوصفها بالجلاء و الوضوح و التأكيد المطلق لتوازي بذلك المعنى الأصلي.

و إذا تمعنا في معنى هذا القسم و في السياق الذي ورد فيه، إضافة إلى تأمل العلاقة بين المقسم و المقسم له، كان من الممكن أن نستخلص وجود مناسبة بين المقسم به و المقسم عليه. فالسحرة كما هو معلوم كانوا يعملون لصالح فرعون الذي كان يدعي الربوبية على أهل مصر، و قد اعتادوا أن يخضعوا له و يظهروا له الطاعة العمياء. و لهذا ما كان منهم إلا أن أذعنوا حين أمرهم بمواجهة موسى و أخيه هارون. و لكن بعد هذه المواجهة ظهرت لهم آيات الله البيّنات من خلال معجزة سيّدنا موسى فعرفوا أنّ هذا ليس بسحر و أعلنوا إيمانهم على الفور، و على الرغم من تهديدات فرعون إلا أنهم أصرّوا على إيمانهم، و عبّروا عن هذا الإصرار بالقسم بالله الذي فطرهم على أنهم لن يرجعوا عن إيمانهم و لن يختاروا فرعون و ضلاله على ما ظهر لهم من البيّنات. لقد وقفوا في وجه فرعون الذي اعتادوا على طاعته و الخضوع له في سبيل إيمانهم بالله الذي تبين لهم أن لا معبود في الكون سواه، فهو الذي خلقهم و أوجدهم من العدم و هو المستحقّ للعبادة و الطاعة و الخضوع.

و لم يقفوا عند هذا الحدّ، بل عبّروا عن عدم خوفهم منه و لامبالاتهم بما سيفعله بهم ليقينهم بأنهم على هدًى، فقالوا له: " فَاَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا " أي افعل ما شئت و نفذ ما حكمت به فلم تعد تخيفنا هذه التهديدات لأنّ ما تأمر به يمكن أن يصيبنا في هذه الحياة الدنّيا فقط و سيأتي يوم عليك تقنى و تزول من الوجود و لن يبقى إلا الله صاحب السلطان المطلق.

سورة النمل:

قال الله تعالى: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (49)﴾.

أركان القسم:

المقسم	فعل القسم	حرف القسم	المقسم به	المقسم عليه

تسعة رهط	تقاسموا	الباء	الله	لَنُبَيِّتَهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ
----------	---------	-------	------	---

التفسير:

"قالوا تقاسموا" أي (قال بعضهم لبعض احلفوا)¹.

و جاء في تفسير الشعراوي قوله: (يتعاهدون و يُقسمون بالله)².

"لنبيئته" بمعنى نقتله³.

"أهله" أي (من آمن به)⁴.

الترجمة:

ترجمتها ⁵	الآية
49- Ils dirent: « Jurons par Allah que nous l'attaqueront de nuit, lui et sa famille. Ensuite nous diront à celui est chargé de le venger : « Nous n'avons pas assisté à l'assassinat de sa famille, et nous sommes sincères ».	قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (49)

التحليل:

ورد القسم الصريح في هذه الآية بالجمع بين فعل القسم "تقاسموا" و الصيغة المكونة من حرف القسم و المُقسم به "بالله"، و هو وارد على لسان تسعة رهط تقاسموا على أن يقتلوا سيّدنا صالحا و من معه (أهله و من آمن به) ليلا.

¹ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج13، ص216.

² - الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، ج17، ص10801.

³ - المرجع نفسه، ص ن.

⁴ - جلال الدين المحلي و جلال الدين السيوطي، القرآن الكريم و بهامشه تفسير الجلالين، ص381.

⁵ - محمد حميد الله، القرآن الكريم مع ترجمة معانيه إلى اللغة الفرنسية عند محمد حميد الله، ص381.

و الفعل "تقاسم" على وزن "تفاعل" مشتق من مادة (قسم) وبذلك يكون من عائلة الفعل (أقسم). و الوزن "تفاعل" يدلّ غالبا (على الاشتراك في الفعل)¹ ، و منه يكون معنى الفعل "تقاسم": المشاركة في القسم الذي يكون بين أطراف عديدة.

و اختلف في دلالة قوله تعالى "قالوا تقامسوا بالله" إذ (يجوز أن يكون "تَقَاسَمُوا" فعلا مستقبلا وهو أمر؛ أي قال بعضهم لبعض احلفوا. ويجوز أن يكون ماضيا في معنى الحال كأنه قال : قالوا متقاسمين بالله ؛ ودليل هذا التأويل قراءة عبدالله : "يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ. تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ" وليس فيها "قَالُوا")

و قد جاءت ترجمة هذا الفعل إلى الفرنسية "Jurons" أي إلى فعل الأمر المُتصرّف مع جماعة المتكلمين، أي أن الذي يوجّه الخطاب إلى البقية يطلب منهم أن يُقسموا بالله و يُقسم هو معهم أيضا.

و المقسم عليه هنا هو قولهم: "لذُبَيْتَتَهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ" أي أنهم تقاسموا على قتله ليلا ثم إنكار ذلك إذا جاء من يطالب بدمه و ادعاء الصدق و البراءة أمامه.

و قد جاء المقسم عليه هنا أيضا مدعوما بعدد من أدوات التوكيد التي تكررت في مواضع عدّة منه و هي: اللام قبل الفعلين المضارعين (نبيّت) و (نقول) و النون المشدّدة في كلّ منهما، و "أنّ" المشدّدة و اللام الداخلة على خبرها (لصادقون).

و مع اجتماع هذا العدد من المؤكّدات التي تدلّ على غلوّ المقسمين و تشدّدهم في قسمهم و مبالغتهم في إظهار براءتهم إلا أنّ المترجم أهمل هذه المؤكّدات إذ لم يظهر في ترجمته ما يدلّ على أحدها إطلاقا.

و ما يلفت الانتباه في المُقسم عليه هنا كونه أمرا شرّيرا ينمّ أن الحقد المكنون في نفوس هؤلاء القوم. أي إنهم ما اجتمعوا و ما تقاسموا إلا على إهلاك نبيّ الله.

¹ - محمد محمد داوود، القرآن و تفاعل المعاني. دراسة دلالية لتعلق حرف الجر بالفعل و أثره في المعنى في القرآن الكريم، ج1، ص556.

و هذا المعنى الذي يميّز القسم الوارد هنا و الذي يعبر عن معنيين خاصين في الوقت نفسه و هما معنى المشاركة و القسم على أمر مُهلك فيه أذى، إنّما يدفعنا إلى البحث في اللغة الفرنسية عن فعل يوازي معناه المعاني المعبر عنها.

و بعد البحث توصلنا إلى إيجاد الفعل "Conjurer" الذي يعني أن يعاهد جماعة من الناس بعضهم بعضا بالقسم على إهلاك أحدهم أو أذيته بشكل كبير.

Conjurer : S'engager avec d'autres par serment à réaliser une action funeste¹.

و لهذا فنحن نقترح هذا الفعل كترجمة بديلة للفعل "تقاسم" في هذا المقام بدل الفعل "jurer" الذي استعمله حميد الله.

سورة ص (الآية:82):

قال الله تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ (83)﴾

أركان القسم:

المُقسِم	المُقسَم له	حرف القسم	المُقسَم به	المُقسَم عليه
إبليس	الله عزّ و جلّ	الباء	عزّتك	لأغوينهم أجمعين، إلاًّ عبادك منهم المخلصين

التفسير:

ورد هذا القسم في الحديث عن قصّة خلق سيّدنا آدم عليه السلام، و هذه القصة قد وردت في القرآن في أكثر من سورة، ذلك أنّ الله سبحانه و تعالى أخبر الملائكة بأنّه سيخلق بشراً من طين و أمرهم بأن يسجدوا له بعد أن يفرغ من تسويته و ينفخ فيه من روحه، فسجد الملائكة كلّهم أجمعون امتثالاً لأمر الله إلاًّ إبليس أبى و استكبر، و نتيجة لعصيانه و مخالفته،

¹ - <http://www.larousse.fr/dictionnaires/francais/conjurer/18269>, consulté le 27/06/2013 à 7H.33m

فقد أخرج الله من جنّته و طرده من رحمته. فلما وقع عليه ذلك سأل الله أن يُنظره إلى يوم البعث فأنظره الله سبحانه و تعالى. و هنا قال إبليس مخاطباً ربّه و مبيناً سبب طلبه: "فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ".

و قد اتفق أكثر المفسرين على أنّ قوله "بعزتك" هو قسم بعزّة الله تعالى، فالباء هنا تفيد القسم. جاء في تفسير القرطبي: " لما طرده بسبب آدم حلف بعزّة الله أن يضلّ بني آدم".¹

كما ورد في "الكتشاف" للزمخشري: "(فبعزتك) إقسام بعزّة الله تعالى".²

و المقسم به في هذا الموضع هو عزّة الله سبحانه بمعنى "سلطانه و قهره"³. أمّا المقسم عليه فهو قوله: "...لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ" أي: لأضلنّ بني آدم أجمعين عن دينك و طاعتك بتزيين المعاصي لهم إلّا من أخلصته منهم لعبادتك و عصمته مني فإنّي لا أقدر على إضلاله.⁴

إذن فقد أقسم إبليس على إغواء بني آدم و إضلالهم بتزيين الشهوات لهم، و لكنه استثنى منهم فئة قليلة هم المؤمنون حقاً الذين أخلصهم الله لعبادته، و عصمهم من إبليس اللعين. ذلك أنّ إبليس يعرف حق المعرفة أنّ لا سلطان له على عباد الله، و أنّه لا يقدر إلّا على الوسوسة.

يقول القرطبي في تفسيره لهذه الآية:

" فمعنى : { لَأُغْوِيَنَّهُمْ } لأستدعينهم إلى المعاصي وقد علم أنه لا يصل إلّا إلى الوسوسة (...). ولهذا قال : { إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ } أي الذين أخلصتهم لعبادتك ، وعصمتهم مني".⁵

الترجمة:

¹ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج15، ص229.

² - الزمخشري، الكشاف، ج3، ص384.

³ - المرجع نفسه، (ص ن).

⁴ - علي بن محمد بن عبد المحسن الحارثي، أسلوب القسم في القرآن الكريم- دراسة بلاغية، المجلد الثاني، ص 371.

⁵ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج15، ص229.

ترجمتها	الآية
82- « Par Ta puissance ! dit [Satan]. Je les séduirai assurément tous, 83- sauf Tes serviteurs élus parmi eux ». ¹	قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِيَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ المُخْلِصِينَ (83)

التحليل:

وقع هذا القسم في سياق ما جاء من الإخبار عن خلق سيِّنا آدم في أواخر سورة ص، و هو قسم صادر من إبليس و المخاطب به هو الله عزّ و جلّ. أمّا عن صورة المقسم به هنا فلم يرد مثلها في غير هذا الموضع، و هو قسم بصفة من صفات الله تعالى، و هي صفة العزّة، مضافة إلى ضمير المخاطب و مقترنة بحرف القسم "الباء": بعزّتكَ. و هذا ما اقتضاه المقام؛ إذ أنّ هذا القسم قد جاء في سياق محاوراة بين إبليس و بين الله عزّ و جلّ، و هو ما استلزم ورود ضمير الخطاب في السياق.

و كما يظهر من الترجمة، فقد جاء حرف القسم "الباء" مترجماً إلى الحرف الفرنسي "Par" كما هو الحال في المواضع السابقة. أمّا العزّة فقد تُرجمت على غرار الموضع المذكور في سورة الشعراء إلى اللفظ الفرنسي puissance، الذي يعني القوة و القدرة، مضافاً إلى ضمير المخاطب Ta.

و نلاحظ أنّ عبارة القسم قد اختتمت بعلامة تعجّب مع أنّ الباء لا تختصّ بإضافة معنى التعجّب إلى القسم.

أمّا المقسم عليه (لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِيَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ المُخْلِصِينَ) فجاءت ترجمته:

Je les séduirai assurément tous, sauf Tes serviteurs élus parmi eux

و كما نلاحظ فقد جاء المقسم عليه في هذا الموضع، كغيره من باقي مواضع القسم، مؤكّداً بعدد من أدوات التوكيد، إذ نلاحظ ورود اللام و نون التوكيد الثقيلة في "لأُغْوِيَنَّهُمْ"

¹ - محمد حميد الله، القرآن الكريم مع ترجمة معانيه إلى اللغة الفرنسية، ص457.

إضافة إلى ورود التوكيد المعنوي في قوله "أجمعين" و الذي ورد بصيغة الجمع دلالة على الشمول. كما يلفتنا استعمال المضارع للتعبير عن الإغواء و هو ما يدلّ على تجدد هذا الأمر و استمراره منه و عزمه على الإقامة عليه. فالغرض من هذا التوكيد هو التعبير عن شدة بغض إبليس و عداوته لبني آدم، و رغبته الكبيرة في الانتقام منهم؛ لأنه يرى بأنهم السبب في طرده من رحمة الله. فهذه الوسائل المؤكدة التي وردت على لسانه في هذا الموقف إنما تدلّ على القدر الذي بلغه كرهه و حسده و عداوته لبني آدم و قوة إصراره على الانتقام منهم و ذلك بصدّهم عن طريق الهدى رغبةً منه في أن يُطردوا هم أيضا من رحمة الله تماما كما حدث له.

و للتعبير عن المؤكدات التي جاءت مرافقة لجواب القسم، فقد أورد المترجم اللفظ "assurément" الذي يحمل معنى التوكيد، إضافة إلى تصريح فعل جواب القسم (séduirai) في زمن المستقبل البسيط الذي يدلّ على استمرار الأمر و تجدده كما ذكرنا سابقا، كما لا ننسى التوكيد اللفظي في قوله "tous" الذي يدلّ على الشمولية إلى جانب أسلوب الاستثناء في قوله "sauf Tes serviteurs élus parmi eux".

و أمّا عن وجه المناسبة بين المقسم به و المقسم عليه ، فنقول أن القسم بالعزة فيه تعظيم و تفخيم له عزّ و جلّ، لأنّ إبليس يعلم أنّ ما أقسم عليه لا يكون إلّا بإذنه و قدرته. و لهذا أقسم إبليس بعزة الله على إغواء بني آدم إلّا المخلصين، و ذلك لأنّ عزة الله و قدرته هي سبب تحقّق ما أقسم عليه.

كما يمكن أن نفسّر المناسبة بين عنصري القسم هنا من جانب آخر يُظهر لنا بوضوح دقة العلاقة بينهما؛ و ذلك أنّ القسم في هذا المقام يُراد به المبالغة في الإغواء إلى أقصى الدرجات، و هو ما دلّ عليه القسم أولا و المؤكدات الواردة في جوابه ثانيا. و من أقوى درجات الغواية أن تأخذ الغاوي العزة بالإنثم، كما ورد في قوله تعالى: "وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ..." (البقرة: 206). (فكأنّ إبليس يقول: "فبعزّتك لأغوينهم غواية تأخذهم

فيها العزة بالإثم، أي أنه سيجتهد فيها حتى تبلغ هذا المبلغ، و من هنا يظهر أن قسمه بالعزة يناسب ما تضمّنه المقسم عليه من معنى العزة".¹

سورة الأعراف:

قال الله تعالى: ﴿وَ قَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (21)﴾.

- لم يرد المقسم به في هذا القسم و لكننا أوردناه إلى هذا الفصل لبيان كيفية ترجمة فعل القسم "قاسم" مقارنة بأفعال القسم الأخرى.

أركان القسم في الآية:

عندما خلق الله تعالى سيّدنا آدم و زوجه حواء أسكنهما الجنة و أباح لهما أن يأكلا من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة. فسعى الشيطان في المكر و الخديعة ليقنعهما أن يأكلا منها لأنها طريقهما إلى الخلود و إلى ملك لا يبلى، و لهذا لجأ إلى القسم ليثبت لهما صدقه و حسن نواياه.

المقسم	المقسم له	فعل القسم	المقسم عليه
الشيطان	آدم و حواء	قاسمهما	إني لكما لمن الناصحين

التفسير:

يقول القرطبي: "وقاسمهما" أي حلف لهما. يقال: أقسم إقساماً؛ أي حلف.²

و يتفق معه ابن كثير حين يقول: "وقاسمهما" أي حلف لهما بالله.³

ثم يستشهد على ذلك بقول الشاعر خالد بن زهير:

وَ قَاسَمَهُمْ بِاللَّهِ جَهْدًا لَأَنْتُمْ ... أَلَّذُ مِنْ السَّلْوَى إِذْ مَا نَشُورَهَا¹

¹ - علي بن محمد بن عبد المحسن الحارثي، أسلوب القسم في القرآن الكريم- دراسة بلاغية، المجلد الثاني، ص 374.

² - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج7، ص179.

³ - ابن كثير، ج3، ص153.

الترجمة:

ترجمتها	الآية
21- Et il leur jura : « Vraiment, je suis pour vous deux un bon conseiller ». ²	وَ قَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (21)

التحليل:

نلاحظ في هذه الآية غياب صيغة القسم المكونة من حرف القسم و المقسم به كما في باقي الآيات التي تناولناها بالدراسة، فقد استؤنفت الآية الكريمة بفعل القسم "قاسم" و جيء بعده مباشرة بجواب القسم. و قد أوردناها في البحث للإشارة إلى كيفية ترجمة مختلف أفعال القسم.

و الفعل "قاسم" من عائلة الفعل "أقسم" و يشترك معه في المعنى العام، فكلاهما يُعبّر عن القسم، لكن الاختلاف بين هذين الفعلين جاء في الوزن؛ فـ "فَاعَلَ" يفيد معنى المشاركة بخلاف "أَفْعَلَ". يقول الشعراوي:

"قاسم" مادة فاعل، تأتي للمشاركة، أي أنّ هناك طرفين اثنين، كلّ منهما فاعل في ناحية ومفعول في ناحية أخرى، مثل شارك زيد عمرا، و هي تعني أيضا أن عمرا شارك زيدا.³
كما يقول الزمخشري أيضا: المُقاسمة أن تقسم لصاحبك و يقسم لك، تقول قاسمت فلانا حالفته، و تقاسما تحالفا.⁴

ومن خلال الترجمة نرى أنّ فعل القسم "قاسم" قد تُرجم إلى الفعل الفرنسي "jurer" و هو نفسه الفعل الذي تُرجم إليه فعل القسم "حلف" الذي ورد في أول مثال تناولناه بالدراسة (الآية 62 من سورة النساء)، و كذلك الفعل "أقسم" الذي جاء في الآيات 106 و 107 من سورة

1 - المرجع السابق، (ص ن).

2 - محمد حميد الله، القرآن الكريم مع ترجمة معانيه إلى اللغة الفرنسية، ص 152.

3 - الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، ج7، ص4084.

4 - الزمخشري، الكشاف، ج2، ص72.

المائدة، مع الإشارة إلى وجود اختلافات في المعنى بين هذه الأفعال في اللغة العربية كما سيتمّ بيانه.

فالفعل "حلف"، كما ذكرنا سابقا، يعبر عن الحنث في اليمين بدليل استعماله في القرآن الكريم، إذ لم يرد إلا على لسان المنافقين في سياق كذبهم فيما يقسمون عليه.

أمّا الفعل "أقسم" فهو أعمّ و أشمل و يدلّ على كلّ يمين أُطلقت.

و أمّا الفعل "قاسم" فيدلّ على مشاركة الطرفين في القسم.

و كما بيّنا سابقا، فإنّ طرفي القسم في هذه الآية -أي المُقسِم و المُقسَم له- هما الشيطان و آدم و حواء، فكيف نفسّر معنى المشاركة في هذا المقام؟ أ أقسم الشيطان لهما و هما أقسا بدورهما له؟

أجاب الزمخشري عن هذا السؤال من عدّة أوجه بقوله:

كأنه قال لهما: أقسم لكما إني لمن الناصحين، و قالوا له: أتقسم بالله إنك لمن الناصحين؟ فجعل ذلك مقاسمة بينهم، أو أقسم لهما بالنصيحة و أقسا له بقبولها، أو أخرج قسم إبليس على زنة المفاعلة لأنّه اجتهد فيه اجتهد المقاسم.¹

أما الشعراوي، فيرى بأنّ الشيطان هو فقط من أقسم و بأنّ آدم و حواء كانا طرفا من المقاسمة بقبولها، و يستدلّ على ذلك بمثال مشابه من القرآن الكريم ورد في الآية 142 من سورة الأعراف، في قوله تعالى:

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ﴾، فيقول:

واعدنا مثلها مثل فاعل، لكن من الذي واعد؟ إنه الله تعالى من وعد موسى عليه السلام، ودخل موسى في الوعد بقبوله و وفائه به. إذن "قاسمهما" أي قبلا القسم و دخلا فيه.²

¹ - المرجع السابق، ص73.

² - الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، ج7، ص4085.

و على كلِّ فما يهَمُّنا في هذا المقام هو ترجمة فعل القسم "قاسم" الذي يظهر بأنَّه تُرجم مثله مثل أفعال القسم الأخرى "أقسم" و "حلف" رغم ما بينهم من اختلاف واضح في الاستعمال. إذن فهذا الاختلاف لم يُراعى في اللغة الفرنسية، و تُرجمت جميع الأفعال بفعل واحد هو "jurer".

و أمَّا جواب القسم فهو قوله " إنيَّ لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ"، و ما يلفت النظر هنا هو أنَّ المُقسم (الشيطان)، إضافة إلى القسم، استعمل من وسائل التوكيد ما يدلُّ على حرصه الشديد واجتهاده في إقناع المُقسم له (آدم و حواء) بصدقه.

و صيغ التوكيد المذكورة هي "إنَّ" في قوله "إنيَّ" و لام التوكيد في قوله "لمن". و قد عبَّر المترجم عنها بالكلمة الفرنسية "Vraiment" التي تفيد التوكيد أيضا.

و خلاصة القول أنَّ فعل القسم "قاسم" صادر من الشيطان لآدم و حواء، اللذان يعتبرهما البعض طرفين في القسم على اعتبار قبولهما به، حيث حلف لهما بالله على أنه لهما من الناصحين و أنه لا يريد لهما إلا الخير و المنفعة فيما يشير عليهما به و شدّد في التأكيد على ذلك حتى تمكّن منهما بالخداع.

كان هذا آخر موضع دراسة من الفصل الأول الذي عرضنا فيه نماذج عن القسم بالله وأسمائه وصفاته ويأتي بعده الفصل الثاني الذي سيُعنَى بدراسة الأقسام التي وردت بأسماء القرآن الكريم.

الفصل الثاني:
الفصل الثاني:
القسم بأسماء
القرآن الكريم

سورة يس:

قال الله تعالى: ﴿يس (1) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (4)﴾.

أركان القسم:

المقسم	المقسم له	حرف القسم	المقسم به	المقسم عليه
الله عزّ و جلّ	الرسول صلى الله عليه و سلم	الواو	القرآن الحكيم	إنّك لمن المرسلين على صراط مستقيم

التفسير:

أقسم سبحانه بكتابه على صدق رسوله و صحة نبوّته و رسالته، فتأمل قدر المقسم به والمقسم عليه.¹ قال النقاش : لم يقسم الله تعالى لأحد من أنبيائه بالرسالة في كتابه إلا له ، وفيه من تعظيمه وتمجيده ما فيه.²

و عن مناسبة نزول هذه الآية، قال ابن عباس: قالت كفار قريش لست مرسلا وما أرسلك الله إلينا ؛ فأقسم الله بالقرآن المحكم أن محمدا من المرسلين.³

و جاء القسم في هذا الموضع بالقرآن موصوفاً بالحكيم، و قد قيل في تفسير هذه الصفة؛ الحكيم أي: المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه.⁴

و قيل أيضا: ذي الحكمة، أو لأنّه دليل ناطق بالحكمة أو لأنّه كلام حكيم فوصف بصفة المتكلم به.⁵

¹ - ابن قيم الجوزية، التبيان في أقسام القرآن، ص 356.

² - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج15، ص5.

³ - المرجع نفسه، (ص ن).

⁴ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج5، ص600.

⁵ - الزمخشري، الكشاف، ج3، ص314.

و أيضا: "والحكيم" المحكم حتى لا يتعرض لبطلان وتناقض ؛ كما قال : {أَحْكِمَتْ آيَاتُهُ} (هود : 1). وكذلك أحكم في نظمه ومعانيه فلا يلحقه خلل.¹

إذن فقد أقسم الله سبحانه بالقرآن الحكيم على أن سيّدنا محمدا من المرسلين بوحيه إلى عباده، و بأنه على صراط مستقيم لا اعوجاج فيه. فهذا القسم تأكيد و تحقيق لرسالة سيدنا محمد و شهادة بهديته و اتباعه طريق الحق.

الترجمة:

ترجمتها ²	الآية
1- Yâ-Sîn	يس (1)
2- Par le Coran plein de sagesse.	وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2)
3- Tu (Muhammad) es certes du nombre des messagers.	إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3)
4- Sur un chemin droit.	عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (4)

التحليل:

نلاحظ أن هذه السورة قد افتتحت بالحرفين "يس" اللذين كانت ترجمتهما إلى الفرنسية "Yâ-Sîn" أي أنها ترجما على أنهما من الحروف المقطعة على غرار "الم" و "حم" و غيرها، والتي قال مجموع العلماء بأنها مما استأثر الله بعلمه و لم يفسروها، و يجدر التنويه إلى أن من العلماء من رأى أن لها معنى و اجتهد في تفسيرها، و مما قيل في "يس": إنها تفيد النداء وتعني يا إنسان، و منهم من قال بأنها تعني يا رجل، و منهم من ذهب إلى أنها اسم من أسماء الله تعالى كما قال آخرون بأنها اسم من أسماء الرسول صلى الله عليه و سلم.

أما عن صيغة القسم، فقد ترجم حرف القسم في هذا الموضع بالحرف الفرنسي "Par" كما في المواضع السابقة، و ترجم المقسم به "القرآن الحكيم" إلى اللغة الفرنسية بالعبارة: "le Coran plein de sagesse" أي وصف القرآن بأنه ملئ بالحكمة و هذا هو المعنى الوارد

¹ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج15، ص5.

² - محمد حميد الله، القرآن الكريم مع ترجمة معانيه إلى اللغة الفرنسية، ص440.

في تفسير الزمخشري، و بهذا يكون المترجم قد اختار المعنى المباشر و الأقرب إلى الفهم على باقي المعاني المذكورة في التفاسير الأخرى من أنه بمعنى الذي لا يتعرض لبطلان أو أنه محكم النظم و المعاني، فهذه المعاني أبعد و ألزم للتمعن و التدقيق.

و في وصف القرآن بالحكيم مجاز واضح يأتي على سبيل الاستعارة المكنية، إذ أن الحكمة من صفات العقلاء، فهو بذلك يضيف إليه معنى الحياة و الروح. و قد يعزى ذلك إلى أن القرآن كتاب الله المقدس المنزل من عنده سبحانه فلا بد أن يتّصف بصفاته و يكون كاملا من جميع النواحي، و بهذا يكون وصف القرآن بالحكمة من وصف المتكلم به، أو لأن ما جاء فيه من أحكام و تعاليم لا يضاهى في حكمته، فكأن القرآن كائن حي ناطق بالحكمة.

و على كل، فإن الله سبحانه و تعالى لما أقسم بالقرآن الحكيم لم يبيّن وجه الحكمة فيه، و عليه يمكن أن تفهم جميع المعاني السابقة. فهو حكيم من جميع جوانبه المتأنية فيه؛ في أحكامه و تعاليمه و نظمه و أسلوبه و معانيه و غيرها.

و ننتقل الآن إلى المقسم عليه في قوله "إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم" الذي جاءت ترجمته:

Tu (Muhammad) es certes du nombre des messagers * Sur un chemin droit.

حيث جاء في الترجمة بيان المُخاطَب أو المُقسم له في هذا المقام بلفظ صريح وُضع ما بين قوسين؛ و هو سيّدنا محمد صلى الله عليه و سلّم في حين غاب هذا اللفظ الصريح في الآية الأصل و فهم من سياقها.

كما نلاحظ ورود مؤكّادات أخرى في الآية إلى جانب القسم تتمثّل في "إن" و "اللام" التي تُرجمت في مجموعها باللفظ "certes" الذي يفيد التوكيد في الفرنسية. و ما هذه المؤكّادات واحتشادها بقوة في الآية إلّا زيادة في إثبات الأمر المُقسم عليه و بيان لصحّته ألا و هو كون سيّدنا محمد صلى الله عليه و سلّم من المرسلين على صراط مستقيم.

و هذا الجواب المعزّز بهذا القدر من التأكيد هو ردّ قاطع على أولئك المشركين الذين أنكروا رسالته صلى الله عليه و سلّم كما ذكرنا سابقا في سبب نزول الآية، و هو أيضا تأييد

للنبي عليه الصلاة و السلام ضدّهم و ضدّ موقفهم المنكر لرسالته. جاء في تفسير الجلالين:
"التأكيد بالقسم و غيره ردّ لقول الكفار له: لست مرسلًا".¹

و في قوله تعالى " إنك لمن المرسلين" إقرارا بأنّه سبحانه أرسل العديد من الرّسل و أنّ
رسوله محمّداً واحد منهم، فكلّمة "لمن" تفيد البعضية، و لهذا جاءت ترجمتها على هذا النحو
"du nombre des messagers".

أمّا الصراط المستقيم فهو بمعنى الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، و قد جاءت
ترجمته مباشرة بقوله: Sur un chemin droit .

و نختم تعليقنا هذا بالتنبيه إلى وجود مناسبة بين المقسم به و المقسم عليه في هذا المقام،
إذ أنّ القسم بالقرآن الحكيم على صدق رسالة النبي صلى الله عليه و سلّم لم يأت هكذا
اعتباطاً بل إنّهُ يفتنا إلى أنّ المقسم به، و هو القرآن، جاء شاهداً و دليلاً على المقسم عليه،
و هو رسالة الرسول صلوات الله عليه. فالقرآن هو معجزته الكبرى و الخالدة و هذا أكبر
دليل على صدق رسالته.

يقول أبو السعود مؤكّداً على هذه العلاقة بين المقسم به و المقسم عليه:

"و في تخصيص القرآن بالإقسام به أوّلاً و بوصفه بالحكيم ثانياً تنويهاً بشأنه و تنبيهاً إلى
أنّه كما يشهد برسالته صلى الله عليه و سلم من حيث نظمه المعجز المنطوي على بدائع
الحكم، يشهد بها من هذه الحيثية أيضاً لما أنّ الإقسام بالشيء استشهد به على تحقّق مضمون
الجملة القسمية و تقوية لثبوته فيكون شاهداً به و دليلاً عليه قطعاً".²

و خلاصة القول أنّ الله سبحانه و تعالى أقسم بكتابه الذي وصفه بالحكيم لما فيه من
الحكمة في جميع أوجهه، أقسم لرسوله الكريم على صدق رسالته و على أنّه على صراط
مستقيم لا عوج فيه، و كلّ ذلك في سياق متكامل من المعاني زادت من قوته المؤكّدات، كما
زاد من إعجازه علاقة عناصره ببعضها بعض.

¹ - جلال الدين المحلي و جلال الدين السيوطي، تفسير الجلالين، ص 440.

² - علي بن محمد بن عبد المحسن الحارثي، أسلوب القسم في القرآن الكريم- دراسة بلاغية، المجلد الثاني، ص 392.

سورة ص:

قال الله تعالى: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (1) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَ شِقَاقٍ (2)﴾.

أركان القسم:

المقسم	حرف القسم	المقسم به	المقسم عليه
الله عز و جل	الواو	القرآن ذي الذكر	بل الذين كفروا في عزة و شقاق

التفسير:

استؤنفت هذه السورة بحرف من الحروف المقطعة و هو حرف الصاد الذي اختلف العلماء في تفسيره، ف قيل فيه: ذكر اسم هذا الحرف من حروف المعجم على سبيل التحدي و التنبيه على الإعجاز كما مرّ في أول الكتاب.¹ كما قيل أيضا أنه من صادى يصادى إذا عارض ، ومنه { فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى } أي تعرض. وقال الضحاك : معناه صدق الله. وعنه أن {ص} قسم أقسم الله به وهو من أسمائه تعالى. وقال قتادة : هو اسم من أسماء الرحمن. وعنه أنه اسم من أسماء القرآن.² كما قال الفراء أنه في معناه كقولك وجب و الله، و نزل و الله، و حقّ و الله، وأنها جواب لقوله "و القرآن" كما تقول: نزل و الله.³

و قوله تعالى "و القرآن" خفض بواو القسم، أقسم بالقرآن تنبيها على جلالة قدره ؛ فإن فيه بيان كل شيء ، وشفاء لما في الصدور ، ومعجزة للنبي صلى الله عليه وسلم.⁴ و قد وصف القرآن بـ "ذي الذكر" أي ذي البيان أو ذي الشرف أو ذي الشأن و المكانة، كما قيل أيضا هو بمعنى (المشتمل على ما فيه ذكر للعباد و نفع لهم في المعاش و المعاد).⁵

1 - الزمخشري، الكشاف، ج3، ص359.

2 - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج15، ص142.

3 - الفراء، معاني القرآن، ج2، ص396.

4 - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج15، ص143.

5 - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج6، ص44.

و قوله تبارك و تعالى "بل الذين كفروا في عزة" أي تكبر و امتناع من قبول الحق، "وشقاق" أي في إظهار خلاف و مباينة. و معنى ذلك أن في هذا القرآن لذكرى لمن يتذكر وعبرة لمن يعتبر، و إنما لم ينتفع به الكافرون لأنهم (في عزة) أي استكبار عنه و حمية (وشقاق) أي و مخالفة له و معاندة و مفارقة.¹

و عن سبب نزولها، فقد روي أن هذه الآيات قد نزلت عقب موقف جرى بين الرسول صلى الله عليه و سلم و بين كفار قريش؛ ذلك أنهم شكوه إلى عمه أبي طالب فقال له: يا ابن أخي، ما تريد من قومك؟ فردّ: يا عمّ ما أريد منهم إلّا كلمة واحدة؛ لا إله إلّا الله. فقالوا: أجعل الآلهة إلها واحدا؟؟ فنزلت فيهم الآيات.

و قد قيل بأنّ قوله تعالى "بل الذين كفروا في عزة و شقاق" هي جواب القسم، كما قيل إنّ الجواب غيرها، و لكننا نكتفي بالرأي القائل بكونها جوابا للقسم أو مقسما عليه لأنها أقرب الآراء إلينا.

و عليه يكون القسم في هذا الموضع، و كما ذكرنا سابقا، صادرا من الله عزّ و جلّ و هو قسم بكتاب الله، القرآن ذي الذكر، على أن الكفار في استكبار عن الإذعان للحقّ و في عداوة لله و لرسوله.

الترجمة:

ترجمتها ²	الآية
1- Sad. Par le Coran, au renom glorieux (dikr) ! 2- Ceux qui ont mécréu sont plutôt dans l'orgueil et le schisme !	ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (1) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (2)

¹ - المرجع السابق، (ص ن).

² - محمد حميد الله، القرآن الكريم مع ترجمة معانيه إلى اللغة الفرنسية، ص 453.

التحليل:

ورد هذا القسم في بداية سورة ص في سياق الحديث عن تكذيب المشركين و رفضهم لتقبل تعاليم الدين الجديد الذي يدعو إلى التوحيد، و كما يظهر فإنّ هذه السورة استؤنفت بحرف من الحروف المقطّعة و هو حرف الصاد متبوعا بالقسم بالقرآن. و هنا نلتفت إلى وجه المشابهة بين هذا القسم و ذلك الوارد في سورة يس؛ فالقسم في كلتا السورتين جاء مسبوقا بحروف مقطّعة و اتّفق في كلا الموضعين على المُقسم به و هو القرآن-مع اختلاف صفته التي وصف بها في كلّ سورة- إضافة إلى السياق العام الذي ورد فيه، و هو تكذيب المشركين للرسالة المحمّدية.

و قد تُرجم حرف الصاد بـ "Sad" تماما كما تُرجمت "يس" بـ " Ya-Sîn "، ذلك لأنّ هذه الحروف، كما قال المفسّرون، هي مما استأثر الله بعلمه فلم يربطوها بمعنى معيّن، مع أنّ البعض اجتهد في ذلك، بل قالوا بأنّ ما فيها من الإعجاز يفوق قدرتنا على الفهم و الاستيعاب. كما قالوا أيضا بأنّ هذه (الحروف تنبيهات قُدّمت على القرآن، ليبقى السامع مقبلا على استماع ما يرد عليه، فلا يفوته شيء من الكلام الرائق و المعنى الفائق)¹.

و من التّفاسير التي ذهب إليها بعض المفسّرين هي القول بأنّ هذه الحروف مُقسم بها، وهو ما نجده غريبا بعض الشيء لعدم شبهها بصيغ القسم المعروفة في شيء. يقول الفخر الرازي تعليلا لهذا الرأي:

"... أنّ هذه الحروف مُقسم بها، و ذلك لأنّ الله تعالى لمّا أقسم باليتين و الزيتون كان تشريفا لهما، فلمّا أقسم بالحروف التي هي أصل الكلام الشريف الذي هو دليل المعرفة، و آلة التعريف كان أولى."²

¹ - الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ج28، ص146.

² - المرجع نفسه، (ص ن).

و لكننا لا نميل إلى تأييد هذا الرأي و نكتفي بالقول، كما هو مبين سابقاً، بأن صيغة القسم هنا هي قوله "و القرآن ذي الذكر" حيث الواو هي حرف القسم و القرآن ذي الذكر هو المقسم به مع اعتبار "ص" من الحروف المقطعة.

أمّا عن صيغة القسم، فقد تُرجم حرف القسم "الواو" بـ "Par" و المقسم به "القرآن ذي الذكر" بـ le Coran, au renom glorieux

و معناه القرآن ذو الصيت الذائع و السمعة الممجّدة، و هذا يدلّ على شأنه الرفيع و مكانته العالية، و هو من المعاني التي ذكرناها سابقاً في التفسير. و ما يلفتنا هو اللفظ الذي أضافه المترجم بين قوسين بعد ترجمة المقسم به: (dikr) و هو النطق الفرنسي للكلمة العربية (ذكر)، و قد أضاف المترجم في ترجمته هامشاً لتفسير هذه الإضافة قال فيه: Dikr signifie également : ce qu'on doit se rappeler pour suivre le chemin droit.¹

و هذا تنويه للمعنى الآخر الذي تحمله كلمة "ذكر" من تذكير و دعوة إلى اتباع كلّ ما يهديننا إلى الصراط المستقيم.

ننتقل الآن إلى جواب القسم أو المقسم عليه في هذا المقام، و الجدير بالذكر أنه أثار جدلاً واسعاً بين مجموع العلماء فاختلّفوا في تحديده؛ إذ ذهب بعضهم إلى أنّ الجواب محذوف تقديره كلام يفهم من السياق أو يقاس بما ذكر في نظيره من السور؛ إذ يرى الزمخشري أنّ التقدير هنا هو "إنه لكلام معجز" و يستدلّ عليه بتقدّم حرف الصاد الذي يشير إلى الإعجاز، فيقول:

" ذكر اسم هذا الحرف من حروف المعجم على سبيل التحدي و التنبيه على الإعجاز كما مرّ في أوّل الكتاب، ثم أتبعه القسم محذوف الجواب لدلالة التحدي عليه كأنه قال: و القرآن ذي الذكر إنه لكلام معجز."²

¹ - محمد حميد الله، القرآن الكريم مع ترجمة معانيه إلى اللغة الفرنسية، ص453.

² - الزمخشري، الكشاف، ج3، ص359.

كما ذهب البعض الآخر إلى أن الجواب متقدّم على القسم دلّت عليه "ص"، و هو ما نستبعده لأنّه مخالف لبناء أسلوب القسم؛ فالأصل أن يتقدّم المقسم به و يمهدّ لتوكيد المقسم عليه و ليس العكس. و أيضا لتضارب الآراء حولها، فتارة يقال هي المقسم به و تارة هي المقسم عليه دون حجة دامغة، و لهذا نؤيّد الرأي القائل بأنها من الحروف المقطّعة استؤنفت بها السورة.

و ذهب آخرون إلى أن الجواب هو آيات جاء ذكرها فيما بعد نحو قوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ﴾ (ص:14) أو قوله ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ (ص:64)، ولكن هذا الرأي لاقى انتقادا بسبب تأخر الجواب كثيرا عن القسم.

جاء في تفسير الفراء: "و ذلك كلام قد تأخر تأخرا كثيرا عن قوله (و القرآن) و جرت بينهما قصص مختلفة، فلا نجد ذلك مستقيما في العربية و الله أعلم."¹

و نحن أيضا نستبعد هذا الرأى للسبب نفسه.

أمّا ما نجده مقبولا و منطقيا فهو ما ذكرنا سابقا من أن جواب القسم هو قوله تعالى: "بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَ شِقَاقٍ"، فهو أولى الآراء بالصواب لأنّ هذه الآية جاءت مباشرة بعد القسم مع استيفائها للمعنى الذي يتطلّبه السياق العام للقسم خصوصا و للسورة عموما، و هو التأكيد على تكذيب المشركين للرسالة و تمسّكهم بوثنيتهم و على معاداتهم للرسول صلى الله عليه و سلّم. و ما يزيد من قوّة هذا الرأى و صحّته هو استتفاف جواب القسم بـ "بل" التي تنفي ما قبلها و تثبت ما بعدها. جاء في "البرهان في علوم القرآن" للزركشي: (بل: حرف إضراب عن الأول، و إثبات للثاني).²

و قد قيل بأنّ بل في تأكيدها لما بعدها كإنّ المشدّدة، و عليه قال النحويون بأنه يمكن أن يُتلقَى بها القسم كما يُتلقَى بإنّ. جاء في "التبيان في أقسام القرآن" لابن قيم الجوزية في نقل لصاحب النظم قوله:

¹ - الفراء، معاني القرآن، ج2، ص397.
² - الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ص1081.

"معنى (بل) تأكيد الخبر الذي بعده فصار كـ (إن) الشديدة في تثبيت ما بعدها. و قيل ههنا بمنزلة (إن)، لأنه يؤكد ما بعده من الخبر، و إن كان له معنى سواه في نفي خبر متقدم، فكأنه -عزّ و جلّ- قال: ص و القرآن ذي الذكر، إنّ الذين كفروا في عزّة و شقاق".¹

و على اعتبار أنّ بل حرف نفي للأول و إثبات للثاني، فما الذي نفته و ما الذي أثبتته في هذا المقام؟

قيل إنّ الكلام المنفي محذوف و قدّر بما يقتضيه السياق العام. جاء في تفسير القرطبي عن القتبي:

"{ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ } ما الأمر كما يقولون من أنك ساحر كذاب ؛ لأنهم يعرفونك بالصدق والأمانة بل هم في تكبر عن قبول الحق".²

و قيل أيضا بأنّ في استئناف الجواب بـ"بل" التي تربط بينه و بين القسم دلالة على أنّ في الكلام نفيًا و إثباتًا، و معناها كما يقول الألوسي: ﴿ليس الذين كفروا إلّا في عزّة و شقاق﴾³، و هنا ننتقل إلى أسلوب القصر الذي يُعدّ من أقوى أساليب التوكيد في اللغة العربية.

و مهما كان المعنى الأصحّ فالمهم عندنا أنّ "بل" تحمل معنى الإثبات و التوكيد و هو ما اعتدنا على تلقّي جواب القسم به، و هو ما يزيد من تمسّكنا بالرأي القائل بأنّ " بلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَ شِقَاقٍ " هو فعلا جواب القسم لأنّه الأقرب إلينا من حيث التركيب و المعنى.

أمّا عن ترجمة "بل" في جواب القسم، فنلاحظ بأنّ المترجم أهملها و ابتداءً ترجمته مباشرة بالحديث عن الذين كفروا، و نحن نعزو ذلك إلى أنّ من معانيها الانتقال من حديث إلى حديث آخر، و هو ما ذهب إليه الزركشي في تفسير معناها في هذه الآية حيث قال:

" {ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَ شِقَاقٍ} ترك الكلام الأوّل، و أخذ بـ "بل" في كلام ثان".¹

¹ - ابن قيم الجوزية، التبيان في أقسام القرآن، ص32.

² - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج15، ص144.

³ - علي بن محمد بن عبد المحسن الحارثي، أسلوب القسم في القرآن الكريم- دراسة بلاغية، المجلد الثاني، ص 392.

و نحن نرى أنّ المترجم تبني هذا الرأي لعدم الخوض في مسائل النفي و الإثبات و تقدير الكلام و غيرها، و ارتأى عدم ترجمة "بل" لأنّ هذا لا يخل بمعنى الآية إضافة إلى أنّه يعبر عن أحد معانيها في العربية و هو الانتقال من كلام إلى كلام آخر.

و نختم تعليقنا كالعادة بمحاولة إيجاد المناسبة بين المقسم به و المقسم عليه، و هي هنا مشابهة لما تطرقنا إليه في سورة يس؛ حيث ورد القسم هنا بالقرآن موصوفاً بـ (ذي الذكر) على أنّ الكافرين في استكبار و ترفع عن الرسالة التي جاء بها الرسول صلى الله عليه و سلم و في شقاق و معاداة له.

و القرآن، كما نعلم، هو كلام الله المنزّل على رسوله الكريم و المتضمّن لتعاليم دينه الحنيف و رسالته السامية، و هو أكبر دليل على صدق هذه الرسالة التي استكبر عنها هؤلاء الكفار. ثمّ إنّ القرآن وُصف بـ (ذي الذكر) دلالة على رفعة شأنه و اشتماله على كلّ ما ينفع العباد في الدين و الدنيا، و هذا دليل آخر على أنّه من عند الله و ليس كذبا و افتراءً كما يزعم المشركون، و لكن هؤلاء معرضون عنه استكباراً و جحوداً.

و من هنا تظهر لنا بوضوح علاقة التضاد التي تجمع بين المقسم به و المقسم عليه؛ فبقدر ما دلّت الآيات على تشريف المقسم به و إظهار رفعته و مكانته و بأنّه حقّ، بقدر ما نوّهت إلى أنّ المقسم عليه نقيضه في ذلك، حيث أظهرت تحقيراً للمشركين و موقفهم المعارض و بأنهم ما عرضوا عن الحقّ إلّا عزّة و تكبراً، و ما ينبغي لهم ذلك. فشتان بين ما يفضي إليه المقسم به من إيمان و بين ما يدلّ عليه المقسم عليه من جحود و استنكار.

¹ - الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ص1083.

سورة الزخرف:

قال الله تعالى: ﴿حَم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (3)﴾.

أركان القسم:

المقسم	حرف القسم	المقسم به	المقسم عليه
الله عز و جل	الواو	الكتاب المبين	إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون

التفسير:

اتفق أكثر المفسرين على أن المقصود بـ{الكتاب المبين} هو القرآن، مع أن آخرين قالوا غير ذلك؛ فمنهم من رأى (أنّ المراد به جميع الكتب المنزلة على الأنبياء، لأنّ الكتاب اسم جنس، وقيل: هو اللوح المحفوظ، و قيل: المراد بالكتاب الكتابة و الخطّ، أقسم بها لكثرة منافعها).¹

و قد وُصف الكتاب بالمبين، و معناه: البين الواضح الجليّ المعاني و الألفاظ، لأنّه نزل بلغة العرب التي هي أفصح اللغات للتخاطب بين الناس.² و قيل أيضا أي: المبين الذي أبان طرق الهدى من طرق الضلالة و أبان ما تحتاج إليه الأمة في أبواب الديانة.³ و اللفظ يحتمل كلا المعنيين لأنّ هذا كلّه من صفات القرآن.

و أما قوله "إنا جعلناه" فقيل معناه: سميناه و وصفناه و قيل أنزلناه و قيل أيضا صيّرناه وكذلك خلقناه⁴، و قيل غيره من المعاني ممّا يقارب المعاني السابقة.

و قوله {قرآنا عربيا} أي بلغة العرب و لسانهم، لأنّ كل نبي أنزل كتابه بلسان قومه، و ذلك ليفهموه و يتدبروه. و قد بيّن حاله هنا لإظهار معنى الإرادة و الترجي: أي خلقناه عربيا غير عجمي إرادة أن تعقله العرب و لئلا يقولوا -لولا فصلت آياته-.⁵

¹ - علي بن محمد بن عبد المحسن الحارثي، أسلوب القسم في القرآن الكريم- دراسة بلاغية، المجلد الثاني، ص 435.

² - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج6، ص216.

³ - الزمخشري، الكشاف، ج3، ص477.

⁴ - انظر: تفسير ابن كثير، ج6، ص216/ تفسير القرطبي، ج6، ص61/ الكشاف، ج3، ص477.

⁵ - انظر المراجع نفسها، ص ن.

{لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} أي تفهمون أحكامه ومعانيه. فعلى هذا القول يكون خاصا للعرب دون العجم ؛ قال ابن عيسى. وقال ابن زيد : المعنى لعلمكم تتفكرون ؛ فعلى هذا يكون خطابا عاما للعرب والعجم. ونعت الكتاب بالمبين لأن الله بين فيه أحكامه وفرائضه¹، كما تقدم بيانه.

الترجمة:

ترجمتها	الآية
1-H'a, Mim 2-Par le livre explicite! 3-Nous en avons fait un Coran arabe afin que vous raisonnez.	حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (3)

التحليل:

افتتحت هذه السورة بقوله تعالى {حم} و هي من الحروف المقطعة التي سبق الحديث عنها فيما تقدم من سورتي (يس) و (ص)، و قد قيل بأنها قسم و {و الكتاب المبين} قسم ثان، كما قيل بأنها جواب القسم تقدم في هذا المقام كما في قولنا نزل و الله.²

و قد ذكرنا في ما سبق عن هذه الحروف أنها مما استأثر الله بعلمه و لا يُعلم لها معنى مؤكّد، و لهذا نرى أن ترجمتها إلى الفرنسية جاءت بطريقة نطقها في العربية: H'a, Mim.

أما قوله تعالى: {و الكتاب المبين} فلا ريب في أنه قسم لاستيفائه عناصر القسم المطلوبة. جاء في الكشاف: "أقسم بالكتاب المبين و هو القرآن و جعل قوله -إنا جعلناه قرآنا عربيا- جوابا للقسم".³

أي أن القسم ورد في هذا الموضع بلفظ "الكتاب" موصوفا بـ "المبين"، و الذي اتفق مجموع العلماء و المفسرين على أن المراد به هو القرآن الكريم، و هذا ما نراه أيضا صوابا

¹ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج16، ص61.

² - المرجع نفسه، ج16، ص61.

³ - الزمخشري، الكشاف، ج3، ص477.

لما يحمله السياق من دلالات تشير إلى ذلك؛ إذ يأتي لفظ "القرآن" في الآية الموالية مسبقاً بالفعل "جعلناه" الذي يحتمل أن يكون الضمير المتصل فيه راجعاً على "الكتاب المبين"، و بهذا يكون "الكتاب المبين" و "القرآن العربي" لفظين دالّين على المعنى نفسه. إضافة إلى أن المعاني التي يحملها وصف "المبين" تنطبق على القرآن الكريم؛ فهو كتاب بيّن في نفسه مُبين لغيره من جميع الوجوه.

أمّا عن ترجمته، فالملاحظ أنّ حرف القسم "الواو" قد ترجم إلى الحرف "Par" كما في المواضع السابقة. أمّا المقسم به "الكتاب المبين" فكانت ترجمته: "le livre explicite"، و هنا قد يتساءل السائل: إذا كان المراد بالكتاب المبين هو القرآن الكريم، و ذلك ما دلت عليه أكثر أقوال المفسرين، فلماذا أغفل المترجم ذلك و لم يترجم الكتاب المبين بالقرآن مباشرة علماً أنه يتقصّى ترجمة المعاني لا الألفاظ؟؟ و للإجابة نقول إنه لم يغفل ذلك، بل إنه راعى الترتيب الذي ورد في الآية الأصل؛ فكما هو واضح، فلفظ الكتاب أعمّ و أشمل من القرآن، و عليه فهناك انتقال من الأعمّ إلى الأخصّ، و هو ما قام به المترجم لضمان التوازي بين الأصل والترجمة.

و قد وُفق المترجم في ترجمته هذه لأبعد الحدود. لتأمل ترجمة الصفة "مبين" و ما حملته من معاني مقاربة لما يحمله اللفظ العربي، فكلمة " explicite " تعني: الواضح و الجليّ، الذي لا يمكن أن يتعرض لنقد أو طعن أو أخذ و ردّ. و كلّ هذه المعاني تدلّ على شدة وضوح هذا الكتاب بالنسبة للمخاطبين، كما تدلّ على كماله و خلوه من العيوب إذ لا يمكن لأحد مهما بلغ من مستوى رفيع من العلم و المعرفة أن يطعن فيه أو في مضمونه، و كيف ذلك و هو منزل من عند العليّ العظيم!؟

و الملاحظ أيضاً في الترجمة هو ورود علامة التعجب بعد صيغة القسم مع غياب أي معنى للتعجب في الآية الأصل، و هو ما لوحظ من قبل في مواضع سابقة، و الذي أرجعناه - و الله أعلم - إلى غياب فعل القسم. فالملاحظ هو ورود التعجب في كلّ الصيغ التي يغيب

فيها فعل القسم و ذلك مع جميع حروف القسم حتى التي لا تختص منها بزيادة معنى التعجب للقسم.

و ننتقل إلى المقسم به في هذا الموضع و هو قوله تعالى: "إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ"، و الملاحظ فيه أنه زاخر بالمؤكدات؛ إذ تتصدره أنّ المشددة متصلة بضمير العظمة في قوله {إنّا} و يتكرّر هذا الضمير في قوله {جعلناه} زيادة في التشديد و التأكيد. كما نزيد على ذلك ورود {لعلّ} و هي من أخوات {إنّ} و تفيد الترجي. و يجدر لفت الانتباه إلى أنّ معنى الترجي لا يدلّ قطعاً على أنّ الأمر المرجو غير متحقّق الوقوع، فما بالك إذا كان صادراً من عند الخالق، فإنّ تحقّقه واقع لا محالة. و الأمر هنا هو عقل المخاطبين و هم الكفار المتمسكون بكفرهم- للقرآن، فهذا تأكيد منه عزّ و جلّ على أنهم يعقلونه و يفهمونه و ذلك لأنه نزل بلغتهم {قرآناً عربياً}.

و قيل أيضاً بأنّ {لعلّ} قد تأتي بمعنى {لكي} و تكون مؤكدة لمضمون الجملة. يقول الرازي باعتبار ذلك:

"ففي الكلام على هذا النحو ما يشبه الضمان الشرطي، إذ كأنّ المعنى: إذا كنّا قد جعلناه عربياً فقد عقلتموه".¹

أمّا الترجمة فجاءت على النحو الآتي:

Nous en avons fait un Coran arabe afin que vous raisonnez

و الملاحظ غياب المؤكّدات في هذه الترجمة رغم ما أشرنا إليه من ورودها في الآية، ما عدا ضمير العظمة الذي عبّر عنه بضمير المتكلمين

.(La première personne du pluriel)

إضافة إلى ترجمة {لعلّ} بـ: "afin que" التي تفيد التعبير عن الغاية في اللغة الفرنسية (l'expression du but). فكأن المترجم جعل لخلق القرآن باللسان العربي غايةً و هي أن

¹ - الرازي، مفاتيح الغيب، ج27، ص239.

يعقله المشركون. و نفسّر هذا بما ذكرنا آنفا عن دلالات {لعل} و بأنها تأتي أحيانا بمعنى {لكي}.

أمّا الفعل {جعل} الذي رأينا أنه يحتمل عدّة معانٍ في العربية فقد ترجمه المترجم بالفعل الفرنسي {faire} الذي يحمل القدر نفسه من الشمولية و العمومية في الفرنسية، فهو الآخر يحتمل معانٍ عدّة تتغير بتغيّر سياق الكلام.

و عن ضمير الغائب في قوله {جعلناه} فقد ترجم بالضمير الفرنسي {en} الذي يفهم من سياق الترجمة الفرنسية أنه يعود على ما قبله، أي على المقسم به {الكتاب المبين} في حين أنه يعود في الأصل العربي على القرآن. و لا ضير في ذلك لأنّ المقصود من التعبيرين واحد، فقد فسّر أحدهما بالآخر، و هذا يقودنا إلى إيجاد المناسبة بينهما.

فالعلاقة بين المقسم به و المقسم عليه هنا علاقة وطيدة متناسبة تبلغ بهما حدّ الاتحاد، فهما من واد واحد؛ إذ أقسم سبحانه و تعالى بالكتاب المبين و هو القرآن العظيم على تعظيم هذا القرآن و جعله عربيا رجاء أن يعقله المتفكّرون و يفهموا بديع آياته، و في كلّ هذا تعظيم و تشریف للقرآن الكريم.

و من هنا تظهر لنا قيمة اتحاد المقسم به و المقسم عليه في تأكيد ما يرمي القسم إلى إثباته، و هو عظمة القرآن في مواجهة مواقف من لم يؤمنوا به؛ إذ أن المقسم به يمهد للمقسم عليه، و المقسم عليه يؤكّد ما جاء في المقسم به من صفات و كلاهما يدلان على المضمون نفسه الذي اتفقا في الدلالة عليه.

سورة ق:

قال الله تعالى: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (1) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (2)﴾.

أركان القسم:

المقسم	حرف القسم	المقسم به	المقسم عليه
الله عز و جل	الواو	القرآن المجيد	بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب

التفسير:

استؤنفت هذه السورة أيضا بحرف من الحروف المقطعة التي سبقت الإشارة إليها في السور (يس) و (ص) و (الزخرف)، و قد اختلف المفسرون في تفسير معناه على غرار المواضع السابقة فقالوا:

ق هو جبل محيط بجميع الأرض يقال له جبل قاف (...) و قيل المراد قضي الأمر والله.¹

و لكن التفسير الأول اعتبر ضعيفا من طرف الكثير من المفسرين على غرار ابن كثير والرازي لعدة وجوه.

وقال ابن عباس : {ق} اسم من أسماء الله تعالى أقسم به. وعنه أيضا : أنه اسم من أسماء القرآن.²

و فسّر القرطبي قوله تعالى: {و القرآن المجيد} بقوله: أي الرفيع القدر³ في حين قال ابن كثير إنه يعني: الكريم العظيم⁴. أما الرازي فذهب إلى بيان وجه العظمة و الكرم بقوله:

¹ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج6، صص395-396.

² - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج17، ص2.

³ - المرجع نفسه، (ص ن).

⁴ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج6، ص396.

أما قولنا (المجيد) هو العظيم، لأنّ القرآن عظيم الفائدة، و لأنّه ذكر الله العظيم، و ذكر العظيم عظيم (...). و أما على قولنا (المجيد) هو كثير الكرم فالقرآن كريم كلّ من طلب منه مقصوده وجده، و إنّه مغن كل من لاذ به، و إغناء المحتاج غاية الكرم.¹

أما الزمخشري ففسّره بقوله:

المجيد ذو المجد و الشرف على غيره من الكتب و من أحاط علما بمعانيه و عمل بما فيه مجد عند الله و عند الناس و هو بسبب من الله المجيد فجاز اتّصافه بصفته.²
و أما قوله: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ فالكلام عن الكفار و فيه (إنكار لتعجبهم مما ليس بعجب).³

و يزيد القرطبي على هذا فيقول:

﴿هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ العجيب الأمر الذي يتعجب منه ، وكذلك العجاب بالضم ، والعجاب بالتشديد أكثر منه ، وكذلك الأعجوبة. وقال قتادة : عجبهم أن دُعوا إلى إله واحد. وقيل : من إنذارهم بالبعث والنشور.⁴

الترجمة:

الآية	ترجمتها
ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (1) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (2)	1- Qaf. Par le Coran glorieux ! 2- Mais ils s'étonnent que l'un des leurs leur vint comme avertisseur ; et les mécréants dirent : « Ceci est une chose étonnante ».

التحليل:

ذكرنا أنّ {ق} حرف من الحروف المقطعة التي يجيء ذكرها في أوائل السور نحو: يس و ص و حم و غيرها، كما قلنا بأنّ المفسرين اختلفوا في تحديد معناها، مع غياب دليل قاطع

¹ - الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ج28، ص148.

² - الزمخشري، الكشاف، ج4، ص3.

³ - المرجع نفسه، (ص ن).

⁴ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج17، ص4.

على صحّة أي من تفسيراتهم. و الوجه الأقرب إلينا هو قول بعضهم بأنّها حروف تشير إلى إعجاز القرآن عن طريق التّحدي بنظمه، و أنّ الله قد استأثر بعلم معناها. و نجد أنّ هذا ما اعتمده الدكتور حميد الله في ترجمته لهذا الحرف على غرار المواضع السابقة فقال: Qaf.

أما صيغة القسم في هذا الموضع فجاءت بالقسم بالقرآن موصوفاً بالمجيد. و للتذكير فقد جاء القسم بالقرآن في غير هذا الموضع موصوفاً بالحكيم في سورة (يس)، و موصوفاً بذي الذكر في سورة (ص)، و بين هذه المواضع كلّها تشابه في التركيب و السياق العام الذي وردت فيه؛ فإضافة إلى أنّها استؤنفت بالحروف المقطعة و جاء القسم فيها بالقرآن، فقد وردت في سياق إثبات الرسالة و بيان إعراض الكافرين عنها. و قد أشار بعض المفسرين إلى أوجه التشابه هذه و بالأخص بين (ق) و (ص) - و هو ما سيأتي بيانه لاحقاً-، و من بينهم الزمخشري الذي قال:

"الكلام في {ق و القرآن المجيد بل عجبوا} نحوه في {ص و القرآن ذي الذكر بل الذين كفروا} سواء بسواء لالتقائهما في أسلوب واحد".¹

كما لحظ الرازي بعض أوجه التماثل بينهما في قوله:

"هذه السورة و سورة (ص) تشتركان في افتتاح أولهما بالحروف (...). و القسم بالقرآن، و قوله (بل)، و التعجب، و يشتركان في شيء آخر، و هو أنّ أول السورتين و آخرهما متناسبان".²

إذن فقد أقسم الله تعالى في هذا الموضع بالقرآن المجيد مع التنبية إلى ما يحمله هذا الوصف من معاني العظمة و الجلال و الشرف و العلو و الكرم، و قد جاءت ترجمته إلى

الفرنسية بقوله: Par le Coran glorieux !

¹ - الزمخشري، الكشاف، ج4، ص3.

² - الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ج28، ص145.

و معناه أنّ حرف القسم "الواو" قد ترجم -كما ألفناه- إلى الحرف الفرنسي Par، و أنّ وصف المجيد قد ترجم إلى الصفة (l'adjectif) : glorieux التي تحمل من معاني الشرف والمجد ما يعبر عن المعنى المراد هنا.

و لكن ما يلفتنا هو أنّ المترجم استعمل الصفة الفرنسية ذاتها لترجمة قوله {ذي الذكر} في سورة (ص) حيث قال:

و القرآن ذي الذكر ← Par le Coran, au renom glorieux

حيث نسب المجد في سورة (ص) إلى اللفظ {renom} الذي يعني السمعة أو الصيت، في حين نسبه في هذا الموضع إلى القرآن. و في كلا الموضعين دلّت الصفة على مكانة القرآن و رفعة شأنه، و هو ما اتفق العلماء على كونه الغرض من كلا القسمين. كما نفسّر ذلك أيضا بمدى التماثل بين القسم في الموضعين و هو ما أشرنا إليه سابقا.

ننتقل الآن إلى المقسم عليه (جواب القسم) الذي اختلف العلماء في تحديده تماما مثلما اختلفوا في ذلك في قسم سورة (ص)، و ذلك لوجه الشبه بينهما في التركيب و النسق، و مما ذهبوا إليه:

- الجواب محذوف و مقدر دلّ عليه السياق، و ممن قال بهذا الرأي الأخفش و كذلك الفراء إذ جاء في تفسيره: (... و لكن معناه مضمّر، إنّما كان -و الله أعلم-: "ق و القرآن المجيد لتبعثنّ بعد الموت)¹ و استدللّ على ذلك بالآية الثالثة من السورة في قوله " إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا " .

كما قال ابن القيم بأن المقسم عليه هنا محذوف لأنّ المقسم به يدلّ عليه، جاء في "التبيان في أقسام القرآن": و ههنا قد اتحد المقسم به و المقسم عليه و هو القرآن، فأقسم بالقرآن على ثبوته و صدقه، و أنّه حقّ من عنده. و لذلك حذف الجواب و لم يصرّح به، و لما في القسم من الدلالة عليه، أو لأنّ المقصود نفس المقسم به كما تقدّم بيانه.²

¹ - الفراء، معاني القرآن، ج3، ص75.
² - ابن قيم الجوزية، التبيان في أقسام القرآن، ص355.

- الجواب مذكور قبل القسم، و هو قوله {ق} التي تعني قُضي الأمر و الله (و جاء مُقَدِّمًا على القسم لدلالته الإعجازية، و هذا قول الرازي)¹. و هذا الرأي نراه ضعيفا لوجهين أولهما أن التفسير الذي يقول بأن {ق} تعني قضي الأمر تفسير ضعيف بحد ذاته لا يقوم على أساس متين، و ثانيهما أن تقدّم الجواب على القسم -كما ذكرنا في سورة (ص)- تركيب يخالف أسلوب القسم؛ فالأصل فيه تقدّم القسم.

- الجواب هو آيات جاء ذكرها فيما بعد، و قد جاء في تفسير القرطبي نقل لبعض منها في قوله:

وجواب القسم قيل هو : {قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ} على إرادة اللام ؛ أي لقد علمنا . وقيل : هو {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى} وهو اختيار الترمذي (...). وقال ابن كيسان : جوابه {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ}. وقال أهل الكوفة : جواب هذا القسم {بَلْ عَجِبُوا}².

و المأخوذ على بعض هذه الآراء أن الآيات تأخرت كثيرا عن موضع القسم؛ فقوله: {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ} جاء في الآية 18 من السورة في حين أن قوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى} جاء في أواخر السورة تحديدا في الآية 37.

و نحن في هذا من مؤيدي أهل الكوفة في القول بأنّ الجواب هو قوله {بَلْ عَجِبُوا}، وذلك لقربه من القسم و علاقته الوثيقة به -كما سيأتي بيانه- و قد عهدنا في المواضع السابقة من البحث ورود جواب القسم بعد القسم مباشرة، و لأنّ هذا الجواب أيضا لا يعاني علة تمنع أن يكون جوابا للقسم لا في التركيب و لا في المضمون، ثمّ إنه الأولى بالصواب لأنّه لا يحتاج إلى تقدير على خلاف الآراء الأخرى.

وقد استؤنف هذا الجواب بالحرف (بل) الذي يفيد في بعض الأحيان التوكيد و يقوم في ذلك مقام (إنّ) و هو بالضبط ما يفيد في هذا الموضع، إذ أنّه جاء هنا لتأكيد مدى تعجّب الكافرين من كون الرسول صلى الله عليه و سلّم منذرا منهم و هو ما يدلّ على إنكارهم

¹ - أحمد مصطفى متولي، الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم و السنة النبوية، دار ابن الجوزي- القاهرة، ط1، 1426هـ/ 2005م، ص658.

² - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج17، ص3.

الشديد لذلك. و بهذا يكون هذا الجواب قد اتسم بالسمة العامة في تركيب جواب القسم في القرآن الكريم و هي كونه مشتملا في أكثر المواضع على عناصر التأكيد.

إضافة إلى استئناف الجواب بـ (بل) فإنّ عناصر التركيب هنا جاءت لتأكيد تعجب الكفار و إنكارهم لرسالة محمد صلى الله عليه و سلم. و أول عنصر من هذه العناصر هو التعبير عن هؤلاء الكافرين بالإضمار قبل الذكر في قوله: {بل عجبوا} و تقديمه على قوله {فقال الكافرون}، فكان هذا كالتفسير بعد الإبهام. ثم استعمال الفعل "عجبوا" للتعبير عن مشاعر المتحدث عنهم، ففي التعجب إشارة إلى أنّ الشيء المتعجب منه خارج عن العادة و يأتي بعده تنبيه إلى أنّ لاشيء يدعو في حالتهم هذه إلى العجب، و يعبر عن ذلك بقوله {منهم}، فالعادة أنه إذا كان النذير منهم كان قبوله أسهل و تصديقه أسرع، و لكنهم على العكس من ذلك عجبوا منه و كذبوه. ثم نلاحظ تأكيدا على تعجبهم هذا بقولهم {هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ}.

إذن فقد جاءت هذه التراكيب و التعابير لتثقل لنا المعنى المراد بأدق تفاصيله و تبين لنا أنّ الإنكار و التعجب الذي أبداه الكفار ما هو إلاّ حسد و استكبار لأنهم في قرارة أنفسهم يعلمون أنّه الحقّ.

و برجعنا إلى الترجمة المعتمدة لجواب القسم هنا، نجد أنّ الحرف (بل) -الذي ذكرنا أنّه يفيد التوكيد هنا- قد ترجم إلى الحرف (Mais) الذي يعبر عن التناقض (l'opposition) في اللغة الفرنسية، فكأنّ المترجم عبّر عن وجود تناقض أو معارضة بين القسم و جوابه في حين أنّ هذا ليس المقصود من الآيات، إذ جاء القسم لتأكيد المقسم عليه دون ذكر أيّ تناقض بين الاثنين، و هو ما بيّناه سابقا. فكان الأولى أن يستعمل المترجم إحدى أدوات التوكيد نحو (certes أو assurément...) مكان (Mais) أو يستغني عن ذكرها نهائيا -كما فعل في ترجمته للقسم في سورة (ص)- لأنّ هذا لن يخلّ بالمعنى العام لتكون الترجمة:

1- Qaf. Par le Coran glorieux ! 2 - Ils s'étonnent que l'un des leurs leur vint comme avertisseur ; et les mécréants dirent : « Ceci est une chose étonnante ».

و خلاصة القول أنّ القسم في هذا الموضع قد ورد منه سبحانه و تعالى حيث أقسم بالقرآن موصوفاً بالمجيد على أنّ الكافرين في تعجب غريب من رسالة سيّد الخلق إليهم و أنهم في استكبار عنها، و هذا يبيّن وجه العلاقة بين عنصر القسم هنا: فمن جهة ينقل لنا المقسم به من معاني المجد و علوّ المكانة و رفعة الشأن ما يثبت صدق ما جاء فيه و صدق المنذر الذي أنزل عليه، و من جهة أخرى يصف لنا المقسم عليه مدى حسد الكافرين و تكبرهم عن هذا المنذر و تعجبهم من رسالته مع ما يظهر لهم من صدق القرآن و بآئه حقّ و هو الكفيل بدفع إنكارهم و إبطال عجبهم.

إذن فالعلاقة بين المقسم به و المقسم عليه في هذا الموضع تماثل العلاقة بينهما في قسم سورة (ص). و بهذا يظهر وجه الشبه الكبير بين الموضعين؛ فكلّ منهما صدر سورته واستؤنف بالحروف المقطّعة، و ورد القسم فيه بلفظ (القرآن) موصوفاً بما يدلّ على رفعتة و شأنه، كما استؤنف جوابه بالحرف (بل) الذي يفيد التوكيد إضافة إلى ما ذكرنا من شبه في العلاقة بين عنصر القسم، فكلّ هذا يظهر أنّ الموضعين متماثلان في التركيب و في المعنى.

كانت هذه النماذج الأربعة لصيغ القسم بأسماء القرآن الكريم، و ننتقل بعدها إلى آخر فصل في الدراسة التطبيقية، ألا و هو القسم بالمخلوقات.

سورة يس:

قال الله تعالى: ﴿يس (1) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (4)﴾.

أركان القسم:

المقسم	المقسم له	حرف القسم	المقسم به	المقسم عليه
الله عزّ و جلّ	الرسول صلى الله عليه و سلم	الواو	القرآن الحكيم	إنّك لمن المرسلين على صراط مستقيم

التفسير:

أقسم سبحانه بكتابه على صدق رسوله و صحة نبوته و رسالته، فتأمل قدر المقسم به والمقسم عليه.¹ قال النقاش: لم يقسم الله تعالى لأحد من أنبيائه بالرسالة في كتابه إلا له، وفيه من تعظيمه وتمجيده ما فيه.²

و عن مناسبة نزول هذه الآية، قال ابن عباس: قالت كفار قريش لست مرسلا وما أرسلك الله إلينا؛ فأقسم الله بالقرآن المحكم أن محمدا من المرسلين.³

و جاء القسم في هذا الموضع بالقرآن موصوفاً بالحكيم، و قد قيل في تفسير هذه الصفة؛ الحكيم أي: المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه.⁴

و قيل أيضا: ذي الحكمة، أو لأنه دليل ناطق بالحكمة أو لأنه كلام حكيم فوصف بصفة المتكلم به.⁵

1 - ابن قيم الجوزية، التبيان في أقسام القرآن، ص 356.

2 - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 15، ص 5.

3 - المرجع نفسه، (ص ن).

4 - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 5، ص 600.

5 - الزمخشري، الكشاف، ج 3، ص 314.

و أيضا: "والحكيم" المحكم حتى لا يتعرض لبطلان وتناقض ؛ كما قال : {أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ} (هود : 1). وكذلك أحكم في نظمه ومعانيه فلا يلحقه خلل.¹

إذن فقد أقسم الله سبحانه بالقرآن الحكيم على أن سيّدنا محمدا من المرسلين بوحيه إلى عباده، و بأنه على صراط مستقيم لا اعوجاج فيه. فهذا القسم تأكيد و تحقيق لرسالة سيدنا محمد و شهادة بهديته و اتباعه طريق الحقّ.

الترجمة:

ترجمتها ²	الآية
1- Yâ-Sîn	يس (1)
2- Par le Coran plein de sagesse.	وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2)
3- Tu (Muhammad) es certes du nombre des messagers.	إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3)
4- Sur un chemin droit.	عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (4)

التحليل:

نلاحظ أنّ هذه السورة قد افتتحت بالحرفين "يس" اللذين كانت ترجمتهما إلى الفرنسية "Yâ-Sîn" أي أنها ترجما على أنهما من الحروف المقطّعة على غرار "الم" و "حم" و غيرها، والتي قال مجموع العلماء بأنها مما استأثر الله بعلمه و لم يفسّروها، و يجدر التنويه إلى أنّ من العلماء من رأى أنّ لها معنى و اجتهد في تفسيرها، و مما قيل في "يس": إنها تقييد النداء وتعني يا إنسان، و منهم من قال بأنها تعني يا رجل، و منهم من ذهب إلى أنها اسم من أسماء الله تعالى كما قال آخرون بأنها اسم من أسماء الرسول صلى الله عليه و سلّم.

أمّا عن صيغة القسم، فقد ترجم حرف القسم في هذا الموضع بالحرف الفرنسي "Par" كما في المواضع السابقة، و ترجم المقسم به "القرآن الحكيم" إلى اللغة الفرنسية بالعبارة: "le Coran plein de sagesse" أي وصف القرآن بأنه ملئ بالحكمة و هذا هو المعنى الوارد

¹ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج15، ص5.

² - محمد حميد الله، القرآن الكريم مع ترجمة معانيه إلى اللغة الفرنسية، ص440.

في تفسير الزمخشري، و بهذا يكون المترجم قد اختار المعنى المباشر و الأقرب إلى الفهم على باقي المعاني المذكورة في التفاسير الأخرى من أنه بمعنى الذي لا يتعرض لبطلان أو أنه محكم النظم و المعاني، فهذه المعاني أبعد و ألزم للتمعن و التدقيق.

و في وصف القرآن بالحكيم مجاز واضح يأتي على سبيل الاستعارة المكنية، إذ أن الحكمة من صفات العقلاء، فهو بذلك يضيف إليه معنى الحياة و الروح. و قد يعزى ذلك إلى أن القرآن كتاب الله المقدس المنزل من عنده سبحانه فلا بد أن يتصف بصفاته و يكون كاملا من جميع النواحي، و بهذا يكون وصف القرآن بالحكمة من وصف المتكلم به، أو لأن ما جاء فيه من أحكام و تعاليم لا يضاهي في حكمته، فكأن القرآن كائن حي ناطق بالحكمة.

و على كل، فإن الله سبحانه و تعالى لما أقسم بالقرآن الحكيم لم يبين وجه الحكمة فيه، و عليه يمكن أن تفهم جميع المعاني السابقة. فهو حكيم من جميع جوانبه المتأتية فيه؛ في أحكامه و تعاليمه و نظمه و أسلوبه و معانيه و غيرها.

و ننتقل الآن إلى المقسم عليه في قوله "إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم" الذي جاءت ترجمته:

Tu (Muhammad) es certes du nombre des messagers * Sur un chemin droit.

حيث جاء في الترجمة بيان المُخاطَب أو المُقسم له في هذا المقام بلفظ صريح وُضع ما بين قوسين؛ و هو سيّدنا محمد صلى الله عليه و سلم في حين غاب هذا اللفظ الصريح في الآية الأصل و فهم من سياقها.

كما نلاحظ ورود مؤكّدات أخرى في الآية إلى جانب القسم تتمثل في "إن" و "اللام" التي تُرجمت في مجموعها باللفظ "certes" الذي يفيد التوكيد في الفرنسية. و ما هذه المؤكّدات واحتشادها بقوة في الآية إلا زيادة في إثبات الأمر المُقسم عليه و بيان لصحّته ألا و هو كون سيّدنا محمد صلى الله عليه و سلم من المرسلين على صراط مستقيم.

و هذا الجواب المعزّز بهذا القدر من التأكيد هو ردّ قاطع على أولئك المشركين الذين أنكروا رسالته صلى الله عليه و سلم كما ذكرنا سابقا في سبب نزول الآية، و هو أيضا تأييد

للنبي عليه الصلاة و السلام ضدّهم و ضدّ موقفهم المنكر لرسالته. جاء في تفسير الجالين:
"التأكيد بالقسم و غيره ردّ لقول الكفار له: لست مرسلًا".¹

و في قوله تعالى " إنك لمن المرسلين" إقرارا بأنه سبحانه أرسل العديد من الرّسل و أنّ
رسوله محمّداً واحد منهم، فكلّمة "لمن" تفيد البعضية، و لهذا جاءت ترجمتها على هذا النحو
"du nombre des messagers".

أمّا الصراط المستقيم فهو بمعنى الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، و قد جاءت
ترجمته مباشرة بقوله: Sur un chemin droit .

و نختم تعليقنا هذا بالتنبيه إلى وجود مناسبة بين المقسم به و المقسم عليه في هذا المقام،
إذ أنّ القسم بالقرآن الحكيم على صدق رسالة النبي صلى الله عليه و سلّم لم يأت هكذا
اعتباطاً بل إنه يلفتنا إلى أنّ المقسم به، و هو القرآن، جاء شاهداً و دليلاً على المقسم عليه،
و هو رسالة الرسول صلوات الله عليه. فالقرآن هو معجزته الكبرى و الخالدة و هذا أكبر
دليل على صدق رسالته.

يقول أبو السعود مؤكّداً على هذه العلاقة بين المقسم به و المقسم عليه:

"و في تخصيص القرآن بالإقسام به أوّلاً و بوصفه بالحكيم ثانياً تنويها بشأنه و تنبيها إلى
أنّه كما يشهد برسالته صلى الله عليه و سلم من حيث نظمه المعجز المنطوي على بدائع
الحكم، يشهد بها من هذه الحيثية أيضاً لما أنّ الإقسام بالشيء استشهاد به على تحقّق مضمون
الجملة القسمية و تقوية لثبوته فيكون شاهداً به و دليلاً عليه قطعاً".²

و خلاصة القول أنّ الله سبحانه و تعالى أقسم بكتابه الذي وصفه بالحكيم لما فيه من
الحكمة في جميع أوجهه، أقسم لرسوله الكريم على صدق رسالته و على أنّه على صراط
مستقيم لا عوج فيه، و كلّ ذلك في سياق متكامل من المعاني زادت من قوته المؤكّدات، كما
زاد من إعجازه علاقة عناصره ببعضها بعض.

¹ - جلال الدين المحلي و جلال الدين السيوطي، تفسير الجالين، ص 440.

² - علي بن محمد بن عبد المحسن الحارثي، أسلوب القسم في القرآن الكريم- دراسة بلاغية، المجلد الثاني، ص 392.

سورة ص:

قال الله تعالى: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (1) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَ شِقَاقٍ (2)﴾.

أركان القسم:

المقسم	حرف القسم	المقسم به	المقسم عليه
الله عز و جل	الواو	القرآن ذي الذكر	بل الذين كفروا في عزة و شقاق

التفسير:

استؤنفت هذه السورة بحرف من الحروف المقطعة و هو حرف الصاد الذي اختلف العلماء في تفسيره، ف قيل فيه: ذكر اسم هذا الحرف من حروف المعجم على سبيل التحدي و التنبيه على الإعجاز كما مرّ في أول الكتاب.¹ كما قيل أيضا أنه من صادى يصادى إذا عارض ، ومنه { فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى } أي تعرض. وقال الضحاك : معناه صدق الله. وعنه أن {ص} قسم أقسم الله به وهو من أسمائه تعالى. وقال قتادة : هو اسم من أسماء الرحمن. وعنه أنه اسم من أسماء القرآن.² كما قال الفراء أنه في معناه كقولك وجب و الله، و نزل و الله، و حقّ و الله، وأنها جواب لقوله "و القرآن" كما تقول: نزل و الله.³

و قوله تعالى "و القرآن" خفض بواو القسم، أقسم بالقرآن تنبيها على جلاله قدره ؛ فإن فيه بيان كل شيء ، وشفاء لما في الصدور ، ومعجزة للنبي صلى الله عليه وسلم.⁴ و قد وصف القرآن بـ "ذي الذكر" أي ذي البيان أو ذي الشرف أو ذي الشأن و المكانة، كما قيل أيضا هو بمعنى (المشتمل على ما فيه ذكر للعباد و نفع لهم في المعاش و المعاد).⁵

1 - الزمخشري، الكشاف، ج3، ص359.

2 - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج15، ص142.

3 - الفراء، معاني القرآن، ج2، ص396.

4 - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج15، ص143.

5 - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج6، ص44.

و قوله تبارك و تعالى "بل الذين كفروا في عزّة" أي تكبر و امتناع من قبول الحقّ، "وشقاق" أي في إظهار خلاف و مباينة. و معنى ذلك أنّ في هذا القرآن لذكرى لمن يتذكرّ وعبرة لمن يعتبر، و إنّما لم ينتفع به الكافرون لأنّهم (في عزّة) أي استكبار عنه و حميّة (وشقاق) أي و مخالفة له و معاندة و مفارقة.¹

و عن سبب نزولها، فقد روي أنّ هذه الآيات قد نزلت عقب موقف جرى بين الرسول صلى الله عليه و سلّم و بين كفّار قريش؛ ذلك أنّهم شكوه إلى عمّه أبي طالب فقال له: يا ابن أخي، ما تريد من قومك؟ فردّ: يا عمّ ما أريد منهم إلّا كلمة واحدة؛ لا إله إلّا الله. فقالوا: أجعل الآلهة إلها واحدا؟! فنزلت فيهم الآيات.

و قد قيل بأنّ قوله تعالى "بل الذين كفروا في عزّة و شقاق" هي جواب القسم، كما قيل إنّ الجواب غيرها، و لكننا نكتفي بالرأي القائل بكونها جوابا للقسم أو مقسما عليه لأنّها أقرب الآراء إلينا.

و عليه يكون القسم في هذا الموضع، و كما ذكرنا سابقا، صادرا من الله عزّ و جلّ و هو قسم بكتاب الله، القرآن ذي الذكر، على أنّ الكفار في استكبار عن الإذعان للحقّ و في عداوة لله و لرسوله.

الترجمة:

ترجمتها ²	الآية
1- Sad. Par le Coran, au renom glorieux (dikr) ! 2- Ceux qui ont mécréu sont plutôt dans l'orgueil et le schisme !	ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (1) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ و شِقَاقٍ (2)

¹ - المرجع السابق، (ص ن).

² - محمد حميد الله، القرآن الكريم مع ترجمة معانيه إلى اللغة الفرنسية، ص453.

التحليل:

ورد هذا القسم في بداية سورة ص في سياق الحديث عن تكذيب المشركين و رفضهم لتقبّل تعاليم الدين الجديد الذي يدعو إلى التوحيد، و كما يظهر فإنّ هذه السورة استؤنفت بحرف من الحروف المقطّعة و هو حرف الصاد متبوعا بالقسم بالقرآن. و هنا نلنفت إلى وجه المشابهة بين هذا القسم و ذلك الوارد في سورة يس؛ فالقسم في كلتا السورتين جاء مسبقا بحروف مقطّعة و اتفق في كلا الموضعين على المُقسم به و هو القرآن-مع اختلاف صفته التي وصف بها في كلّ سورة- إضافة إلى السياق العام الذي ورد فيه، و هو تكذيب المشركين للرسالة المحمّدية.

و قد تُرجم حرف الصاد بـ "Sad" تماما كما تُرجمت "يس" بـ " Ya-Sîn "، ذلك لأنّ هذه الحروف، كما قال المفسّرون، هي مما استأثر الله بعلمه فلم يربطوها بمعنى معيّن، مع أنّ البعض اجتهد في ذلك، بل قالوا بأنّ ما فيها من الإعجاز يفوق قدرتنا على الفهم و الاستيعاب. كما قالوا أيضا بأنّ هذه (الحروف تنبيهات قُدّمت على القرآن، ليبقى السامع مقبلا على استماع ما يرد عليه، فلا يفوته شيء من الكلام الرائق و المعنى الفائق)¹.

و من التّفاسير التي ذهب إليها بعض المفسّرين هي القول بأنّ هذه الحروف مُقسم بها، وهو ما نجده غريبا بعض الشيء لعدم شبهها بصيغ القسم المعروفة في شيء. يقول الفخر الرازي تعليلا لهذا الرأي:

"... أنّ هذه الحروف مُقسم بها، و ذلك لأنّ الله تعالى لما أقسم بالتين و الزيتون كان تشريفا لهما، فلما أقسم بالحروف التي هي أصل الكلام الشريف الذي هو دليل المعرفة، و آلة التعريف كان أولى."²

¹ - الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ج28، ص146.

² - المرجع نفسه، (ص ن).

و لكننا لا نميل إلى تأييد هذا الرأي و نكتفي بالقول، كما هو مبين سابقا، بأن صيغة القسم هنا هي قوله "و القرآن ذي الذكر" حيث الواو هي حرف القسم و القرآن ذي الذكر هو المقسم به مع اعتبار "ص" من الحروف المقطّعة.

أمّا عن صيغة القسم، فقد تُرجم حرف القسم "الواو" بـ "Par" و المقسم به "القرآن ذي الذكر" بـ le Coran, au renom glorieux

و معناه القرآن ذو الصيت الذائع و السمعة الممجّدة، و هذا يدلّ على شأنه الرفيع و مكانته العالية، و هو من المعاني التي ذكرناها سابقا في التفسير. و ما يلفتنا هو اللفظ الذي أضافه المترجم بين قوسين بعد ترجمة المقسم به: (dikr) و هو النطق الفرنسي للكلمة العربية (ذكر)، و قد أضاف المترجم في ترجمته هامشا لتفسير هذه الإضافة قال فيه: Dikr signifie également : ce qu'on doit se rappeler pour suivre le chemin droit.¹

و هذا تنويه للمعنى الآخر الذي تحمله كلمة "ذكر" من تذكير و دعوة إلى اتباع كلّ ما يهدينا إلى الصراط المستقيم.

ننتقل الآن إلى جواب القسم أو المقسم عليه في هذا المقام، و الجدير بالذكر أنه أثار جدلا واسعا بين مجموع العلماء فاختلّفوا في تحديده؛ إذ ذهب بعضهم إلى أنّ الجواب محذوف تقديره كلام يفهم من السياق أو يقاس بما ذكر في نظيره من السور؛ إذ يرى الزمخشري أنّ التقدير هنا هو "إنه لكلام معجز" و يستدلّ عليه بتقدّم حرف الصاد الذي يشير إلى الإعجاز، فيقول:

" ذكر اسم هذا الحرف من حروف المعجم على سبيل التحدي و التنبيه على الإعجاز كما مرّ في أوّل الكتاب، ثم أتبعه القسم محذوف الجواب لدلالة التحدي عليه كأنه قال: و القرآن ذي الذكر إنه لكلام معجز."²

¹ - محمد حميد الله، القرآن الكريم مع ترجمة معانيه إلى اللغة الفرنسية، ص453.

² - الزمخشري، الكشاف، ج3، ص359.

كما ذهب البعض الآخر إلى أنّ الجواب متقدّم على القسم دلّت عليه "ص"، و هو ما نستبعده لأنّه مخالف لبناء أسلوب القسم؛ فالأصل أن يتقدّم المقسم به و يمهدّ لتوكيد المقسم عليه و ليس العكس. و أيضا لتضارب الآراء حولها، فتارة يقال هي المقسم به و تارة هي المقسم عليه دون حجة دامغة، و لهذا نوّيد الرأي القائل بأنها من الحروف المقطّعة استؤنفت بها السورة.

و ذهب آخرون إلى أنّ الجواب هو آيات جاء ذكرها فيما بعد نحو قوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ﴾ (ص:14) أو قوله ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ (ص:64)، ولكن هذا الرأي لاقى انتقادا بسبب تأخر الجواب كثيرا عن القسم.

جاء في تفسير الفراء: "و ذلك كلام قد تأخر تأخرا كثيرا عن قوله (و القرآن) و جرت بينهما قصص مختلفة، فلا نجد ذلك مستقيما في العربية و الله أعلم."¹
و نحن أيضا نستبعد هذا الرأى للسبب نفسه.

أمّا ما نجده مقبولا و منطقيًا فهو ما ذكرنا سابقا من أنّ جواب القسم هو قوله تعالى: "بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَ شِقَاقٍ"، فهو أولى الآراء بالصواب لأنّ هذه الآية جاءت مباشرة بعد القسم مع استيفائها للمعنى الذي يتطلّبه السياق العام للقسم خصوصا و للسورة عموما، و هو التأكيد على تكذيب المشركين للرسالة و تمسّكهم بوثنيتهم و على معاداتهم للرسول صلى الله عليه و سلّم. و ما يزيد من قوّة هذا الرأى و صحّته هو استئناف جواب القسم بـ "بل" التي تنفي ما قبلها و تثبت ما بعدها. جاء في "البرهان في علوم القرآن" للزركشي: (بل: حرف إضراب عن الأول، و إثبات للثاني).²

و قد قيل بأنّ بل في تأكيدها لما بعدها كإنّ المشدّدة، و عليه قال النحويون بأنه يمكن أن يتلقّى بها القسم كما يتلقّى بإنّ. جاء في "التبيان في أقسام القرآن" لابن قيم الجوزية في نقل لصاحب النظم قوله:

¹ - الفراء، معاني القرآن، ج2، ص397.
² - الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ص1081.

"معنى (بل) توكيد الخبر الذي بعده فصار كـ (إن) الشديدة في تثبيت ما بعدها. و قيل ههنا بمنزلة (إن)، لأنه يؤكّد ما بعده من الخبر، و إن كان له معنى سواه في نفي خبر متقدّم، فكأنه -عزّ و جلّ- قال: ص و القرآن ذي الذكر، إنّ الذين كفروا في عزّة و شقاق".¹

و على اعتبار أنّ بل حرف نفي للأول و إثبات للثاني، فما الذي نفته و ما الذي أثبتته في هذا المقام؟

قيل إنّ الكلام المنفي محذوف و قدّر بما يقتضيه السياق العام. جاء في تفسير القرطبي عن القتبي:

"{ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ } ما الأمر كما يقولون من أنك ساحر كذاب ؛ لأنهم يعرفونك بالصدق والأمانة بل هم في تكبر عن قبول الحق".²

و قيل أيضا بأنّ في استئناف الجواب بـ"بل" التي تربط بينه و بين القسم دلالة على أنّ في الكلام نفيًا و إثباتًا، و معناها كما يقول الألويسي: ﴿ليس الذين كفروا إلّا في عزّة و شقاق﴾³، و هنا ننقل إلى أسلوب القصر الذي يُعدّ من أقوى أساليب التوكيد في اللغة العربية.

و مهما كان المعنى الأصحّ فالمهم عندنا أنّ "بل" تحمل معنى الإثبات و التوكيد و هو ما اعتدنا على تلقّي جواب القسم به، و هو ما يزيد من تمسّكنا بالرأي القائل بأنّ " بلّ الذين كفروا في عزّة و شقاق" هو فعلا جواب القسم لأنّه الأقرب إلينا من حيث التركيب و المعنى.

أمّا عن ترجمة "بل" في جواب القسم، فنلاحظ بأنّ المترجم أهملها و ابتدأ ترجمته مباشرة بالحديث عن الذين كفروا، و نحن نعزو ذلك إلى أنّ من معانيها الانتقال من حديث إلى حديث آخر، و هو ما ذهب إليه الزركشي في تفسير معناها في هذه الآية حيث قال:

" {ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ} بلّ الذين كفروا في عزّة و شقاق { ترك الكلام الأوّل، و أخذ بـ "بل" في كلام ثان".¹

¹ - ابن قيم الجوزية، التبيين في أقسام القرآن، ص32.

² - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج15، ص144.

³ - علي بن محمد بن عبد المحسن الحارثي، أسلوب القسم في القرآن الكريم- دراسة بلاغية، المجلد الثاني، ص 392.

و نحن نرى أنّ المترجم تبني هذا الرأي لعدم الخوض في مسائل النفي و الإثبات و تقدير الكلام و غيرها، و ارتأى عدم ترجمة "بل" لأنّ هذا لا يخل بمعنى الآية إضافة إلى أنّه يعبر عن أحد معانيها في العربية و هو الانتقال من كلام إلى كلام آخر.

و نختم تعليقنا كالعادة بمحاولة إيجاد المناسبة بين المقسم به و المقسم عليه، و هي هنا مشابهة لما تطرقنا إليه في سورة يس؛ حيث ورد القسم هنا بالقرآن موصوفاً بـ (ذي الذكر) على أنّ الكافرين في استكبار و ترفع عن الرسالة التي جاء بها الرسول صلى الله عليه و سلم و في شقاق و معاداة له.

و القرآن، كما نعلم، هو كلام الله المنزل على رسوله الكريم و المتضمّن لتعاليم دينه الحنيف و رسالته السامية، و هو أكبر دليل على صدق هذه الرسالة التي استكبر عنها هؤلاء الكفار. ثمّ إنّ القرآن وُصف بـ (ذي الذكر) دلالة على رفعة شأنه و اشتماله على كلّ ما ينفع العباد في الدين و الدنيا، و هذا دليل آخر على أنّه من عند الله و ليس كذبا و افتراءً كما يزعم المشركون، و لكن هؤلاء معرضون عنه استكباراً و جحوداً.

و من هنا تظهر لنا بوضوح علاقة التضاد التي تجمع بين المقسم به و المقسم عليه؛ فبقدر ما دلّت الآيات على تشريف المقسم به و إظهار رفعته و مكانته و بأنّه حقّ، بقدر ما نوّهت إلى أنّ المقسم عليه نقيضه في ذلك، حيث أظهرت تحقيراً للمشركين و موقفهم المعارض و بأنهم ما عرضوا عن الحقّ إلّا عزّة و تكبراً، و ما ينبغي لهم ذلك. فشتان بين ما يفضي إليه المقسم به من إيمان و بين ما يدلّ عليه المقسم عليه من جحود و استنكار.

¹ - الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ص1083.

سورة الزخرف:

قال الله تعالى: ﴿حَم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (3)﴾.

أركان القسم:

المقسم	حرف القسم	المقسم به	المقسم عليه
الله عز و جل	الواو	الكتاب المبين	إننا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون

التفسير:

اتَّفَقَ أَكْثَرُ الْمَفْسِّرِينَ عَلَى أَنَّ الْمَقْصُودَ بِـ{الكتاب المبين} هو القرآن، مع أن آخرين قالوا غير ذلك؛ فمنهم من رأى (أنَّ المراد به جميع الكتب المنزلة على الأنبياء، لأنَّ الكتاب اسم جنس، وقيل: هو اللوح المحفوظ، و قيل: المراد بالكتاب الكتابة و الخطّ، أقسم بها لكثرة منافعها).¹

و قد وُصِفَ الْكِتَابُ بِالْمُبِينِ، و معناه: البين الواضح الجلي المعاني و الألفاظ، لأنه نزل بلغة العرب التي هي أفصح اللغات للتخاطب بين الناس.² و قيل أيضا أي: المبين الذي أبان طرق الهدى من طرق الضلالة و أبان ما تحتاج إليه الأمة في أبواب الديانة.³ و اللفظ يحتمل كلا المعنيين لأنَّ هذا كلّه من صفات القرآن.

و أما قوله "إننا جعلناه" فقيل معناه: سميناه و وصفناه و قيل أنزلناه و قيل أيضا صيرناه وكذلك خلقناه⁴، و قيل غيره من المعاني ممّا يقارب المعاني السابقة.

و قوله {قرآنا عربيا} أي بلغة العرب و لسانهم، لأنَّ كل نبي أنزل كتابه بلسان قومه، و ذلك ليفهموه و يتدبروه. و قد بيّن حاله هنا لإظهار معنى الإرادة و الترجي: أي خلقناه عربيا غير عجمي إرادة أن تعقله العرب و لئلا يقولوا -لولا فصلت آياته-.⁵

¹ - علي بن محمد بن عبد المحسن الحارثي، أسلوب القسم في القرآن الكريم- دراسة بلاغية، المجلد الثاني، ص 435.

² - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج6، ص216.

³ -الزمخشري، الكشاف، ج3، ص477.

⁴ - انظر: تفسير ابن كثير، ج6، ص216/ تفسير القرطبي، ج6، ص61/ الكشاف، ج3، ص477.

⁵ - انظر المراجع نفسها، ص ن.

{لَعَلَّكُمْ تَعْقُلُونَ} أي تفهمون أحكامه ومعانيه. فعلى هذا القول يكون خاصا للعرب دون

العجم ؛ قال ابن عيسى. وقال ابن زيد : المعنى لعلمكم تتفكرون ؛ فعلى هذا يكون خطابا عاما للعرب والعجم. ونعت الكتاب بالمبين لأن الله بين فيه أحكامه وفرائضه¹، كما تقدّم بيانه.

الترجمة:

ترجمتها	الآية
1-H'a, Mim	حم (1)
2-Par le livre explicite!	وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2)
3-Nous en avons fait un Coran arabe afin que vous raisonnez.	إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقُلُونَ (3)

التحليل:

افتتحت هذه السورة بقوله تعالى {حم} و هي من الحروف المقطّعة التي سبق الحديث عنها فيما تقدّم من سورتي (يس) و (ص)، و قد قيل بأنّها قسم و {و الكتاب المبين} قسم ثان، كما قيل بأنّها جواب القسم تقدّم في هذا المقام كما في قولنا نزل و الله.²

و قد ذكرنا في ما سبق عن هذه الحروف أنّها ممّا استأثر الله بعلمه و لا يُعلم لها معنى مؤكّد، و لهذا نرى أنّ ترجمتها إلى الفرنسية جاءت بطريقة نطقها في العربية: H'a, Mim. أمّا قوله تعالى: {و الكتاب المبين} فلا ريب في أنّه قسم لاستيفائه عناصر القسم المطلوبة. جاء في الكشف: "أقسم بالكتاب المبين و هو القرآن و جعل قوله -إنا جعلناه قرآنا عربيا- جوابا للقسم".³

أي أنّ القسم ورد في هذا الموضع بلفظ "الكتاب" موصوفا بـ "المبين"، و الذي اتّفق مجموع العلماء و المفسّرين على أنّ المراد به هو القرآن الكريم، و هذا ما نراه أيضا صوابا

¹ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج16، ص61.

² - المرجع نفسه، ج16، ص61.

³ - الزمخشري، الكشف، ج3، ص477.

لما يحمله السياق من دلالات تشير إلى ذلك؛ إذ يأتي لفظ "القرآن" في الآية الموالية مسبقاً بالفعل "جعلناه" الذي يحتمل أن يكون الضمير المتصل فيه راجعاً على "الكتاب المبين"، و بهذا يكون "الكتاب المبين" و "القرآن العربي" لفظين دالّين على المعنى نفسه. إضافة إلى أنّ المعاني التي يحملها وصف "المبين" تنطبق على القرآن الكريم؛ فهو كتاب بيّن في نفسه مُبين لغيره من جميع الوجوه.

أمّا عن ترجمته، فالملاحظ أنّ حرف القسم "الواو" قد ترجم إلى الحرف "Par" كما في المواضيع السابقة. أمّا المقسم به "الكتاب المبين" فكانت ترجمته: "le livre explicite"، و هنا قد يتساءل السائل: إذا كان المراد بالكتاب المبين هو القرآن الكريم، و ذلك ما دلت عليه أكثر أقوال المفسرين، فلماذا أغفل المترجم ذلك و لم يترجم الكتاب المبين بالقرآن مباشرة علماً أنه يتقصد ترجمة المعاني لا الألفاظ؟؟ و للإجابة نقول إنه لم يغفل ذلك، بل إنه راعى الترتيب الذي ورد في الآية الأصل؛ فكما هو واضح، فلفظ الكتاب أعمّ و أشمل من القرآن، و عليه فهناك انتقال من الأعمّ إلى الأخصّ، و هو ما قام به المترجم لضمان التوازي بين الأصل والترجمة.

و قد وُفق المترجم في ترجمته هذه لأبعد الحدود. لنتأمل ترجمة الصفة "مبين" و ما حملته من معاني مقاربة لما يحمله اللفظ العربي، فكلمة " explicite " تعني: الواضح و الجليّ، الذي لا يمكن أن يتعرض لنقد أو طعن أو أخذ و ردّ. و كلّ هذه المعاني تدلّ على شدة وضوح هذا الكتاب بالنسبة للمخاطبين، كما تدلّ على كماله و خلوه من العيوب إذ لا يمكن لأحد مهما بلغ من مستوى رفيع من العلم و المعرفة أن يطعن فيه أو في مضمونه، و كيف ذلك و هو منزل من عند العليّ العظيم!؟

و الملاحظ أيضاً في الترجمة هو ورود علامة التعجب بعد صيغة القسم مع غياب أي معنى للتعجب في الآية الأصل، و هو ما لوحظ من قبل في مواضع سابقة، و الذي أرجعناه - و الله أعلم - إلى غياب فعل القسم. فالملاحظ هو ورود التعجب في كلّ الصيغ التي يغيب

فيها فعل القسم و ذلك مع جميع حروف القسم حتى التي لا تختص منها بزيادة معنى التعجب للقسم.

و ننقل إلى المقسم به في هذا الموضع و هو قوله تعالى: "إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ"، و الملاحظ فيه أنه زاخر بالمؤكّدات؛ إذ تتصدّره أنّ المشدّدة متّصلة بضمير العظمة في قوله {إنّا} و يتكرّر هذا الضمير في قوله {جعلناه} زيادة في التشديد و التأكيد. كما نزيد على ذلك ورود {لعلّ} و هي من أخوات {إنّ} و تفيد الترجي. و يجدر لفت الانتباه إلى أنّ معنى الترجي لا يدلّ قطعاً على أنّ الأمر المرجو غير متحقّق الوقوع، فما بالك إذا كان صادراً من عند الخالق، فإنّ تحقّقه واقع لا محالة. و الأمر هنا هو عقل المخاطبين و هم الكفار المتمسكون بكفرهم- للقرآن، فهذا تأكيد منه عزّ و جلّ على أنهم يعقلونه و يفهمونه و ذلك لأنه نزل بلغتهم {قرآنا عربيا}.

و قيل أيضاً بأنّ {لعلّ} قد تأتي بمعنى {لكي} و تكون مؤكدة لمضمون الجملة. يقول الرازي باعتبار ذلك:

"ففي الكلام على هذا النحو ما يشبه الضمان الشرطي، إذ كأنّ المعنى: إذا كنا قد جعلناه عربياً فقد عقلتموه".¹

أمّا الترجمة فجاءت على النحو الآتي:

Nous en avons fait un Coran arabe afin que vous raisonnez

و الملاحظ غياب المؤكّدات في هذه الترجمة رغم ما أشرنا إليه من ورودها في الآية، ما عدا ضمير العظمة الذي عبّر عنه بضمير المتكلمين

.(La première personne du pluriel)

إضافة إلى ترجمة {لعلّ} بـ: "afin que" التي تفيد التعبير عن الغاية في اللغة الفرنسية (l'expression du but). فكأن المترجم جعل لخلق القرآن باللسان العربي غايةً و هي أن

¹ - الرازي، مفاتيح الغيب، ج27، ص239.

يعقله المشركون. و نفسّر هذا بما ذكرنا آنفا عن دلالات {لعل} و بأنها تأتي أحيانا بمعنى {لكي}.

أمّا الفعل {جعل} الذي رأينا أنه يحتمل عدّة معانٍ في العربية فقد ترجمه المترجم بالفعل الفرنسي {faire} الذي يحمل القدر نفسه من الشمولية و العمومية في الفرنسية، فهو الآخر يحتمل معانٍ عدّة تتغير بتغيّر سياق الكلام.

و عن ضمير الغائب في قوله {جعلناه} فقد ترجم بالضمير الفرنسي {en} الذي يفهم من سياق الترجمة الفرنسية أنه يعود على ما قبله، أي على المقسم به {الكتاب المبين} في حين أنه يعود في الأصل العربي على القرآن. و لا ضير في ذلك لأنّ المقصود من التعبيرين واحد، فقد فسّر أحدهما بالآخر، و هذا يقودنا إلى إيجاد المناسبة بينهما.

فالعلاقة بين المقسم به و المقسم عليه هنا علاقة وطيدة متناسبة تبلغ بهما حدّ الاتحاد، فهما من واد واحد؛ إذ أقسم سبحانه و تعالى بالكتاب المبين و هو القرآن العظيم على تعظيم هذا القرآن و جعله عربيا رجاء أن يعقله المتفكّرون و يفهموا بديع آياته، و في كلّ هذا تعظيم وتشريف للقرآن الكريم.

و من هنا تظهر لنا قيمة اتحاد المقسم به و المقسم عليه في تأكيد ما يرمي القسم إلى إثباته، و هو عظمة القرآن في مواجهة مواقف من لم يؤمنوا به؛ إذ أن المقسم به يمهد للمقسم عليه، و المقسم عليه يؤكّد ما جاء في المقسم به من صفات و كلاهما يدلان على المضمون نفسه الذي اتفقا في الدلالة عليه.

سورة ق:

قال الله تعالى: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (1) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (2)﴾.

أركان القسم:

المقسم	حرف القسم	المقسم به	المقسم عليه
الله عز و جل	الواو	القرآن المجيد	بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب

التفسير:

استؤنفت هذه السورة أيضا بحرف من الحروف المقطعة التي سبقت الإشارة إليها في السور (يس) و (ص) و (الزخرف)، و قد اختلف المفسرون في تفسير معناه على غرار المواضع السابقة فقالوا:

ق هو جبل محيط بجميع الأرض يقال له جبل قاف (...) و قيل المراد قضي الأمر والله.¹

و لكن التفسير الأول اعتبر ضعيفا من طرف الكثير من المفسرين على غرار ابن كثير والرازي لعدة وجوه.

وقال ابن عباس : {ق} اسم من أسماء الله تعالى أقسم به. وعنه أيضا : أنه اسم من أسماء القرآن.²

و فسّر القرطبي قوله تعالى: {و القرآن المجيد} بقوله: أي الرفيع القدر³ في حين قال ابن كثير إنه يعني: الكريم العظيم⁴. أمّا الرازي فذهب إلى بيان وجه العظمة و الكرم بقوله:

1 - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج6، صص395-396.

2 - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج17، ص2.

3 - المرجع نفسه، (ص ن).

4 - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج6، ص396.

أما قولنا (المجيد) هو العظيم، لأنّ القرآن عظيم الفائدة، و لأنّه ذكر الله العظيم، و ذكر العظيم عظيم (...). و أما على قولنا (المجيد) هو كثير الكرم فالقرآن كريم كلّ من طلب منه مقصوده وجده، و إنّهُ مغن كل من لاذ به، و إغناء المحتاج غاية الكرم.¹

أما الزمخشري ففسّره بقوله:

المجيد ذو المجد و الشرف على غيره من الكتب و من أحاط علما بمعانيه و عمل بما فيه مجد عند الله و عند الناس و هو بسبب من الله المجيد فجاز اتصافه بصفته.²
و أما قوله: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ فالكلام عن الكفار و فيه (إنكار لتعجبهم مما ليس بعجب).³

و يزيد القرطبي على هذا فيقول:

﴿هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ العجيب الأمر الذي يتعجب منه ، وكذلك العجاب بالضم ، والعجاب بالتشديد أكثر منه ، وكذلك الأعجوبة. وقال قتادة : عجبتهم أن دُعوا إلى إله واحد. وقيل : من إنذارهم بالبعث والنشور.⁴

الترجمة:

الآية	ترجمتها
ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (1) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (2)	1- Qaf. Par le Coran glorieux ! 2- Mais ils s'étonnent que l'un des leurs leur vint comme avertisseur ; et les mécréants dirent : « Ceci est une chose étonnante ».

التحليل:

ذكرنا أنّ {ق} حرف من الحروف المقطّعة التي يجيء ذكرها في أوائل السور نحو: يس و ص و حم و غيرها، كما قلنا بأنّ المفسّرين اختلفوا في تحديد معناها، مع غياب دليل قاطع

1 - الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ج28، ص148.

2 - الزمخشري، الكشاف، ج4، ص3.

3 - المرجع نفسه، (ص ن).

4 - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج17، ص4.

على صحّة أي من تفسيراتهم. و الوجه الأقرب إلينا هو قول بعضهم بأنّها حروف تشير إلى إعجاز القرآن عن طريق التحدي بنظمه، و أنّ الله قد استأثر بعلم معناها.

و نجد أنّ هذا ما اعتمده الدكتور حميد الله في ترجمته لهذا الحرف على غرار المواضع

السابقة فقال: Qaf.

أما صيغة القسم في هذا الموضع فجاءت بالقسم بالقرآن موصوفاً بالمجيد. و للتذكير فقد جاء القسم بالقرآن في غير هذا الموضع موصوفاً بالحكيم في سورة (يس)، و موصوفاً بذي الذكر في سورة (ص)، و بين هذه المواضع كلّها تشابه في التركيب و السياق العام الذي وردت فيه؛ فإضافة إلى أنّها استؤنفت بالحروف المقطعة و جاء القسم فيها بالقرآن، فقد وردت في سياق إثبات الرسالة و بيان إعراض الكافرين عنها. و قد أشار بعض المفسرين إلى أوجه التشابه هذه و بالأخص بين (ق) و (ص) - و هو ما سيأتي بيانه لاحقاً-، و من بينهم الزمخشري الذي قال:

"الكلام في {ق} و القرآن المجيد بل عجبوا {نحوه في {ص} و القرآن ذي الذكر بل الذين كفروا} سواء بسواء لالتقائهما في أسلوب واحد".¹

كما لاحظ الرازي بعض أوجه التماثل بينهما في قوله:

"هذه السورة و سورة (ص) تشتركان في افتتاح أولهما بالحروف (...). و القسم بالقرآن، و قوله (بل)، و التعجب، و يشتركان في شيء آخر، و هو أنّ أول السورتين و آخرهما متناسبان".²

إنّ فقد أقسم الله تعالى في هذا الموضع بالقرآن المجيد مع التنبيه إلى ما يحمله هذا الوصف من معاني العظمة و الجلال و الشرف و العلو و الكرم، و قد جاءت ترجمته إلى

الفرنسية بقوله: Par le Coran glorieux !

¹ - الزمخشري، الكشاف، ج4، ص3.

² - الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ج28، ص145.

و معناه أنّ حرف القسم "الواو" قد ترجم -كما ألفناه- إلى الحرف الفرنسي Par، و أنّ وصف المجيد قد ترجم إلى الصفة (l'adjectif): glorieux التي تحمل من معاني الشرف والمجد ما يعبر عن المعنى المراد هنا.

و لكن ما يلفتنا هو أنّ المترجم استعمل الصفة الفرنسية ذاتها لترجمة قوله {ذي الذكر} في سورة (ص) حيث قال:

و القرآن ذي الذكر ← Par le Coran, au renom glorieux

حيث نسب المجد في سورة (ص) إلى اللفظ {renom} الذي يعني السمعة أو الصيت، في حين نسبه في هذا الموضع إلى القرآن. و في كلا الموضعين دلّت الصفة على مكانة القرآن و رفعة شأنه، و هو ما اتفق العلماء على كونه الغرض من كلا القسمين. كما نفسر ذلك أيضا بمدى التماثل بين القسم في الموضعين و هو ما أشرنا إليه سابقا.

ننتقل الآن إلى المقسم عليه (جواب القسم) الذي اختلف العلماء في تحديده تماما مثلما اختلفوا في ذلك في قسم سورة (ص)، و ذلك لوجه الشبه بينهما في التركيب و النسق، و مما ذهبوا إليه:

- الجواب محذوف و مقدر دلّ عليه السياق، و ممن قال بهذا الرأي الأخفش و كذلك الفراء إذ جاء في تفسيره: (... و لكن معناه مضمر، إنّما كان -و الله أعلم:- "ق و القرآن المجيد لتبعثنّ بعد الموت)¹ و استدلّ على ذلك بالآية الثالثة من السورة في قوله " إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا " .

كما قال ابن القيم بأن المقسم عليه هنا محذوف لأنّ المقسم به يدلّ عليه، جاء في "التبيان في أقسام القرآن": و ههنا قد اتحد المقسم به و المقسم عليه و هو القرآن، فأقسم بالقرآن على ثبوته و صدقه، و أنّه حقّ من عنده. و لذلك حذف الجواب و لم يصرّح به، و لما في القسم من الدلالة عليه، أو لأنّ المقصود نفس المقسم به كما تقدّم بيانه.²

¹ - الفراء، معاني القرآن، ج3، ص75.
² - ابن قيم الجوزية، التبيان في أقسام القرآن، ص355.

- الجواب مذكور قبل القسم، و هو قوله {ق} التي تعني قُضي الأمر و الله (و جاء مُقدِّمًا على القسم لدلالته الإعجازية، و هذا قول الرازي)¹. و هذا الرأي نراه ضعيفا لوجهين أولهما أنّ التفسير الذي يقول بأنّ {ق} تعني قضي الأمر تفسير ضعيف بحدّ ذاته لا يقوم على أساس متين، و ثانيهما أنّ تقدّم الجواب على القسم -كما ذكرنا في سورة (ص)- تركيب يخالف أسلوب القسم؛ فالأصل فيه تقدّم القسم.

- الجواب هو آيات جاء ذكرها فيما بعد، و قد جاء في تفسير القرطبي نقل لبعض منها في قوله:

وجواب القسم قيل هو : {قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ} على إرادة اللام ؛ أي لقد علمنا. وقيل : هو {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى} وهو اختيار الترمذي (...). وقال ابن كيسان : جوابه {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ}. وقال أهل الكوفة : جواب هذا القسم {بَلْ عَجِبُوا}².

و المأخوذ على بعض هذه الآراء أنّ الآيات تأخرت كثيرا عن موضع القسم؛ فقوله: {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ} جاء في الآية 18 من السورة في حين أنّ قوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى} جاء في أواخر السورة تحديدا في الآية 37.

و نحن في هذا من مؤيدي أهل الكوفة في القول بأنّ الجواب هو قوله {بَلْ عَجِبُوا}، وذلك لقربه من القسم و علاقته الوثيقة به -كما سيأتي بيانه- و قد عهدنا في المواضع السابقة من البحث ورود جواب القسم بعد القسم مباشرة، و لأنّ هذا الجواب أيضا لا يعاني علة تمنع أن يكون جوابا للقسم لا في التركيب و لا في المضمون، ثمّ إنه الأولى بالصواب لأنّه لا يحتاج إلى تقدير على خلاف الآراء الأخرى.

وقد استؤنف هذا الجواب بالحرف (بل) الذي يفيد في بعض الأحيان التوكيد و يقوم في ذلك مقام (إنّ) و هو بالضبط ما يفيد في هذا الموضع، إذ أنّه جاء هنا لتأكيد مدى تعجب الكافرين من كون الرسول صلى الله عليه و سلّم منذرا منهم و هو ما يدلّ على إنكارهم

¹ - أحمد مصطفى متولي، الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم و السنة النبوية، دار ابن الجوزي- القاهرة، ط1، 1426هـ/ 2005م، ص658.

² - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج17، ص3.

الشديد لذلك. و بهذا يكون هذا الجواب قد اتّسم بالسمة العامة في تركيب جواب القسم في القرآن الكريم و هي كونه مشتملا في أكثر المواضع على عناصر التأكيد.

إضافة إلى استئناف الجواب بـ (بل) فإنّ عناصر التركيب هنا جاءت لتأكيد تعجب الكفار و إنكارهم لرسالة محمد صلى الله عليه و سلم. و أول عنصر من هذه العناصر هو التعبير عن هؤلاء الكافرين بالإضمار قبل الذكر في قوله: {بل عجبوا} و تقديمه على قوله {فقال الكافرون}، فكان هذا كالتفسير بعد الإبهام. ثم استعمال الفعل "عجبوا" للتعبير عن مشاعر المتحدث عنهم، ففي التعجب إشارة إلى أنّ الشيء المتعجب منه خارج عن العادة و يأتي بعده تنبيه إلى أنّ لاشيء يدعو في حالتهم هذه إلى العجب، و يعبر عن ذلك بقوله {منهم}، فالعادة أنه إذا كان النذير منهم كان قبوله أسهل و تصديقه أسرع، و لكنهم على العكس من ذلك عجبوا منه و كذبوه. ثم نلاحظ تأكيدا على تعجبهم هذا بقولهم {هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ}.

إنّ فقد جاءت هذه التراكيب و التعابير لتنتقل لنا المعنى المراد بأدقّ تفاصيله و تبين لنا أنّ الإنكار و التعجب الذي أبداه الكفار ما هو إلاّ حسد و استكبار لأنهم في قرارة أنفسهم يعلمون أنّه الحقّ.

و برجعنا إلى الترجمة المعتمدة لجواب القسم هنا، نجد أنّ الحرف (بل) -الذي ذكرنا أنّه يفيد التوكيد هنا- قد ترجم إلى الحرف (Mais) الذي يعبر عن التناقض (l'opposition) في اللغة الفرنسية، فكأنّ المترجم عبّر عن وجود تناقض أو معارضة بين القسم و جوابه في حين أنّ هذا ليس المقصود من الآيات، إذ جاء القسم لتأكيد المقسم عليه دون ذكر أيّ تناقض بين الاثنين، و هو ما بيّناه سابقا. فكان الأولى أن يستعمل المترجم إحدى أدوات التوكيد نحو (certes أو assurément...) مكان (Mais) أو يستغني عن ذكرها نهائيا -كما فعل في ترجمته للقسم في سورة (ص)- لأنّ هذا لن يخلّ بالمعنى العام لتكون الترجمة:

1- Qaf. Par le Coran glorieux ! 2 - Ils s'étonnent que l'un des leurs leur vint comme avertisseur ; et les mécréants dirent : « Ceci est une chose étonnante ».

و خلاصة القول أنّ القسم في هذا الموضع قد ورد منه سبحانه و تعالى حيث أقسم بالقرآن موصوفاً بالمجيد على أنّ الكافرين في تعجب غريب من رسالة سيّد الخلق إليهم و أنهم في استكبار عنها، و هذا يبيّن وجه العلاقة بين عنصرى القسم هنا: فمن جهة ينقل لنا المقسم به من معاني المجد و علوّ المكانة و رفعة الشأن ما يثبت صدق ما جاء فيه و صدق المنذر الذي أنزل عليه، و من جهة أخرى يصف لنا المقسم عليه مدى حسد الكافرين و تكبرهم عن هذا المنذر و تعجبهم من رسالته مع ما يظهر لهم من صدق القرآن و بآنه حقّ و هو الكفيل بدفع إنكارهم و إبطال عجبهم.

إنّ فالعلاقة بين المقسم به و المقسم عليه في هذا الموضع تماثل العلاقة بينهما في قسم سورة (ص). و بهذا يظهر وجه الشبه الكبير بين الموضعين؛ فكلّ منهما صدر سورته واستؤنف بالحروف المقطّعة، و ورد القسم فيه بلفظ (القرآن) موصوفاً بما يدلّ على رفعة و شأنه، كما استؤنف جوابه بالحرف (بل) الذي يفيد التوكيد إضافة إلى ما ذكرنا من شبه في العلاقة بين عنصرى القسم، فكلّ هذا يظهر أنّ الموضعين متماثلان في التركيب و في المعنى.

كانت هذه النماذج الأربعة لصيغ القسم بأسماء القرآن الكريم، و ننتقل بعدها إلى آخر فصل في الدراسة التطبيقية، ألا و هو القسم بالمخلوقات.

الفصل الثالث:
الفصل الثالث:
القسم بالمخلوقات
القسم بالمخلوقات

سورة الحجر:

قال الله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (72).

أركان القسم:

المقسم	المقسم له	المقسم به	المقسم عليه
الله عزّ و جلّ	الرسول صلى الله عليه و سلم	عُمر الرسول صلى الله عليه و سلم	إنّهم لفي سكرتهم يعمهون

التفسير:

المقسم به هنا هو عمر الرسول صلى الله عليه و سلم "لعمرك"؛ والعمر والعمر (بضم العين وفتحها) لغتان معناهما واحد إلا أنّهم خصّوا القسم بالمفتوح لإثبات الأخرى، لكثرة دوران الحلف على أسنتهم.¹

و معنى العمر، كما قال المفسّرون،: و حياتك، و بقائك في الدنيا، و عيشك، و قيل معناه أيضا و حقك على أمّتك لأنّ العرب تقول: لعمر الله أي و حقّ الله. و المشهور في العمر أنه مدّة عمارة بدن الإنسان بالحياة و الروح.²

أمّا الأمر المقسم عليه أو جواب القسم فهو قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾. و السكرة -كما فسرها الشعراوي- هي التخدير العقلية التي تحدث لمن يختل إدراكهم.³ و قد أُطلقت هنا -كما قال ابن عاشور- على الضلال تشبيها لغلبة دواعي الهوى على دواعي الرشاد بذهاب العقل و غشيبته.⁴

و قال فيها المفسرون أيضا: (في سكرتهم) أي في ضلالتهم، و قيل: أي غوايتهم التي أذهبت عقولهم و تمييزهم بين الخطأ الذي هم عليه و بين الصواب.⁵

أمّا "يعمهون" فمعناه يترددون و يتحيرون و يضطربون.⁶

1 - ابن قيم الجوزية، التبيين في أقسام القرآن، ص 358.

2 - علي بن محمد بن عبد المحسن الحارثي، أسلوب القسم في القرآن الكريم- دراسة بلاغية، المجلد الثاني، ص 468.

3 - الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، ج13، ص7743.

4 - علي بن محمد بن عبد المحسن الحارثي، أسلوب القسم في القرآن الكريم- دراسة بلاغية، المجلد الثاني، ص 469.

5 - انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج4، ص168/ الزمخشري، الكشاف، ج2، ص396.

6 - انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج4، ص168/ الزمخشري، الكشاف، ج2، ص396/ الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، ج13، ص7743.

و العَمَّةُ هو انطماس البصيرة، الذي ينجم عنه السير بتخبُّط على غير هدى.¹

الترجمة:

ترجمتها ²	الآية
72- Par ta vie ! ils se confondaient dans leur délire.	لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (72)

التحليل:

يرد هذا القسم في سياق ما جاء من قصة سيدنا لوط عليه السلام في سورة الحجر، حين جاء الملائكة لإهلاك قومه: ﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ* وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ لَا تَخْزُونِ* قَالُوا أَوْ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ* قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ* لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ* فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ﴾ (الحجر: 67-73)

و قد أجمع جمهور المفسرين على أنّ هذا القسم صادر من الله عزّ و جلّ يخاطب به نبيّه محمداً صلى الله عليه و سلّم، كما أجمعوا كذلك على أنّ الغرض منه هو تكريمه و بيان ارتفاع شأنه و منزلته. يقول ابن كثير:

"أقسم تعالى بحياة نبيّه صلوات الله و سلامه عليه، و في هذا تشریف عظيم و مقام رفيع و جاه عريض".³

ثمّ يضيف على ذلك ما قال عمرو بن مالك النكري عن أبي الجوزاء عن ابن عباس:
"ما خلق الله و ما ذرأ و ما برأ نفساً أكرم عليه من محمد صلى الله عليه و سلّم، و ما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره".⁴

¹ - عبد الرحمن حسن حبيكة الميداني، قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز و جل، دار القلم، دمشق- سوريا، ط4، 2009، ص475.

² - محمد حميد الله، القرآن الكريم مع ترجمة معانيه إلى اللغة الفرنسية، ص266.

³ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج4، ص168.

⁴ - المرجع نفسه، (ص ن).

و يقول الزجاج: "هذه الآية آية عظيمة في تفضيل النبي عليه السلام ... جاء في التفسير أنه قسم بحياة محمد صلى الله عليه و سلم، كذلك أكثر التفسير".¹

كما يروي القرطبي في تفسيره قول القاضي أبي بكر بن العربي:

"قال المفسرون بأجمعهم أقسم الله تعالى ها هنا بحياة محمد (صلى الله عليه وسلم)
تشريفا له أن قومه من قريش في سكرتهم يعمهون وفي حيرتهم يترددون".²

كما يقول ابن قيم الجوزية:

"أكثر المفسرين من السلف و الخلف -بل لا يعرف عن السلف فيه نزاعا، أن هذا قسم من الله بحياة رسوله صلى الله عليه و سلم و هذا من أعظم فضائله أن يقسم الرب عز و جل بحياته. و هذه مزية لا تُعرف لغيره".³

و الشيخ الشعراوي رحمه الله لا يخرج عما ذكرَ سابقا، إذ يقول هو الآخر في تفسيره لهذه الآية:

"و من هذا القول الكريم الذي يحدث به الحق سبحانه رسوله استدلل أهل الإشراق و المعرفة أن الحق قد كرم سيدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم (...). فسبحانه يقسم بحياة رسوله".⁴

إن فقد كانت هذه بعض أقوال المفسرين المتقدمين و المعاصرين في هذه القضية، و لكن يجدر بنا التنويه إلى أن الزمخشري خالف ما أجمعوا عليه و فسّر الآية من منظور آخر، فهو يرى أن الخطاب في هذه الآية صادر من الملائكة و موجّه إلى سيدنا لوط عليه السلام، ويستدلّ على ذلك بالسياق الذي وردت فيه الآية. يقول ابن القيم:

¹ - علي بن محمد بن عبد المحسن الحارثي، أسلوب القسم في القرآن الكريم- دراسة بلاغية، المجلد الثاني، ص 465.

² - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج10، ص39.

³ - ابن قيم الجوزية، التبيين في أقسام القرآن، ص 358.

⁴ - الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، ج13، ص7742.

" و لم يوافق الزمخشري على ذلك، فصرف القسم إلى أنه بحياة لوط و أنه من قول الملائكة، فقال: هو على إرادة القول، أي: قالت الملائكة للوط - عليه الصلاة و السلام -: لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون".¹

و مع أن القاضي ابن العربي قد نقل رأي جمهور المفسرين إلا أنه لا يرى مانعا من تفسير الآية على الشاكلة التي فهمها الزمخشري، فيقول معقبا:

"ما الذي يمنع أن يقسم الله سبحانه وتعالى بحياة لوط ويبلغ به من التشريف ما شاء الله، وكل ما يعطيه الله تعالى للوط من فضل يؤتى ضعفيه من شرف لمحمد (صلى الله عليه وسلم) لأنه أكرم على الله منه. أو لا ترى أنه سبحانه أعطى إبراهيم الخلة وموسى التكليم وأعطى ذلك لمحمد، فإذا أقسم بحياة لوط فحياة محمد أرفع، و لا يخرج من كلام إلى كلام لم يجز له ذكرٌ لغير ضرورة".²

و يستحسن القرطبي كلامه و يرى أنه تفسير جائز فيقول:

"ما قاله حسن فإنه كان يكون قسمه سبحانه بحياة محمد (صلى الله عليه وسلم) كلاما معترضا في قصة لوط".³

و منه يتضح لنا أن بعض المفسرين أوردوا احتمال أن يكون القسم هنا بحياة سيدنا لوط عليه السلام و استدلوا على ذلك بالسياق الذي ورد فيه، و لذلك استبعدوا نقل الكلام إلى سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم في منتصف قصة قوم لوط دون داعٍ أو ضرورة. و مع ذلك، فنحن لن نخرج عما اتفق عليه الجمهور من أن الخطاب موجّه لرسولنا عليه الصلاة و السلام.

كما اختلفوا كذلك في تحديد المُتحدّث عنهم هنا؛ فمنهم من قال بأنهم قوم لوط و منهم من قال بأنهم قريش قوم الرسول صلى الله عليه و سلم، و هذا الخلاف عائد في أصله إلى

¹ - ابن قيم الجوزية، التبيين في أقسام القرآن، ص358.

² - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج10، ص40.

³ - المرجع نفسه، (ص ن).

الخلاف الأول عن كون القسم هنا بعمر سيدنا لوط أو سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم. و لكن بالرغم من هذا الخلاف، و جب التنبيه إلى أنّ القومين يجمعهما وجه شبه يتمثل في انغماسهم في الضلال و مخالفتهم للرسل المبعوثين إليهم.

إذن فالمقسم به هنا ورد بصيغة "لعمرك"، و قد جرت العادة عند العرب قبل مجيء الإسلام على القسم بالعمر مقترنا بحرف اللام فقالوا: لعمري و لعمرك و لعمر أبيك... و معلوم أنّ اللام من حروف القسم، لكنها قليلة الاستعمال و لا تقترن إلّا بلفظ الجلالة؛ فيقال: لله. و من معانيها الدلالة على التعجب إلى جانب القسم.

و قد ترجم الدكتور حميد الله المُقسم به بقوله: Par ta vie، أي أنه يتركب من الحرف (la préposition): par و من الكلمة vie مضافة إلى ضمير المخاطب ta ليكون المعنى: حياتك أو عمرك.

و بالمقابلة بين الأصل و الترجمة، نجد أنّ حرف اللام تُرجم إلى الحرف الفرنسي par، وللتذكير فحروف القسم على اختلافها في الأمثلة السابقة دون استثناء قد ترجمت إلى هذا الحرف.

و لم يضيف المترجم أيّ إضافات أو هوامش تبيّن شخص المقسم به و ذلك لتفادي الاختلافات التي ذهب إليها المفسرون، بل ترك ترجمته عامة بإسناد العمر إلى ضمير المخاطب دون تحديد.

و نلاحظ أيضا وجود علامة تعجب بعد المقسم به، و نرجع ذلك ربّما إلى الرغبة في الإشارة إلى دلالة التعجب التي تعبّر عنها اللام في اللغة العربية.

أمّا جواب القسم، فكانت ترجمته: ils se confondaient dans leur délire. و التي لا نلاحظ فيها وجوداً لأيّ مؤكّدات على عكس الأصل العربي؛ فقد ضمّت الآية الكريمة بعضا من أقوى أساليب التأكيد و الترسيخ في اللغة العربية. فبالإضافة إلى قسم الله بعمر رسوله، و الذي يعدّ غاية في التوكيد، نجد جواب القسم مؤكّدا بيانّ و اللام، فضلا عن التعبير عن جهل

هؤلاء القوم و ضلالهم بلفظ "السكره" التي تعني زهاب العقل كلّه، و إضافة هذه السكره إليهم ممّا يشير إلى تفرّدهم بنوع منها لا يشاركون فيه أحد، أي أنهم قد بلغوا من الضلال مبلغاً لا يبلغه أحد غيرهم. كما لا ننسى وصف حالهم بالفعل "يعمّهون" و تصريف هذا الفعل في الزمن المضارع للدلالة على التجدد و الاستمرار، في حين أنّ الفعل الفرنسي قد صُرّف في زمن (l'imparfait) الذي يدلّ على الماضي.

و اجتماع أساليب التوكيد هذه هنا إنما هو زيادة في لفت الانتباه إلى مدى قبح و دناءة فعل الكفار و التنبيه إلى الحد الذي بلغوه من الضلال و البعد عن الصواب، و في ذلك كلّه زيادة في تشريف النبي و تكريمه.

و كلّ هذا يقودنا إلى بيان وجه المناسبة بين المقسم به و المقسم عليه. و نبتدأ أولاً بالتذكير بغرض القسم في هذا الموضع، و هو كما ذكرنا سابقاً لتكريم الرسول و تشريفه.

و قد خصّص عبد الرحمن الميداني في كتابه "قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزّ و جلّ" جزء تحدّث فيه عن القسم القرآني و أورد فيه بعض أغراضه، و قد قال في أحد هذه الأغراض:

"بيان ارتفاع منزلة المُقسّم به عند المُقسّم، إشعاراً بأنّه حبيب لديه، أو أثير عنده، أو ذو مكانة رفيعة و منزلة عالية بين خاصّته و المقربين إليه. و يُلحق بهذا إرادة الثناء على المُقسّم به بأسلوب القسم به.

و يظهر هذا الغرض في إقسام الله عزّ و جلّ برسوله محمد صلى الله عليه و سلّم، إذ خاطبه بقوله: {لعمرك} ¹.

و في كتاب "التبيان في أقسام القرآن"، علّ ابن قيم الجوزية ورود القسم بعمر الرسول صلى الله عليه و سلم بأنّه:

¹ - عبد الرحمن حسن حبكة الميداني، قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزّ و جلّ، ص 475.

"عمر شريف عظيم أهل أن يقسم به، لمزيبته على كل عمر من أعمار بني آدم. و لا ريب أن عمره و حياته صلى الله عليه و سلم من أعظم النعم و الآيات فهو أهل أن يقسم به. و القسم به أولى من القسم بغيره من المخلوقات".¹

و على هذا، فإن الله عزّ و جلّ يقسم بعمر رسوله الكريم عظيم الشأن رفيع المقام على أن قومه في سكرتهم يعمهون، و في هذا تعريض بموقف هؤلاء الكافرين. فكأنه يقول: إن قومك يجابهونك بالتكذيب و الاستهزاء و هم بصنيعهم هذا في سكرة لا يدرون معها من الذي يؤذون و على من يجترؤون و أي جرم يقترفون!

و من هنا فإن قيمة القسم بعمر الرسول لا تنحصر في تشريفه و بيان عظمة منزلته فقط بل تتعداه إلى إظهار انحطاط قومه الذين أمعنوا في إيدائه و الإشارة إلى فداحة فعلهم و دناءته.

و عليه فالمناسبة بين طرفي القسم هنا تقوم على التضاد. فالمقسم به يدلّ على الرقة و التشريف و الخلق الكريم بينما يعبر المقسم عليه عن الانحطاط و الحقارة و الخلق الدنيء. و يمكن أن نفهم كذلك من هذه المناسبة أنها دعوة إلى التأسّي بأخلاق سيّد الخلق عليه السلام و إلى الاقتداء بخصاله الحميدة التي تزين أعمارنا و تسمو بنا إلى أعلى الدرجات.

سورة الشعراء:

قال الله تعالى: ﴿فَأَلْقُوا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (44)﴾.

أركان القسم:

المقسم	حرف القسم	المقسم به	المقسم عليه
السحرة	الباء	عزّة فرعون	إنّا نحن الغالبون

¹ - ابن قيم الجوزية، التبيان في أقسام القرآن، ص 358.

التفسير:

فسر المفسرون ورود هذا القسم في القرآن الكريم بأنه لفت إلى صورة من صور القسم في الجاهلية، و هو القسم بغير الله، و في ذلك زيادة في التأكيد على النهي عنه لأنه جاء مُسنداً إلى غير المؤمنين (السحرة قبل إيمانهم).

يقول الزمخشري: "أقسموا بعزّة فرعون و هي من أيمان الجاهلية، و هكذا كلّ حلف بغير الله".¹

إذن فالمقسم به هنا هو "عزّة فرعون"، و العزّة تعني عدم القهر و عدم الغلبة²، كما تعني القوة و شدة السلطان و العظمة. و قد أقسم بها السحرة تعظيماً لفرعون و تبجيلاً له لأنهم كانوا يعبدونه؛ فهو في نظرهم شديد القوة و السلطان لا يقدر أحد أن يغلبه أو يقهره.

الترجمة:

ترجمتها ³	الآية
44- Ils jetèrent donc leurs cordes et leurs bâtons et dirent : « Par la puissance de Pharaon ! ... C'est nous qui serons les vainqueurs ».	فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْعَالِبُونَ (44)

التحليل:

ذكرنا فيما تقدّم من البحث القسم الوارد في سورة طه - الآية 72، و قلنا بأنه قد ورد في سياق قصة سيدنا موسى عليه السلام و مواجهته مع سحرة فرعون، و هو قسم صادر من هؤلاء السحرة لفرعون ذاته بعد ما تبين لهم من الهدى و الحقّ اعترافاً منهم بإيمانهم. و

¹ - الزمخشري، الكشاف، ج3، ص 112.

² - الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، ج17، ص 10567.

³ - محمد حميد الله، القرآن الكريم مع ترجمة معانيه إلى اللغة الفرنسية، ص369.

هاهو موضع آخر في القرآن الكريم يذكر قسماً آخر صادراً من السحرة أنفسهم و لكن قبل أن يؤمنوا و يعلنوا إيمانهم.

و قد جاء القسم في هذه الآية على لسان السحرة عند مواجهتهم مع سيّدنا موسى عليه السلام، و هو قسم بعزة فرعون. و يجدر الإشارة إلى أنه لم يرد في القرآن الكريم قسم بغير الله على لسان الخلق في غير هذا الموضع؛ فكلّ قسم بغير الله جاء مُسنداً إليه سبحانه و تعالى، ذلك أنّ الله وحده له أن يُقسم بما شاء على ما شاء، أمّا الخلق فلا يقسمون إلّا بالخالق سبحانه أو بأسمائه أو صفاته، فقد نهانا الإسلام عن القسم بغير الله تعالى.

قال رسول الله صلى الله عليه و سلّم: "من حلف بغير الله فقد كفر".¹

و قال أيضا: "لا تحلفوا بأبائكم و لا بأمهاتكم و لا بالطواغيت، و لا تحلفوا إلّا بالله، و لا تحلفوا إلّا و أنتم صادقون".²

و كما رأينا في الجزء المتعلّق بأركان القسم، فإنّ حرف القسم المستعمل في هذا الموضع هو الباء، و قد تُرجم هذا الحرف على غرار الحروف في المواضع السابقة بالحرف الفرنسي Par. أمّا المقسم به (عزة فرعون) فتُرجم باللفظ الفرنسي la puissance الذي يعني القوة أو القدرة مضافا إلى فرعون (de Pharaon).

و ما يلفت الانتباه هو علامة التعجّب الموجودة بعد ترجمة صيغة القسم مع غياب أيّ تعبير عن التعجّب في الصيغة الأصل، و قد لفتتنا علامة التعجّب في أكثر من موضع قبل الآن؛ مثل الآية 23 من سورة الأنعام و الآية 72 من سورة الحجر (و نستثنى من ذلك الآية 72 من سورة طه).

و الملاحظ أنّ كلّ هذه الآيات لا يرد فيها فعل القسم، بل يجيء فيها حرف القسم مباشرة متبوعا بالمقسم به. فعلاّمة التعجّب تجيء دائما بعد عبارة القسم في مثل هذه الآيات و ذلك

¹ - محمد عبد القادر أبو فارس، كتاب الإيمان و النور، ص 70.

² - الزمخشري، الكشاف، ج 3، ص 112.

مع حروف القسم كلّها حتى التي لا تختصّ منها بزيادة معنى التعجّب كالتاء. و هذه ملاحظة لفتتنا في الترجمة و لا نجد لها تفسيراً غير ذلك.

أمّا المُقسم عليه فهو قولهم "إنّا لنحن الغالبون"، و قد ترجم بقولهم: C'est nous qui serons les vainqueurs الذي وُضع ما بين شولتين مع المقسم به دلالة على نقل الكلام مباشرة على لسان السحرة.

و هذا الجواب يدلّ على ثقة المُقسمين و يقينهم بغلبتهم، و ممّا زاد في إظهار ذلك ورود عدد من أساليب التوكيد إلى جانب القسم؛ إذ نلاحظ أنّ جواب القسم جاء جملة إسمية ابتدأت بإنّ المشدّدة، إضافة إلى اللام في اسمها (لننح) مع تعريف خبرها (الغالبون) دلالة على اختصاصهم بالغلبة و تفرّد بهم بها في هذا الموقف.

و قد ترجمت هذه المؤكّدات بالأسلوب الفرنسي "c'est... qui" الذي يدلّ أيضاً على التأكيد و الاختصاص، و يعمل على لفت انتباه المستمع إلى ما سيقال.

كما نلاحظ أنّ فعل الكينونة الذي يدلّ على حال المتكلّمين قد جاء مصرّفاً في زمن المستقبل (serons) و ذلك لأنّ هذا الخطاب كان موجّهاً إلى سيّدنا موسى و إلى كلّ الحاضرين عند بدء المواجهة، فكأنّ السحرة جزموا بالنتيجة مسبقاً و أكّدوا على غلبتهم و انتصارهم. و هذا يدلّ على فرط ثقّتهم في أنفسهم و قوة تمكّنهم من السحر، إضافة إلى تيمّنهم بفرعون و عزّته، و هو ما يبيّن الغرض من القسم بعزّة فرعون في هذا الموضع.

يقول البيضاوي في تفسير هذا الغرض:

"أقسموا بعزّته على أنّ الغلبة لهم لفرط اعتقادهم في أنفسهم، و لإتيانهم بأقصى ما يمكن أن يؤتّى به من السحر".¹

أمّا عن المناسبة بين المقسم به و المقسم عليه في هذا الموضع، فقد أقسموا بالعزّة التي تعني عدم القهر و عدم الغلبة على أنّ موسى لن يغلبهم في هذه المواجهة و أنّهم هم

¹ - علي بن محمد بن عبد المحسن الحارثي، أسلوب القسم في القرآن الكريم- دراسة بلاغية، المجلد الثاني، ص 518.

الغالبون. و قد أسندوا العزّة إلى فرعون تعظيماً له و اعترافاً بقوّته و جبروته و حرصاً على نسب النصر إليه و إخلاص الولاء له، فهذا تنويه منهم للحاضرين بأنّ فرعون صاحب عزّة يُستعان بها، فكأنهم يرجعون الفضل إليه و يؤكّدون على أنّه سبب غلبتهم. و لهذا أقسموا بعزّته (لأنّ فرعون لا يُغلب و لا يُقهر في نظرهم)¹، و بما أنّه إلى جانبهم، فالغلبة ستكون من نصيبهم بالتأكيد.

و قد فسّر آخرون سبب اختيار المقسم به و مجيئه على هذه الصورة في القرآن الكريم على أنّه حجة لإثبات صدق ما جاء به سيّدنا موسى، قال الرازي:

"قالمراد أنهم أظهروا ما يجري مجرى القطع على أنهم يغلبون، و كلّ ذلك لمّا ظهر كان أقوى لأمر موسى".²

أي أنّهم كانوا متيقّنين تمام اليقين بغلبتهم و لذلك عبّروا عنها بالقسم و مع ذلك فقد غلبهم موسى، و في ذلك دلالة على قوّة ما جاء به و أنّه حقّ.

سورة النجم:

قال الله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (2)﴾.

أركان القسم:

المقسم	حرف القسم	المقسم به	المقسم عليه
الله عز و جلّ	الواو	النجم إذا هوى	ما ضلّ صاحبكم و ما غوى

التفسير:

اختلف المفسّرون في المعنى المراد بالنجم هنا، و أكثر ما قالوا في ذلك قولان: الأول هو (نجوم السماء) و الثاني هو (نجوم القرآن).

¹ - الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، ج17، ص 10567.

² - الرازي، مفاتيح الغيب، ج24، ص 134.

أما التفسير الأول؛ و هو النجم السماوي المعروف، فقد خصّه الكثير منهم بالثريا و ذلك لأنّ العرب كانت تدعوها "النجم". جاء في الكشاف: "النجم: الثريا و هو اسم غالب لها ... أو جنس النجوم"¹. و عليه فقد فسّروا الفعل "هوى" بسقوطها عند الفجر. جاء عن ابن عباس ومجاهد: "يعني بالنجم الثريا إذا سقطت مع الفجر"².

كما قال البعض أنّ المقصود بها هو الرجوم من النجوم. قال ابن قيم الجوزية عن ابن عباس في رواية عكرمة: "يعني النجوم التي ترمى بها الشياطين إذا سقطت في آثارها عند استراق السمع. و هذا قول الحسن"³.

كما وردت تفسيرات أخرى كقولهم إنّ المقصود بالنجم هنا هو النجوم إذا غابت يوم القيامة أو أنها الزهرة لأنّ قوما من العرب كانوا يعبدونها، و كلّ هذه التفسيرات تصبّ في مصبّ واحد يقصد به جنس النجوم السماوية.

و أمّا التفسير الثاني و هو نجوم القرآن، فلأنّ القرآن نزل منجّما أي مفرّقا. قال الفراء في تفسيره:

"أقسم -تبارك و تعالى- بالقرآن، لأنّه كان ينزل نجوما الآية و الآياتان، و كان بين أوّل نزوله و آخره عشرون سنة"⁴.

و منه يكون "هوى" استنادا لهذا التفسير بمعنى "نزل".

و قوله " مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَ مَا غَوَى " (يعني محمدا صلى الله عليه و سلم و الخطابُ لقريش و هو جواب القسم، و الضلال نقيض الهدى، و الغي نقيض الرشد)⁵.

الترجمة:

الآية	ترجمتها ¹
-------	----------------------

¹ - الزمخشري، الكشاف، ج4، ص27.

² - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج6، ص441.

³ - ابن قيم الجوزية، التبيين في أقسام القرآن، ص217.

⁴ - الفراء، معاني القرآن، ج3، ص94.

⁵ - الزمخشري، الكشاف، ج4، ص28.

<p>1- Par l'étoile à son déclin!</p> <p>2- Votre compagnon ne s'est pas égaré et n'a pas été induit en erreur.</p>	<p>وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (1)</p> <p>مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (2)</p>
---	---

التحليل:

يقسم الله تبارك و تعالى في صدر سورة النجم بـ "النجم إذا هوى" على أن رسوله محمدا صلى الله عليه و سلم ليس من الضالين و لا من الغاوين، و بأن ما جاء به من القرآن ليس من عند نفسه و إنما هو وحي يوحى إليه من عند الله تعالى. و واضح من هذه الآيات أن الخطاب فيها موجّه إلى الكافرين الذين اتّهموا الرسول بالكهانة و السحر و الجنون و الشعر بعد أن سمعوا ما جاء به من الحقّ. و قد ربط النيسابوري بين هذه الاتهامات و بين استعمال الفعلين "ضلّ" و "غوى" في هذه الآيات فقال:

"يحتمل أن يكون قوله (ما ضلّ) نفيا لقولهم: هو كاهن أو مجنون لأنّ الكهانة... من مسيس الجنّ، و قوله (ما غوى) نفيا لقولهم هو شاعر و الشعراء يتبعهم الغاؤون"².

و استنادا إلى هذا القول، يمكن أن نقول بأنّ جواب القسم هنا جاء ردّا على كلّ الاتهامات الباطلة التي ألصقها الكافرون بالرسول صلى الله عليه و سلم زورا و بهتاناً.

و قد ذكرنا سابقا في تفسير المقسم به في هذا الموضع أنّ المفسرين اختلفوا في معنى "النجم" هنا؛ فمنهم من قال بأنّ المقصود به هو جنس النجوم السماوية و منهم من قال بأنّه نجوم القرآن. كما اختلفوا كذلك في تحديد معنى الفعل "هوى" تبعا لاختلاف المراد بالنجم، فهذا الاختلاف عائد في أصله إلى الاختلاف الأوّل.

و يرى ابن القيم أنّ القول الثاني الذي يفسّر النجم بالقرآن تفسير ضعيف و يستدلّ على ذلك بقوله:

¹ - محمد حميد الله، القرآن الكريم مع ترجمة معانيه إلى اللغة الفرنسية، ص526.

² - علي بن محمد بن عبد المحسن الحارثي، أسلوب القسم، المجلد2، ص 490.

"و ليس بالبَيِّن تسمية القرآن عند نزوله بالنجم إذا هوى، ولا تسمية نزوله هويًا. و لا عهد في القرآن ذلك فيحمل هذا اللفظ عليه"¹.

كما يرى أيضا أنّ أظهر الأقوال و أصحّها هو قول من ذهب إلى أن المقصود هنا هو الرجوم التي ترمى بها الشياطين، إذ ينتقد باقي التفاسير المذكورة بقوله:

"و ليس بالبَيِّن تخصيص هذا القسم بالثريا وحدها إذا غابت. و ليس بالبَيِّن -أيضا- القسم بالنجوم عند انتشارها يوم القيامة. بل هذا مما يقسم الربّ عليه و يدلّ عليه آياته، فلا يجعله نفسه دليلا، لعدم ظهور المخاطبين، و لا سيما منكرو البعث، فإنّه سبحانه إنّما استدّل بما لا يمكن جرده و لا المكابرة فيه. فأظهر الأقوال قول الحسن. و الله أعلم"².

و نحن نرى أنّ ابن القيم في نقده هذا لم يقدّم أدلّة كافية لإثبات ضعف أو عدم صحّة التفاسير الأخرى، و عليه فإنّ لفظ "النجم" يحتمل كلّ ما تقدّم ذكره. فالقسم هنا جاء بصيغة "النجم إذا هوى"، و منه فكل نجم تصحّ فيه هذه الصفة مقصود هنا، إذ يجوز إطلاق اللفظ "هوى" على مطلق النجم بما في ذلك الثريا و الرجوم الساقطة على الشياطين أو النجوم المنتثرة يوم القيامة و حتّى نجوم القرآن، بدليل ما ذهب إليه المفسّرون في تفسيراتهم المختلفة.

و لكن أيّ التفاسير اختار المترجم لترجمة هذه الآية؟

كما يظهر لنا من خلال الترجمة فإنّ المترجم ذهب إلى المعنى المباشر و المألوف لترجمة صيغة المقسم به هنا، المعنى الذي يتبادر أولا إلى الذهن و هو نجوم السماء، فقال:

(Par l'étoile à son déclin!)

فكلمة "étoile" في الفرنسية لا تحتل معنى التفرّق الذي قد تعبّر عنه كلمة "نجم" في العربية، بل تقتصر على التعبير عن معنى واحد هو الأجرام و النجوم السماوية. و عليه لا

¹ - ابن قيم الجوزية، التبيان في أقسام القرآن، ص218.

² - المرجع نفسه، (ص ن).

يبقى أمامنا سوى هذا. و أمّا حرف القسم فقد ترجم على غرار المواضع السابقة بالحرف "Par".

ننتقل الآن إلى المقسم عليه و هو كما ذكرنا سابقا نفي للاتهامات الباطلة عن الرسول الكريم كالضلال و الغواية و فيه تحقيق لما يراد إثباته و تأكيده بالقسم و هو أنّ الرسول صلى الله عليه و سلم مهتد راشد و أنّ ما جاء به من القرآن ليس من عند نفسه بل هو من عند الله (و ذلك أنّ قریشا قالوا: إنّما يقول القرآن من تلقائه، فنزل تكذيبهم)¹.

يقول ابن القيم في ذلك: "نفي سبحانه عن رسوله الضلال المنافي للهدى، و الغيّ المنافي للرشاد. ففي ضمن هذا النفي الشهادة له بأنّه على الهدى و الرشاد"².

و لم يأت ذكر اسم النبي في جواب القسم بصورة مباشرة بل عبّر عنه بقوله "صاحبكم"، وقد نبّه الدكتور حميد الله إلى ذلك بإضافة هامش يبيّن أنّ المقصود هو رسول الله صلى الله عليه و سلم:

Votre compagnon : Muhammad (pbAsl).³

و استعمال لفظ "صاحبكم" يعني أنّه منكم و أنتم تعرفونه حقّ المعرفة، و في ذلك زيادة في تكذيبهم و إقامة الحجة عليهم، و قد نبّه ابن القيم إلى ذلك في قوله:

"و تأمل كيف قال سبحانه {ما ضلّ صاحبكم} و لم يقل: ما ضلّ محمد. تأكيدا لإقامة الحجة عليهم، بأنّه صاحبهم، و هم أعلم الخلق به و بحاله و أقواله و أعماله، و أنّهم لا يعرفونه بكذب و لا غي، و لا ضلال، و لا ينقمون عليه أمرا واحدا قط"⁴.

و إضافة إلى تأكيد الحجة على المخاطبين من خلال استعمال لفظ "صاحبكم"، فقد جاء جواب القسم مؤكّدا أيضا بحرف النفي "ما" الذي ورد مرتين قبل الفعلين "ضلّ" و "غوى".

¹ - الفراء، معاني القرآن، ج3، ص95.

² - ابن قيم الجوزية، التبيان في أقسام القرآن، ص218.

³ - محمد حميد الله، القرآن الكريم مع ترجمة معانيه إلى اللغة الفرنسية، ص526.

⁴ - ابن قيم الجوزية، التبيان في أقسام القرآن، ص219.

فـ "ما" تفيد التوكيد و تعمل في النفي عمل "قد" في الإثبات، و تدخل على الفعل الماضي و تكون بمعنى "لم". فقولنا "ما ضلّ" و "ما غوى" بمعنى لم يضلّ و لم يَغْوِ.

(ثمّ إنّ سببويه جعل فيها معنى التوكيد، لأنها جرت موضع "قد" في النفي، فكما أنّ "قد" فيها معنى التأكيد فكذلك ما جعل جوابا لها)¹.

و أمّا عن ترجمة جواب القسم، فقد استوفت جميع المعاني المذكورة، و نخصّ بالذكر لفظ "صاحبكم" الذي تُرجم إلى "Votre compagnon" دلالة على المُرَافَقَة و المصاحبة و المعرفة الحقّة لهذا الصّاحب، و كذلك النفي المذكور قبل الفعلين عن طريق استعمال الحرف "ما": "ne s'est pas égaré et n'a pas été induit en erreur".

و قد جاء تصريف كلا الفعلين في الزمن الماضي (le passé composé) محاكاة للفعلين في العربية، و لكن ما يلفت الانتباه هو تصريفهما في صيغة المبني للمجهول (la voix passive) و نحن نفسّر ذلك بأنّه زيادة في نفي فعلي الضلال و الغيّ عن الرسول صلى الله عليه و سلّم؛ فكلّ عاقل لا يجرأ على نسب هذين الفعلين إليه صلى الله عليه و سلّم و هو المعروف بهداه و تقاه و صلاحه و رشاده، و لا يفعل ذلك إلّا من عمي قلبه و غشي بصره.

أمّا و قد فرغنا من عرض عناصر القسم في هذه الآيات ننقل الآن لنبحث في المناسبة الكامنة بينها، و لا يخفى هنا أنّ المناسبة ستتّوَع بتتوَع معاني المُقسم به المذكورة آنفاً، ونستهلّ ذلك بذكر المناسبة التي أشار إليها ابن القيم -علما أنّه استند فيها إلى تفسير النجم بالرجوم التي ترمى بها الشياطين- إذ يرى أنّ هذه النجوم آية من آيات الله يحفظ بها دينه ووحيه من الشياطين، فيقول:

"أقسم بهذه الآية الظاهرة المشاهدة التي نصبها الله سبحانه آية و حفظا للوحي من استراق الشياطين له على أنّ ما أتى به رسوله حقّ و صدق، لا سبيل للشيطان و لا طريق له إليه،

¹ - الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ص 1173.

بل قد أحرس بالنجم إذا هوى رسدا بين يدي الوحي، و حرسا له، و على هذا فالارتباط بين المقسم به و المقسم عليه في غاية الظهور"¹.

أما الرازي في تفسيره فذكر مناسبات عدة ربط فيها بين المعاني المتعددة للنجم و بين المقسم عليه، فقال:

"أما على قولنا المراد الثريا فهو أظهر النجوم عند الرائي لأن له علامة لا يلتبس بغيره في السماء و يظهر لكل أحد و النبي صلى الله عليه و سلم تميّز عن الكلّ بآيات بيّنات فأقسم به... و على قولنا المراد هي النجوم التي في السماء للاهتداء، فأقسم الله بها لما بينهما من المشابهة و المناسبة، و على قولنا المراد الرجوم من النجوم، فالنجوم تبعد الشياطين عن أهل السماء و الأنبياء يبعدون الشياطين عن أهل الأرض، و على قولنا المراد القرآن فهو استدلال بمعجزة النبي صلى الله عليه و سلم على صدقه و براءته"².

فكلّ هذه المناسبات ظاهرة بين طرفي القسم و هي مما يزيد تأكيد المقسم به للمقسم عليه، و هذا يثبت صحّة ما ذكرناه من أنّ لفظ "النجم" يحتمل كل المعاني السابقة و أنّ لكل معنى وجه مناسبة معيّنا مع المقسم عليه هنا. فما يشير إليه النجم من معاني الظهور و التميّز والاهتداء يتناسب مع القسم على رشاد و هداية الرسول الكريم في هذا المقام.

سورة الواقعة:

قال الله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77)﴾.

¹ - ابن قيم الجوزية، التبيان في أقسام القرآن، ص 217، 218.
² - الرازي، مفاتيح الغيب، ج 28، ص 279.

أركان القسم:

المقسم	حرف النفي	فعل القسم	حرف القسم	المقسم به	المقسم عليه
الله عزّ و جلّ	لا	أقسم	الباء	مواقع النجوم	إنّه قرآن كريم

التفسير:

اختلف المفسرون في تحديد المقصود بمواقع النجوم هنا مثلما اختلفوا في تفسير معنى النجم في قسم سورة النجم، و ذهبوا في ذلك مذاهب شتى أشهرها اثنان:

الأول هو أنّ المقصود بالنجوم (هي آيات القرآن، و مواقعها نزولها شيئاً بعد شيء. و هذا قول ابن عباس رضي الله عنهما، في رواية عطاء، و قول سعيد بن جبير، و الكلبي، و مقاتل، و قتادة)¹.

و يستطرد ابن كثير في شرح هذا الرأي قائلاً:

"قال حكيم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: يعني نجوم القرآن فإنه نزل جملة ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا، ثم نزل مفرقاً في السنين بعد. ثم قرأ ابن عباس هذه الآية، و قال الضحاك عن ابن عباس: نزل القرآن جملة من عند الله في اللوح المحفوظ إلى السفارة الكرام الكاتبين في السماء الدنيا، فنجمته السفارة على جبريل عشرين ليلة، و نجمه جبريل على محمد صلى الله عليه و سلم عشرين سنة فهو قوله (فلا أقسم بمواقع النجوم) نجوم القرآن"².

هذا القول الأول، أما الثاني فالمقصود به هو نجوم السماء، و مواقعها على قول مجاهد أي (مطالعها و مشارقها، و كذا قال الحسن و قتادة و هو اختيار ابن جرير)³ و قيل (مواقعها

¹ - ابن قيم الجوزية، التبيان في أقسام القرآن، ص198.

² - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج6، ص536.

³ - المرجع السابق، (ص ن).

انتشارها و انكدارها يوم القيامة، و هذا قول الحسن¹ و قيل أيضا (أراد بمواقع منازلها ومسائرها، و له تعالى في ذلك من الدليل على عظيم القدرة و الحكمة ما لا يحيط به الوصف)².

أما قوله تعالى : {إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ} فقيل فيه:

"أقسم بمواقع النجوم إن هذا القرآن قرآن كريم ، ليس بسحر ولا كهانة ، وليس بمفتري ، بل هو قرآن كريم محمود ، جعله الله تعالى معجزة لنبيه صلى الله عليه وسلم ، وهو كريم على المؤمنين ، لأنه كلام ربهم ، وشفاء صدورهم ، كريم على أهل السماء ، لأنه تنزيل ربهم ووحيه. وقيل : {كَرِيمٌ} أي غير مخلوق. وقيل : {كَرِيمٌ} لما فيه من كريم الأخلاق ومعاني الأمور. وقيل : لأنه يكرم حافظه ، ويعظم قارئه"³.

الترجمة:

ترجمتها ⁴	الآية
75- Non!... Je jure par les positions des étoiles (dans le firmament).	فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75)
76- Et c'est vraiment un serment solennel, si vous saviez.	وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76)
77- Et c'est certainement un Coran noble.	إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77)

التحليل:

يرد هذا القسم في أواخر سورة الواقعة، و هو قسم من الله تعالى بمواقع النجوم على ثبوت القرآن و على علو شأنه و عظم مكانته. و قد ورد هذا القسم متصدراً بصيغة النفي (لا أقسم)، و قد سبق الحديث عن هذه الصيغة فيما تقدم من البحث، و نكتفي في هذا المقام بالتذكير بأهم معانيها و عرض علاقتها بما أقسم به و عليه في هذا الموضوع.

¹ - ابن قيم الجوزية، التبيان في أقسام القرآن، ص198.

² - الزمخشري، الكشاف، ج4، ص58.

³ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج17، ص224.

⁴ - محمد حميد الله، القرآن الكريم مع ترجمة معانيه إلى اللغة الفرنسية، ص536، 537.

قال بعض المفسرين: لا ههنا زائدة و تقديره أقسم بمواقع النجوم ... و قال آخرون: ليست لا زائدة لا معنى لها بل يؤتى بها في أول القسم إذا كان مقسما به على منفي¹.

و قال آخرون بأن أصلها "لأقسم" و بهذا (تكون اللام لام القسم و التوكيد، و هذه القراءة قليلة، و هي في العربية بعيدة، لأنّ لام القسم لا تدخل على الفعل المستقبل إلا معه النون)².

و قيل أيضا: بل دخلت (لا) توكيدا للكلام. و ذكر عن أبي بكر بن عيَّاش في قوله: (لأقسم) توكيد للقسم، كقوله: لا و الله. و قال بعض نحويي الكوفة: (لا) ردّ لكلام قد مضى من كلام المشركين.³

و تقدير هذا الكلام بحسب بعض المفسرين هو التنبيه (على فضيلة القرآن ليتدبروه و أنه ليس بشعر ولا سحر ولا كهانة كما زعموا)⁴.

كما أشار الدكتور سليمان بن علي -أستاذ اللغويات المساعد بقسم اللغة العربية و آدابها، جامعة الأغواط- إلى بعض دلالات (لا) الأخرى قائلا:

"و رأى بعض ثالث أنها لنفي ما ينبؤ عنه القسم من تعظيم المقسم به و تفخيمه، فكأنّ المعنى لا أقسم بكذا لا أعظمه بإقسامي به حقّ إعظامه فإنّه حقيق بأكثر من ذلك، و هناك رأي رابع يقول أنّها لنفي الإقسام لوضوح الأمر. و لعلّ أقرب تفسير لـ "لا" هو ما ذكرته الدكتورة بنت الشاطي رحمها الله من أنها لإفادة التوكيد مع عدم القول بزيادتها كما فعل بعض القدماء الذين أثبتوا لها هذا المعنى، و قد احتجّت لهذا الرأى بما نستعمله في مخاطباتنا حتى الآن -ليس في الفصحى و حسب بل و في لهجاتنا العامية- عندما نريد أن نوّكّد على أحد ما وصيّة معيّنة فنقول: لا أوصيك بكذا، كأن أوصيه على شخص بأن يرعاه، فأقول مؤكّدا على ذلك: لا أوصيك بفلان. فلا شك أنّ هذا آكدّ لأمر الوصية من القول: أوصيك بفلان؛ ومن هنا فإنّ معنى (لا أقسم) هو (أقسم) كما قال القدماء و لكن مع إفادة

¹ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج6، ص535.

² - الزجاج، معاني القرآن و إعرابه، شرح و تحقيق: عبد الجليل شلبي، دط، دار الحديث القاهرة، 1424هـ/2004م، ج5، ص34.

³ - محمد الأمين الحكيني الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ص369.

⁴ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج17، ص223.

التأكيد، و معنى ذلك كله أنّ الله سبحانه و تعالى قد أقسم بمواقع النجوم حقاً في هذه الآية. و ممّا يدلّ على ذلك أيضاً أنّه جاء بعدها مباشرة "وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ" فدلّ هذا على أنّه قسم لا نفي له...¹

إذن فقد كانت هذه أهمّ الأقوال في تفسير معنى "لا" في صيغة "لا أقسم"، مع بيان أنّ الجمهور مع الرأى القائل بأنها تفيد التوكيد، فأى الآراء تبني الدكتور حميد الله في ترجمته لهذه الصيغة؟

يظهر لنا من خلال الترجمة أنّ "لا" تُرجمت مستقلة عن فعل القسم "أقسم" بدليل علامة التعجب الواردة بعدها إضافة إلى نقاط الحذف: Non!... Je jure.

و يفهم من هذه الترجمة أنّ فعل القسم جاء مثبتاً "Je jure" و منه فإنّ "لا" الواردة قبله "Non" لا تفيد نفيه؛ بل تفيد معنى آخر يمكن أن يكون حسب التفسير المذكورة تأكيداً له، أو ردّاً على كلام تقدّم، أو أن تكون زائدة لا معنى لها.

أمّا كونها زائدة فذلك ضعيف لما تقدّم ذكره عن بنت الشاطي، و لأننا نرى أنّ كلّ لفظ يُذكر في القرآن يفيد معنى و لو كان بسيطاً، ذلك أنّ القرآن أعظم النصوص و أبلغها من حيث الأسلوب و اللغة، فلا يُعقل أن يُورد ما لا يحتاج إليه المعنى و السياق و إلا لكان ذلك حشواً، و حاشى أن ننسب إلى القرآن ذلك و هو المنزل من عند الله.

و أمّا كونها تفيد التأكيد، فليس في الترجمة إشارة إلى ذلك، و إلا لكان المترجم عبّر عنه بإحدى أدوات التأكيد في الفرنسية.

إذن فلا يبقى أمامنا سوى أن نقول بأنّ "لا" صلة أو أنّها ردّ لكلام تقدّم. و مهما كان معناها المقصود حقاً فالمهمّ أنّه ليس النفي، و أنّ فعل القسم مثبت قطعاً، و عليه فإنّ القسم بمواقع النجوم واقع.

¹ - سليمان بن علي، من أسرار القسم في القرآن الكريم، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة و اللغة العربية و آدابها، رمضان 1425هـ، ع31، ج19، ص561.

ننتقل الآن إلى المقسم به "مواقع النجوم" و الذي ذكرنا سابقا أنّ المفسرين اختلفوا في معناه و أنّ المختار عند أكثرهم هو تفسيره بنجوم السماء، مع أنّ اللفظ يحتمل جميع المعاني التي ذكرت سابقا و لم يرد في النص القرآني أيّ تخصيص لأحدها على الآخر. و يؤكّد عبد الرحمن الميداني ذلك بقوله:

"و لا مانع من أن يكون المراد من النجوم نجوم السماء، و نجوم القرآن معاً، على طريقة القرآن في استعمال اللفظ بمعنييه أو معانيه، فيشمل تحليل النص مواقعهما".¹

و قد جاءت ترجمة المقسم به كالآتي:

Je jure par les positions des étoiles (dans le firmament).

أي أنّ المترجم اعتمد أحد المعنيين دون الآخر و هو المعنى القائل بأن المقصود هو نجوم السماء، حيث ترجم المقسم به بقوله "par les positions des étoiles" و هي الترجمة الحرفية لـ "بمواقع النجوم" ثم أضاف ما بين قوسين ليبيّن أنّه يقصد نجوم السماء مع التذكير بغياب آية إشارة إلى هذا المعنى دون غيره في النص القرآني.

و قد ساهم العلم الحديث في بيان إعجاز هذا القسم من خلال بيان أهمية مواقع النجوم بدراستها و البحث المتواصل عنها، و مما قيل في ذلك:

"لقد أثبت علم الفلك أنّ القرآن هو أوّل كتاب في العالم أشار إلى أهمية النجوم كعلامات يُهتدى بها في البرّ و البحر... و لأهمية مواقع النجوم أقسم الله بها لبيان مدى أهميّتها، لا سيما و أنّ المسافات بين النجوم تبلغ حدودا لا يتصوّرها الخيال... فدراسة مواقع النجوم دراسة ذات أغوار عميقة، ما زال العلماء يقفون أمامها عاجزين لا يستطيعون أن يتابعوها"².

و كلّ هذا إنّما يدلّ على اتّساع هذا المجال اتّساعا هائلا لا حدود له، و أنّ الدراسات المتعلقة به ستستمر في كشف الستار عن حقائق جديدة في كلّ حين.

¹ - عبد الرحمن حبيكة الميداني، قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزّ و جلّ، ص 491.

² - محمد كامل عبد الصمد، الإعجاز العلمي في الإسلام- القرآن الكريم، الدار المصرية اللبنانية- القاهرة، ط6، يناير 2004، ص ص 56، 57.

أما المقسم عليه في هذا الموضع، فهو قوله تعالى "إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ"، وفيه -كما ذكرنا سابقا- بيانٌ لعظيم شأن القرآن و رفعة قدره و ذلك بوصفه بالكريم و التأكيد على ذلك. يقول ابن القيم: "قوصفه بما يقتضي حسنه، و كثرة خيره، و منفعه، و جلالته"¹. و نلاحظ ورود اعتراض بينه و بين المقسم به بقوله: "وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ"، و قد فسره ابن كثير بقوله: (أي أن هذا القسم الذي أقسمت به لقسم عظيم، لو تعلمون عظمته لعظمت المقسم به عليه)².

و يلفتنا هذا التفسير إلى معنى مهمّ هو عدم علم المخاطبين بعظمة المقسم به و منه بعظمة ما أقسم عليه بهذا الأمر العظيم، و قد استغلّ عبد الرحمن الميداني هذا المعنى في إعطاء تفسير جديد لاستعمال صيغة النفي (لا أقسم) في هذا الموضع للقسم بمواضع النجوم مشيرا في ذلك إلى معنييه -نجوم القرآن و نجوم السماء- و موضّحا بذلك وجهها من أوجه الإعجاز في هذا القسم، و ذلك في نقاط نوجزها فيما يلي:

"مواقع النجوم من الأمور التي لا يعرف عظمتها المقصودون بالخطاب إبان تنزيل السورة، و هم مكذبون بالرسول، و مكذبون بالقرآن الكريم أنه من عند الله ... و هذا يقتضي بالنسبة إليهم عدم القسم بها.

لكن مواقع النجوم أمر عظيم جدًا، فهي تستحق أن يقسم الله عزّ و جلّ بها، إذ هي من مظاهر قدرة الله و علمه، وإتقانه، و حكمته، في كونه. و سيأتي في المستقبل باحثون علميون فلكيون، و يفيدهم القسم بها لتأكيد حقائق تتعلق بالقرآن المجيد ... فهذا يقتضي القسم بها.

إذا كان المراد من النجوم نجوم القرآن الذي ينزل على دفعات، بحسب المناسبات، و مقتضيات الأحوال التربوية و التعليمية، فمواقعها في الكتاب المكنون عند الله أمر عظيم جدًا ... فهذا مقتضى للقسم بمواقع النجوم.

¹ - المرجع السابق، ص 202.

² - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 6، ص 536.

لكن المخاطبين لا يعلمونه حتى يستفيدوا من القسم به التأكيد على أنّ القرآن هو قرآن كريم، في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون. فهذا مقتض لعدم القسم بمواقع النجوم... و بهذا نلاحظ أنّ الله عزّ و جلّ لم يقسم لمن لا ينتفع بهذا القسم، و أقسم لمن ينتفع به، من خلال صيغة واحدة¹.

و معنى هذا كله أنه يشير إلى أنّ القسم هنا يحتمل معنيين متعارضين: اقتضاء السياق له و عدم اقتضائه له في آن واحد، و لما كان هذا هو الأمر كان الحلّ القرآني في استعمال فعل القسم مسبقا بحرف النفي "لا أقسم" مع توجيه الأنظار إلى عظمة القسم بجملة الاعتراض الواردة بين طرفيه، ليُفهم منه كلا المعنيين رغم تضاربهما.

نعود الآن إلى الاعتراض المذكور بين المقسم به و المقسم عليه و الذي أشار ابن القيم في كتابه "التبيان في أقسام القرآن" إلى دلالاته المتعددة حين قال:

"و المقسم عليه ههنا قوله " إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ" و وقع الاعتراض بين القسم و جوابه بقوله: " وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ" و وقع الاعتراض بين الصفة و الموصوف في جملة هذا الاعتراض بقوله تعالى: " لَوْ تَعْلَمُونَ" فجاء هذا الاعتراض في ضمن ذلك الاعتراض لطف شيء وأحسنه موقعا. و أحسن ما يقع هذا الاعتراض إذا تضمّن تأكيدا أو تنبيها أو احترازا².

و ليس هناك أدنى شكّ بأنّ هذا الاعتراض الواقع بين طرفي القسم في هذا الموضع يزيد من قوّة تأكيد المقسم به و يدلّ على عظمته و شأنه، كما أنه يلفت إلى ضرورة التأمل في المقسم به و إلى علاقته بالمقسم عليه، و هو ما سنشير إليه فيما بعد في المناسبة بينهما.

و إضافة إلى ما تحمله جملة الاعتراض هذه من معنى التأكيد هنا، نلاحظ ورود عدد من المؤكّدات الأخرى تتمثل في "إنّ" و اللام، ليس في جواب القسم وحده بل في جملة

¹ - عبد الرحمن حبنكة الميداني، قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزّ و جلّ، ص ص 491، 492.
² - ابن قيم الجوزية، التبيان في أقسام القرآن، ص 200.

الاعتراض أيضا، و كلّ هذا يزيد من قوّة القسم و تحقيق المقسم عليه و بيان عظمة المقسم به.

و قد أشار الدكتور محمد حميد الله إلى تنوّع المؤكّدات في هذه الآيات، و ذلك بترجمتها إلى اللغة الفرنسية باستخدام لفظين مختلفين يفيدان التأكيد و هما *vraiment* و *certainement*، إضافة إلى تقدّمهما باللفظ "c'est" (présentatif) الذي يفيد إبراز عنصر من عناصر الجملة قصد التأكيد عليه.

نهي الحديث عن القسم في هذا الموضع بالإشارة إلى المناسبة الموجودة بين المقسم به و هو مواقع النجوم - و المقسم عليه - القرآن الكريم - و التي يمكن أن نقول بأنّها جاءت على وجهين تباينا بتباين معاني المقسم به.

فأولهما إن كان المقصود هو نجوم القرآن، فتكون المناسبة بينهما هي الاتحاد و الالتحام؛ إذ جاء القسم بالقرآن على كرم القرآن و عظّمته، فساهم كلّ من المقسم به و المقسم عليه في تقوية الآخر و بيان شأنه.

و أما الوجه الثاني فهو على اعتبار أنّ المراد بالنجوم هو نجوم السماء، و بهذا تكون المناسبة (في التشبيه بين مواقع نجوم السماء الرفيعة جدّا، و مواقع سور القرآن، و آياته الهادية و المضيئة و الرفيعة جدّا، فنجوم السماء تنزل أنوارها هادية إلى الأرض، و آيات القرآن يُنزلها الله عزّ و جلّ قولا من السماء، يهدي الناس)¹.

كما أشار آخرون إلى وجود علاقة أخرى بين طرفي القسم على اعتبار هذا المعنى استندوا فيها إلى الآيات التي وردت بعد القسم و هي قوله تعالى: "فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ" فقالوا:

¹ - عبد الرحمن حبنكة الميداني، قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزّ و جلّ، ص492.

"كما أن النجوم و مواقعها و الوقوف على جميع ما يحيط بها من أسرار لا يتأتى إلّا بتدبّر و تفكّر و صفاء ذهن فكذلك دقائق هذا القرآن و أسرارها لا يقف عليها إلّا من زكيت نفسه و وفقه الله إلى تدبره أحسن تدبّر"¹.

كما تتبّه ابن القيم في هذا الصدد إلى وجود علاقة تكمن في المماثلة بين النجوم و القرآن الكريم أشار إليها في تبيانه قائلًا (أن النجوم جعلها الله يهتدى بها في ظلمات البرّ و البحر و آيات القرآن يهتدى بها في ظلمات الجهل و الغيّ. فتلك هداية في الظلمات الحسيّة، و آيات القرآن في الظلمات المعنوية، فجمع بين الهدايتين)².

و هكذا يكون قد اتّضح لنا من كلّ ما سبق خصوصيات هذا القسم و علاقة عناصره بعضها ببعض، و تجلّى أمامنا بعض من عظمة القرآن و بيانه في عرضه لهذا القسم من خلال ألفاظ موجزة ذات دلالات و معان لا تكاد تنحصر، فبالرغم مما كشف عنه العلم الحديث في مجال الفلك فذلك لا يمتلّ إلّا اليسير من أسرار النجوم و معجزات الكون. و كلّ هذا إنّما يدلّ على قصور نظر الإنسان أمام آيات الخالق ما لم يأتيه من عند الله نور يكشف له ما خفي، و هذا يقودنا إلى الاستشهاد بما قال سفيان بن الشيخ الحسين في تفسيره للاعتراض الوارد بين طرفي القسم "وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ": (لفظة "لو" تبقى مستوعبة لكلّ جديد في علم الفلك)³.

سورة الطارق :

قال الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (2) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (3) إِنَّ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (4)﴾.

أركان القسم:

المقسم	المقسم به	حرف القسم	المقسم عليه
--------	-----------	-----------	-------------

¹ - سليمان بن علي، من أسرار القسم في القرآن الكريم، ص564.

² - ابن قيم الجوزية، التبيان في أقسام القرآن، ص199.

³ - سفيان بن الشيخ الحسين، الإعجاز اللفظي و الإعجاز الترتيبي في القرآن الكريم، مطابع ديوان المطبوعات الجامعية- المطبعة الجهوية بقسنطينة، ص164.

الله عزّ و جلّ	السماء و الطارق	الواو	إن كل نفس لما عليها حافظ
----------------	--------------------	-------	--------------------------

التفسير:

"الطارق" اسم فاعل من الفعل "طَرَقَ" و معناها: (ضرب بوقع و شدة حتى أحدث صوتا (...)) و منه سميّ الطريق، و هو السبيل الذي نسلكه؛ لأن السابلة تطرقه بأقدامها، ثم بعد ذلك وُجد عرف دلالي، أنّ الطارق هو السائر، أو السالك السبيل، و بعد ذلك خصّ بالسائر ليلا).¹

و قيل: "وُصف بالطارق لأنه يبدو بالليل كما يقال للآتي ليلا طارق" (...)) و المراد جنس النجوم أو جنس الشهب التي يرجم بها".²

و قال "قتادة" و غيره: "إنما سُميّ النجم طارقا لأنه إنما يُرى بالليل و يختفي بالنهار"³، مؤيدا به ما جاء في الحديث الصحيح من نهي الرجل أن يطرق أهله طروقا؛ أي أن يأتيهم فجأة بالليل.

و معنى كلمة: ثاقب.. أنّ النجم يتقب الظلام و ينفذ فيه.⁴ يقال: تَقَّبَ يَتَّقِبُ تُقُوبًا و تقابة: إذا أضاء (...)) و قال مجاهد: الثاقب: المتوهج.⁵

أما جواب القسم فهو قوله تعالى: " إن كل نفس لما عليها حافظ "، دليلا على إثبات البعث.

و كلمة حافظ هذه إما أن تكون (بمعنى: الرعاية و العناية من الحافظ للمحفوظ، و إما أن تأتي من الحافظ، الذي هو الرقيب، الذي لا يغيب عنه شيء أبدا)⁶. قيل: حافظ لأعمال يحسبها عليه (...)) و قيل: حافظ، أي حارس.¹

¹ - محمد متولي الشعراوي، تفسير جزء عمّ، دار الراجية للنشر و التوزيع، (د ط)، 2008، ص 274.

² - الزمخشري، تفسير الكشاف، ج: 4، ص ص: 240، 241.

³ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج: 7، ص: 265.

⁴ - محمد متولي الشعراوي، تفسير جزء عمّ، ص 274.

⁵ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، الجزء العشرون، ص 262.

⁶ - محمد متولي الشعراوي، تفسير جزء عمّ، ص 275.

الترجمة:

ترجمتها ²	الآية
1- Par le ciel et par l'astre nocturne	وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (1)
2- Et qui te dira ce qu'est l'astre nocturne?	وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (2)
3- C'est l'étoile vivement brillante.	النَّجْمُ الثَّاقِبُ (3)
4- Il n'est pas d'âme qui n'ait sur elle un gardien.	إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (4)

التحليل:

تقدّمت سور كثيرة فيها لفت الإنسان إلى مظاهر الكون الثابتة الرتيبة، و إلى ما يعقب ذلك من تغيير لهذه الثوابت، بما يحدث من انقلاب في الوجود، كقوله الحقّ سبحانه و تعالى: "إذا الشمس كورت" (التكوير:1)، و قوله سبحانه و تعالى: "إذا السماء انفطرت" (الانفطار:1)، و سبق أيضا أن سمعنا قول الحقّ سبحانه و تعالى: "و السماء ذات البروج" (البروج:1)، قسماً، و هنا يقول الحقّ سبحانه و تعالى: "و السَّمَاءِ وَ الطَّارِقِ. وَ مَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقِ. النَّجْمُ الثَّاقِبُ"..³

هنا، يقسم الله تعالى بالسماء، و ما جعل فيها من الكواكب النيرة، لعظم أمرها و كبر خلقها⁴، و فخامة شأنها، و لما عرف فيها من عجيب القدرة و لطيف الحكمة، في قوله: "والسما و الطارق". و فسّره بقوله: "النجم الثاقب" ليحصل من ذلك مزيد تقرّر للمراد بالمقسم به، و هو أنه من جنس النجوم.

و قد استعرضنا فيما سبق آراء العلماء في تفسير معنى "الطارق" و "الثاقب" في هذه الآيات حيث كانت معظم هذه التفاسير لغوية و نضيف أنّ للعلم الحديث أيضا رأيا في

¹ - الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ج8، ص 492.

² - د.محمد حميد الله، القرآن الكريم مع ترجمة معانيه إلى اللغة الفرنسية، ص 591.

³ - محمد متولي الشعراوي، تفسير جزء عمّ، ص 272.

⁴ - محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ج8، ص 492.

تفسيرها، إذ ورد في "الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم و السنة النبوية" للدكتور:
أحمد مصطفى متولي:

"الطارق هو نجم سماوي له صفتان: طارق و ثاقب، و لو قارنا بين هذه الخواص و أيّ جرم سماوي لوجدنا أن النجم النيوتروني يستوفي هذه الخواص نجم طارق و ثاقب، له نبضات و طرقات منتظمة (...). و قد توصل العلماء إلى أنّ النجم النيوتروني عقب مولده له نبضات سريعة لسرعة دورانه، و سرعة طاقته، و أن النجم النيوتروني العجوز له إشارات بطيئة على فترات أطول، و ذلك عندما تقلّ طاقته، و تنقص سرعة دورانه، فسبحان الله العظيم الذي خصّ ووصف هذا النجم بالثاقب، و أقسم به، فمن عظمة القسم ندرك عظمة المقسم به..."¹

و يوافق سفيان بن الشيخ الحسين الرأي في كتابه: "الإعجاز اللفظي و الإعجاز الترتيبي في القرآن الكريم" حين يقول: ينطبق الوصف القرآني "بالطارق النجم الثاقب" على مصادر الإشعاع الراديوي المميز بالسماء الدنيا و من أهمها النجوم النيوترونية (...). و هي نجوم ذات كثافة و جاذبية فائقة و حجم صغير، و لذا فإنها تدور حول محورها بسرعات فائقة مطلقة كميات هائلة من الموجات (...). و لعلها هي المقصودة بالوصف القرآني "الطارق النجم الثاقب" لأنها تطرق صفحة السماء و تنقب صمّتها بنبضاتها السريعة التردد، و موجاتها الراديوية الخاطفة، و الله تعالى أعلم.²

نتنقل الآن إلى ترجمة المقسم به هنا و الذي جاء ذكره في الآية الأولى حيث نلاحظ أنّ واو القسم قد تُرجمت بالحرف الفرنسي (La préposition Par)، و هو الحرف الذي ترجمت إليه جميع حروف القسم لحدّ الآن.

و نلاحظ أنّ الواو قد ذُكرت هنا مرتّين: الأولى قبل لفظ "السماء" و الثانية قبل لفظ "الطارق" و قد ترجمت الواو الثانية كالأولى بالحرف Par دلالة على أنّها هي الأخرى حرف قسم و ليست حرف عطف.

¹ - أحمد مصطفى متولي، الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم و السنة النبوية، دار ابن الجوزي- القاهرة، ط1، 2005، ص111، 112.

² - سفيان بن الشيخ الحسين، الإعجاز اللفظي و الإعجاز الترتيبي في القرآن الكريم، ص ص (166، 167).

أما "الطارق" فترجم بـ "l'astre nocturne"، أي أنّ المترجم قد بيّن أنه من جنس النجوم والكواكب عن طريق كلمة *astre* ثمّ أضاف ميزة من ميزاته و هي ظهوره بالليل و عبّر عن ذلك بالصفة (l'adjectif) *nocturne*، و هذا معناه أنه استبعد باقي المعاني اللغوية لكلمة (طارق) من كونه من يحدث صوتاً أو من يعبر سبيلاً.

و أما "الثاقب" فلم يخرج المترجم عن المعنى الذي ذكرناه في التفسير و هو الإضاءة والتوهج حيث وصف النجم بالعبارة "*vivement brillante*". و ما يجذب الانتباه هنا هو كلمة "*vivement*" التي تفيد وصف الحالة، و قد أضافها المترجم للتعبير عن شدة و سرعة توهج النجم.

أما في جواب القسم الذي ورد في الآية الرابعة في قوله: "إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ" فنجد أن المترجم قد اعتمد كلمة «*gardien*»، التي تعني حارس، لترجمة "حافظ"، و لم يشر إلى المعنى الآخر الذي يفسّره بالرقيب مع أنّ هذا الأخير هو المعنى الذي اعتمده الشيخ الشعراوي -رحمه الله- في محاولة لإيجاد المناسبة بين المقسم به و المقسم عليه، حيث يقول:

"فكأن الحافظ الرقيب يطّلع على الأشياء، كما أنّ النجم الثاقب يثقب الظلام، و ينفذ إلى دقائق الأشياء و تفاصيلها، إذن فالقسم نفسه دليل على المقسم عليه. فـ "الطارق النجم الثاقب" الذي يتقب الظلام، فيري الإنسان خبايا الأشياء، يكون منسجماً مع "إن كل نفس لما عليها حافظ" لأنّ هذا الحافظ ثاقب يتقب عليها سرائرها"¹.

سورة الفجر:

قال الله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ (1) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (2) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (4) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (5)﴾.

¹ - محمد متولي الشعراوي، تفسير جزء عمّ، ص 278.

أركان القسم:

المقسم به	حرف القسم	المقسم
الفجر، ليال عشر، الشفع و الوتر، الليل إذا يسر	الواو	الله عزّ و جلّ

التفسير:

يقول الشيخ الشعراوي - رحمه الله - :

"الفجر هو: الشقّ الواسع، يُقال: فجرت الشيء، أي: جعلت به شقًا واسعًا، و لما كان ضوء النهار محتجبًا بسواد الليل، جاء الفجر شقًا لذلك السواد ... " ¹.

كما جاء في تفسير التحرير و التنوير عن الفجر أنه (ابتداء ظهور النور بعد ما تأخذ ظلمة الليل في الانصرام و هو وقت مبارك للناس إذ عنده تنتهي الحالة الداعية إلى النوم الذي هو شبيه الموت؛ و يأخذ الناس في ارتجاع شعورهم و إقبالهم على ما يألفونه من أعمالهم النافعة لهم) ².

إذن فهذا هو المعنى العام و المعروف للفجر، لكن بعض المفسرين قالوا بأنّ المراد بالفجر هنا هو فجر خاص معيّن، فقالوا هو (وقت صلاة الصبح من كلّ يوم و هو عن قتادة) ³ كما قالوا أنّ (المراد به فجر يوم النحر خاصّة، و هو خاتمة الليالي العشر، و قيل المراد بذلك الصلاة التي تُفعل عنده كما قاله عكرمة، و قيل المراد به جميع النهار، و هو رواية عن ابن عباس) ⁴.

أما الليال العشر، فقد اختلف المفسرون في تحديد المراد بها أيضا، فعن مجاهد و ابن عباس أنّ المراد بها (ليال عشر من ذي الحجة ... وقال مسروق هي العشر التي ذكرها الله في قصة موسى عليه السلام {وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ}، وهي أفضل أيام السنة. وروى أبو الزبير عن جابر أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " {وَالْفَجْرُ وَلَيَالٍ عَشْرٍ} - قال : عشر الأضحى" فهي ليال عشر على هذا القول ؛ لأن ليلة يوم النحر داخلة فيه ... والله اعلم. وعن ابن عباس أيضا : هي العشر الأواخر من رمضان ؛ وقاله الضحاك. وقال ابن عباس

¹ - الشعراوي، تفسير جزء عمّ، ص348

² - محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير و التنوير، ج30، ص313

³ - المرجع نفسه، ج30، ص313

⁴ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج7، ص281

أيضا ويمان والطبري : هي العشر الأول من المحرم ، التي عاشرها يوم عاشوراء. وعن ابن عباس {وَلَيَالٍ عَشْرٍ} بالإضافة يريد : وليالي أيام عشر¹.

و قيل في الشفع و الوتر:

الشفع : الاثنان، والوتر : الفرد. واختلف في ذلك ؛ فروي مرفوعا عن عمران بن الحصين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال "الشفع والوتر : الصلاة ، منها شفع ، ومنها وتر"².

كما قال الزمخشري:

"إمّا الأشياء كلّها شفعها و وترها، و إما شفع هذه الليالي و وترها. و يجوز أن يكون شفعها يوم النحر و و ترها يوم عرفة لأنه تاسع أيامها و ذاك عاشرها"³.

{وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُّ}

معنى يسري: يمضي سائرا في الظلام، أي إذا انقضى منه جزء كثير.⁴ كما يقول ابن كثير:

"و قوله تعالى "وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُّ" قال العوفي عن ابن عباس: أي إذا ذهب ... و كذا قال الضحاك "وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُّ" أي يجري"⁵.

و قوله تعالى: { هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ } أي (لذي عقل و لبّ و حجا، و إنما سمي العقل حجرا لأنه يمنع الإنسان من تعاطي ما لا يليق به من الأفعال و الأقوال)⁶.

الترجمة:

ترجمتها ⁷	الآية
1- Par l'Aube !	وَالْفَجْرِ (1)
2- Et par les dix nuits !	وَلَيَالٍ عَشْرٍ (2)

¹ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج20، ص39.

² - المرجع نفسه، (ص ن).

³ - الزمخشري، الكشاف، ج4، ص249.

⁴ - محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير و التنوير، ج30، ص315.

⁵ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج7، ص283.

⁶ - المرجع نفسه، ص284.

⁷ - محمد حميد الله، القرآن الكريم مع ترجمة معانيه إلى اللغة الفرنسية، ص593.

3- Par le pair et l'impair !	وَالشَّفَعِ وَالْوَتْرِ (3)
4- Et par la nuit quand elle s'écoule !	وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (4)
5- N'est-ce pas là un serment, pour un doué d'intelligence ?	هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (5)

التحليل:

اجتمع في هذه السورة أكثر من قسم؛ إذ يقسم الله تعالى بالفجر، و بليال عشر، و بالشفع والوتر، و بالليل إذا يسري، و قد اختلف في تحديد المقصود من كل منها كما رأينا في التفسير.

و قد تكرر حرف القسم نفسه قبل كل واحد من هذه الأقسام و هو "الواو"؛ إذ ورد خمس مرات في قوله تعالى: {وَ الْفَجْرِ * وَ لَيَالٍ عَشْرٍ * وَ الشَّفَعِ وَ الْوَتْرِ * وَ اللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ}، و لهذا قيل عنها أنها أقسام خمسة كما جاء في تفسير القرطبي و كذلك في كتاب "أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن" للشنقيطي¹، و اعتمادا على ذلك يمكن القول بأن حروف الواو الواردة كلها تفيد القسم.

و جاءت ترجمة هذه الأقسام إلى الفرنسية كالاتي:

Par l'Aube !* Et par les dix nuits !* Par le pair et l'impair !* Et par la nuit quand elle s'écoule !

بالمقابلة بين الآيات و ترجمتها نجد أن ترجمة حرف الواو اختلفت من موضع لآخر؛ إذ نلاحظ أنها تُرجمت إلى الحرف "Par" والذي يفيد القسم في موضعين فقط: قبل "الفجر" و قبل "الشفع"، بينما تُرجمت إلى الحرف "Et" الذي يفيد العطف في موضع واحد: قبل "الوتر"، وجمعت الترجمة بين الحرفين "Par" و "Et" في الموضعين المتبقين؛ أي قبل "ليال عشر" و "الليل إذا يسر".

¹ - ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج20، ص38/ الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ص524.

و معنى هذا أنّ المترجم اعتبر "الواو" حرف قسم في أربعة مواضع، مع إضافة معنى العطف في موضعين منها، و أمّا "الواو" الخامسة، التي ربطت بين الشفع و الوتر في الآية الثالثة، فقد اعتبرها حرف عطف لا قسم.

و نحن مع رأي المترجم في اعتبار الواو الواردة قبل "الشفع" حرف عطف، و نستند في ذلك إلى ترتيب الآيات و تقسيمها؛ فكلّما أُريدَ قسم جديد جاء في آية جديدة، و أمّا قوله تعالى "وَالشَّفَعِ وَالْوَتْرِ" فجاء آية واحدة أي أنّه عطف الشفع على الوتر و أقسم بكليهما في آية واحدة، و لو أُريدَ القسم بكلّ منهما على حدة ل جاء قوله "و الوتر" آية جديدة، إذ لا يُمنع أن يكون القسم لفظاً واحداً كما في قولنا: "و الفجر" أو "و العصر"...، و الله أعلم.

و لكن ما قد يبدو غريباً في هذه الترجمة هو إضافة معنى العطف إلى القسم في قوله "Et par"؛ فـ"الواو" وردت للتعبير عن أحد المعنيين دون الآخر، و قد اتَّفَقَ على أنه القسم. ولكنّ المعلوم أنّ لكلّ لغة عبقرية خاصة تميّزها عن غيرها، و من خصائص اللغة العربية أنّها قادرة على التعبير عن عدّة معانٍ باستعمال لفظة واحدة، فعند قراءة النصّ بالعربية يمكن أن نفهم أنّ "الواو" قد جاءت هنا للقسم و للربط بين الأقسام في آن واحد. كما أنّ إضافة معنى العطف في الترجمة الفرنسية كان أمراً لا بدّ منه لضمان اتّساق النصّ و سلاسته؛ فلو جرّبنا حذف العطف و قرأنا النصّ الفرنسي لوجدنا مجموعة من الجمل غير المترابطة التي تفيد القسم بعدة أمور مختلفة.

و بالحديث عن اختلاف الأمور المُقسم بها في هذا المقام، نشير إلى أن بعض العلماء اجتهد في محاولة إيجاد العلاقة التي تجمع بينها و توحدّها، و مما قال الشيخ ابن عاشور في هذا الصدد:

"و مناسبة عطف (ليال عشر) على (الفجر) أنّ الفجر وقت انتهاء الليل، فبينه و بين الليل جامع المضادة، و الليل مظهر من مظاهر القدرة الإلهية فلمّا أُريدَ عطفه على الفجر بقوله (والليل إذا يسر) خُصّت قبل ذكره بالذكر ليال مباركة إذ هي من أفراد الليل... و مناسبة الابتداء بالشفع أنّه اليوم العاشر فناسب قوله (و ليال عشر)، و أن الوتر يوم عرفة، و على

هذا التفسير فذكر الشفع و الوتر تخصيص لهذين اليومين بالذكر للاهتمام، بعد شمول الليالي العشر لهما"¹.

إذن فقد أشار الشيخ ابن عاشور هنا إلى علاقة التضاد التي تجمع الفجر و الليل، و لكن الشيخ الشعراوي يرى بأنها ليست علاقة تضاد و تناقض، بل علاقة تكامل:

"فليس معنى التقابل هو التضاد أو التناقض، و إنما هو تقابل التكامل في الحياة. فالفجر جاء ليؤدي مهمة في الكون، و الليل جاء أيضا ليؤدي مهمة في الكون، و ليس من صالح الكون، و لا من صالح الإنسان، أن يستمر الليل في ظلامه، و لا أن يستمر النهار في ضوئه، فكل شيء من هذه الأشياء في الكون له مهمة يؤديها"².

ثم ينبّه فيما بعد إلى علاقة أخرى يمكن أن تجمع بين هذه الأقسام و هي اقترانها جميعا بعبادات معيّنة، و يخصّ بالذكر منها صلاة الفجر و الاستعداد للحجّ في شهر ذي الحجة:

"و الفجر الذي يقسم الله عزّ و جلّ به هنا، ليس مجرد ظهور الضوء الذي يمحو آية الليل، ولكنّه هو الفجر المقرون بأمر نسكي، تعبدي، يبتدئ الإنسان فيه يومه باستقباله لربّه، صلاة له..."³.

ثم يتمّ حديثه عن الليال العشر التي يذكر أنّ أصحّ ما قيل فيها أنّها عشر ذي الحجة:

"فعشر ذي الحجة هو الوقت الذي يحتشد فيه الناس لإتمام الركن الخامس من أركان الإسلام، فكأنّ الإسلام بهذه الليالي، أو بالاحتشاد فيها، قد استوفى كلّ أركانه"⁴.

و ليس الشعراوي وحده من تنبّه إلى وجود هذه العلاقة، و لكن ابن القيم أيضا أشار إليها في تبيينه حين قال:

"إنّ الفجر في الليالي العشر زمن يتضمّن أفعالا معظّمة من المناسك، و أمكنة معظّمة، وهي محلّها، و ذلك من شعائر الله، المتضمّنة خضوع العبد لربّه"⁵.

و يجدر الإشارة هنا إلى أنّ الدكتور حميد الله اعتمد هو الآخر في ترجمته لهذه الآيات الرأى القائل بأنّ المقصود بالليالي العشر هو عشر ذي الحجة، إذ أضاف هامشا لتفسير الآية الثانية أشار فيه إلى ذلك:

1 - محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير و التنوير، ج30، ص314.

2 - الشعراوي، تفسير جزء عمّ، ص ص(348، 349).

3 - المرجع نفسه، ص349.

4 - المرجع السابق، ص350.

5 - ابن قيم الجوزية، التبيان في أقسام القرآن، ص46.

Par les dix nuits : les dix premiers jours du mois de Dul-Hijja, culminant au Grand Pèlerinage, le 9^e jour et la fête du 10^e jour (la fête du sacrifice)¹.

و لكن عبد الرحمن الميداني يذهب في محاولته لفهم سرّ اجتماع هذه الأقسام في صدر سورة الفجر مذهباً آخر، إذ يرى أنّ لها علاقة بما ذكر فيما بعد عن مهلك أقوام عاد و ثمود و فرعون، فيقول:

"لقد أهلك الله عزّ و جلّ ثمودًا قوم صالح عليه السلام بالصيحة مصبحين، أي عند الفجر... و سار بنو إسرائيل من مصر بقيادة موسى عليه السلام، في ليالٍ عشر... و أهلك الله عزّ و جلّ عادًا قوم هود عليه السلام، إذ بعث إليهم عند الفجر ريحا صرصرا عاتية، سخّرها عليهم، و استمرّت سبع ليالٍ و و ثمانية أيام حسوما... فهي ثمانية هي {شفع} وليال سبع هي {وتر}..."²

و مع ما يلاحظ من تباين شاسع في هذه العلاقات المذكورة إلّا أنّها تشير جميعاً إلى أنّ هذه الأقسام لم ترد مجتمعة إلّا لأنها تشترك في أمر واحد و لكن اختلفت في تحديده؛ فتارة هو الدلالة اللفظية لكلّ منها، و تارة هو الدلالة الدينية التي يرمز إليها كلّ واحد و تارة أخرى هو الدلالة التاريخية التي يحملها عن إهلاك أقوام طاغية.

و الأمر الآخر الذي اختلف فيه -إضافة إلى الاختلاف في تحديد العلاقة التي تجمع بين الأمور المقسم عليها- هو تحديد المقسم عليه، (فقيل: هو مقدّر تقديره ليعذبّن يدلّ له قوله ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾. و قيل: موجود و هو قوله: {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ}، قاله القرطبي)³.

و يؤيد حسن حبنكة الميداني رأي القرطبي في أنّ الجواب هو قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ} كما يرى أنّه يناسب المقسم به؛ و يعتمد في ذلك على ما ذكر سابقاً عن علاقة الأمور المقسم بها ببعضها و بما ذكر في الآيات التي تلتها عن إهلاك الطّغاة. و بذلك فهو يفسّر المناسبة الواردة بين طرفي القسم بكون الأزمنة المقسم بها (الفجر، الليالي العشر...)

¹ - محمد حميد الله، القرآن الكريم مع ترجمة معانيه إلى اللغة الفرنسية، ص593.

² - عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزّ و جلّ، ص ص (468، 470).

³ - محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ص523.

كنايةً عن القسم بالأحداث التي جرت فيها، و عما فعله الله عزّ و جلّ بقوم عاد و ثمود و فرعون حين صبّ عليهم سوط عذاب، فجاء القسم على أنّ الله جلّت قدرته بالمرصاد لكلّ الطغاة في الأرض و أنّه سيعذبهم مثلما عذب السابقين على طغيانهم كعاد و ثمود و فرعون.

و لكن ابن القيم يخالفه وجهة نظره و يرى أنّ هذا الرأي ضعيف لوجهين:

(أحدهما: طول الكلام و الفصل بين القسم و جوابه بجمل كثيرة.

و الثاني: قوله: {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ}، ذكر لتقرير عقوبة الله الأمم المذكورة، و هي عاد، و ثمود، و فرعون. فذكر عقوبتهم ثمّ قال مقرّراً و محذّراً: {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ} فلا نرى تعلّقه بذلك دون القسم)¹.

و أمّا قوله تعالى: {هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ}، فهو اعتراض -مثل قوله تعالى {وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ} في سورة الواقعة- أو كما قال الشيخ الشعراوي هو دليل للجواب. و كما يلاحظ فإنّ هذا الاعتراض جاء جملة استفهامية "، فما الغرض من هذا الاستفهام؟

من الواضح أنّه ليس استفهاماً حقيقياً و لكن الغرض منه هو الإثبات و التقرير، و لهذا يسمى الاستفهام التّقريرى؛ و المعنى: إنّ القسم بهذه الأمور لقسم كافٍ و مقنع لكلّ ذي لبّ و عقل، و إنّهُ لقسم عظيم لمن يتدبّر و يتفكّر فيه.

ثمّ إنّ هذا الاستفهام استُؤنف بالحرف "هل" الذي يدلّ على التحقيق إذ هو بمعنى "قد"، و قد ورد هنا لتعظيم المقسم به و بيان مكانته و للدلالة على المقسم عليه و التّمهيد له.

سورة الليل:

قال الله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (1) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (2) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (3) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (4)﴾.

أركان القسم:

¹ - ابن قيم الجوزية، التبيان في أقسام القرآن، ص46.

المقسم	حرف القسم	المقسم به	المقسم عليه
الله عزّ و جلّ	الواو	الليل إذا يغشى، النهار إذا تجلّى، ما خلق الذكر و الأنثى	إنّ سعيكم لشتّى

التفسير:

قوله تعالى: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى} أي يُغْطِي. ولم يذكر معه مفعولا للعلم به. وقيل: يغشى النهار. وقيل: الأرض. وقيل: الخلائق. وقيل: يغشى كل شيء بظلمته.¹

{وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى} أي (ظهر بزوال ظلمة الليل أو تبيّن و تكشّف بطولوع الشمس)².

و قوله عزّ و جلّ { وَمَا خَلَقَ } بمعنى: (و القادر العظيم القدرة الذي قدر على خلق الذكر و الأنثى من ماء واحد، و قيل هما آدم و حواء. و في قراءة النبي صلى الله عليه و سلّم والذكر و الأنثى، و قرأ ابن مسعود: و الذي خلق الذكر و الأنثى. و عن الكسائي: و ما خلق الذكر و الأنثى بالجرّ على أنه بدل من محلّ، ما خلق بمعنى و ما خلقه الله: أي و مخلوق الله الذكر و الأنثى، و جاز إضمار اسم الله لأنه معلوم لانفراده بالخلق إذ لا خالق سواه)³.

{إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى} معناه (أنّ أعمال عباده لشتّى أي مختلفة في الجزاء، و شتى جمع شتيت مثل مرضى و مريض، وإنما قيل للمختلف شتّى لتباعد ما بين بعضه وبعضه، و الشتات هو التباعد و الافتراق، فكأنه قيل إن عملكم لمتباعد بعضه من بعض؛ لأن بعضه ضلال و بعضه هدى، و بعضه يوجب الجنان، و بعضه يوجب النيران، فشتان ما بينهما)⁴.

الترجمة:

الآية	ترجمتها ⁵
وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1)	1- Par la nuit quand elle enveloppe tout !
وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (2)	2- Par le jour quand il éclaire !

¹ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج20، ص80.

² - الزمخشري، الكشاف، ج4، ص260.

³ - المرجع السابق، ص ص: 260، 261.

⁴ - الرازي، مفاتيح الغيب، ج31، ص199.

⁵ - محمد حميد الله، القرآن الكريم مع ترجمة معانيه إلى اللغة الفرنسية، ص595.

3- Et par ce qu'Il a créé, mâle et femelle !	وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (3)
4- Vos efforts sont divergents.	إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَى (4)

التحليل:

رأينا فيما تقدّم من سورة الفجر تعدّد المقسم به في قسم واحد؛ إذ أقسم الله تعالى بالفجر ولبلال عشــــــــــــــــر و بالشفع و الوتر و بالليل إذا يسر، و ها هو قسم آخر بالليل تتعدّد فيه الأمور المقسم بها أيضا.

و قد جاء القسم بالليل في أكثر من موضع في القرآن الكريم؛ إذ ورد في المواضع الآتي ذكرها بحسب ترتيبها في المصحف الشريف:

1- سورة المدثر: "وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ (33)".

2- سورة التكوير: "وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ (17)".

3- سورة الانشقاق: "وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (17)".

4- سورة الفجر: "وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرَ (4)".

5- سورة الشمس: "وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (4)".

6- سورة الليل: "وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1)".

7- سورة الضحى: "وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2)".

فالليل آية من آيات الله في كونه التي تدلّ على قدرته و عظمته، و لهذا أقسم به الله سبحانه في جميع أحواله، و لكن القسم بالليل وقت غشيانه مقترنا بذكر النهار المتجلّي لم يرد إلا في موضعين: الأوّل في سورة الشمس في قوله: "وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (4)"، و الثاني في سورة الليل في قوله: "وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (2)"، و الملاحظ تقدّم القسم بالليل في سورة الليل و تأخره في سورة الشمس و ذلك ليناسب اسم كلّ سورة و غرضها و المقسم عليه فيها؛ ذلك (أنّه لما كان المقسم عليه في سورة الليل

سعي الإنسان، و غالبُه المعاصي، قدّم الليل الذي هو مظنة المعاصي لظلمته و ستره)¹. كما جاء في تفسير التحرير و التنوير بيان ذلك في قوله:

"و ابتدئ في هذه السورة بذكر الليل ثم ذكر النهار عكس ما في سورة الشمس لأنّ هذه السورة نزلت قبل سورة الشمس بمدة و هي سادسة السور و أيامئذ كان الكفر مخيماً على الناس إلّا نفراً قليلاً، و كان الإسلام قد أخذ في التجلي فناسب تلك الحالة بالإشارة إلى تمثيلها بحالة الليل حين يعقبه ظهور النهار"².

و كما ذكرنا في التفسير، فإنّ الفعل (يغشى) بمعنى يُغَطِّي، (و أتى بصيغة المضارع لأنّه يغشى شيئاً بعد شيء)³، و قد جاءت ترجمة هذه الآية الأولى إلى الفرنسية:

Par la nuit quand elle enveloppe tout !

أي أنّ حرف القسم تُرجم إلى الحرف (Par)، و الفعل (يغشى) دلّ على أنّه يغشى أو يغطي كلّ شيء، و هو أحد المعاني المذكورة في التفسير عن القرطبي.

و أمّا قوله تعالى: "وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى"، فقد اختلف في تحديد ماهية (ما) هنا و في المعنى الذي تؤدّيه وبالتالي في تحديد المقسم به؛ فعلى اعتبار أنّها اسم موصول بمعنى (الذي) يكون المقصود (و الذي خلق الذكر والأنثى؛ فيكون قد أقسم بنفسه عز وجل)⁴. و على اعتبار أنّ (ما) هنا بمعنى (من)، وهو قول أبي عبيدة وغيره، يكون (المعنى وما خلق من الذكر والأنثى؛ فتكون "من" مضمرة، و يكون القسم منه بأهل طاعته، من أنبيائه وأوليائه، و يكون قسمه بهم تكريمة لهم وتشريفاً)⁵. أمّا إذا اعتبرنا أنّها مصدرية على ما تقدّم، فيكون القسم بفعل الخلق الذي يُعدُّ أثراً من آثار قدرته سبحانه، فكأنّه أقسم سبحانه بكلّ ما خلق من ذكر و أنثى كما تقدّم ذكره عن الكسائي.

1 - أحمد مصطفى متولي، الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم و السنة النبوية، ص 681.

2 - محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير و التنوير، ج 30، ص 378.

3 - ابن قيم الجوزية، التبيان في أقسام القرآن، ص 71.

4 - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 20، ص ص: 80، 81.

5 - المرجع نفسه، ص 81.

و إذا رجعنا إلى الترجمة نجد أنّ الدكتور حميد الله قد اعتمد رأي الكسائي في كون المقسم به في الآية الثالثة ما خَلَقَهُ اللهُ من ذكر و أنثى، و هو الأقرب إلى الصواب، إذ المعلوم في الأسماء الموصولة أنّ (ما) تستعمل غالبا لغير العاقل -مع أنّها قد تأتي في بعض السياقات للعاقل و تكون بمعنى (الذي) أو (من)، و لكن هذه الحالات شاذة لا يُقاس عليها-، و قد جاءت هنا للتعميم؛ أي للإشارة إلى اختلاط العاقل بغيره مع تغليب غير العاقل تنبيها على كثرتة و تنوّع أشكاله، فليس المقصود من هذا القسم الإنسان وحده، بل تُضاف إليه الأجناس الأخرى -كالحيوان و النبات- بما فيها من ذكر و أنثى.

و إذا ما تأملنا الترجمة وجدنا أنّ فيها تصرّحا واضحا بأنّ الخلق من فعل الله الذي عبّر عنه بضمير الغائب المبتدأ بالحروف الكبيرة (Majuscule): (II) مع أنّ الفاعل مستتر غير صريح في الآية الأصل، و لكنه كما ذكرنا سابقا يفهم من السياق؛ إذ جاز إضمار اسم الله لانفراده بالخلق فلا خالق سواه. ثمّ أضاف بعد ذلك شرحا ينبّه فيه إلى أنّ هذا الخلق يشتمل على الذكر و الأنثى ليوازي بذلك المعنى المُعبّر عنه في الآية.

و أمّا جواب القسم فهو قوله تعالى: "إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى"، و الملاحظ أنّه جاء مؤكداً إذ استؤنف بين المشدّدة في حين غاب التعبير عن أيّ معنى للتوكيد في الترجمة الفرنسية.

و السعي كما رأينا هو العمل، و معناه: إنّ عملكم لمختلف. أي أنّه سبحانه و تعالى أقسم بظواهر مختلفة متضادة على أنّ أعمال العباد مختلفة و متضادة أيضا فمنهم من يعمل خيرا و منهم من يعمل شرا، و على هذا تكون عواقبهم مختلفة و متضادة أيضا، و لهذا قال بعدها: "فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى".

و هنا يظهر بجلاء أنّ المقسم به متناسب مع المقسم عليه، و قد تنبّه ابن القيم إلى وجود هذه العلاقة حين قال:

"أقسم سبحانه بزمان السعي، و هو: الليل و النهار، و بالساعي، و هو الذكر و الأنثى، على اختلاف السعي ... و أنه سبحانه لا يسوي بين من اختلف سعيه في الجزاء، كما لم يسو بين الليل و النهار و الذكر و الأنثى"¹.

كما أشار الشيخ ابن عاشور هو الآخر إلى التناسب الموجود بين طرفي القسم بقوله: "و مناسبة المقسم به للمقسم عليه أن سعي الناس منه خير و منه شرّ و هما يماثلان النور و الظلمة و أن سعي الناس ينبثق عنه نتائج منها النافع و منها الضار كما ينتج الذكر و الأنثى ذرية صالحة و غير صالحة"².

و قد عبّر المترجم عن اختلاف مساعي الناس و تباين أعمالهم في جواب القسم بقوله:

Vos efforts sont divergents.

و الصفة (divergents) في الفرنسية تدلّ على شدة البون و الاختلاف، و قد ناسبت اللفظ العربي (شتى)، فـ(شتى: واحده شتيت ؛ مثل مريض ومرضى. وإنما قيل للمختلف شتى لتباعد ما بين بعضه وبعضه)³.

إن فقد جاء هذا القسم تقريراً لحقيقة العمل و الجزاء في إطار من الآيات الكونية التي تدلّ على قدرة الخالق سبحانه، و جاءت عناصره متناسبة يدلّ بعضها على بعض في نسق تعبيرى بديع، و كلّ هذا من بلاغة الأسلوب القرآني و بديع صورته، كما جاءت ترجمة معناه إلى اللغة الفرنسية مستوفية جميع عناصره -فيما عدا توكيد الجواب- و معبرة عن جميع معانيه المقصودة بدقة كبيرة و اختيار محكم للألفاظ المناسبة للمقام.

سورة التين:

قال الله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (1) وَطُورِ سِينِينَ (2) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (3) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4)﴾.

¹ - ابن قيم الجوزية، التبيان في أقسام القرآن، ص: 71، 72.

² - محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير و التنوير، ج30، ص378.

³ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج20، ص82.

أركان القسم:

المقسم	حرف القسم	المقسم به	المقسم عليه
الله عزّ و جلّ	الواو	التين و الزيتون، طور سينين، هذا البلد الأمين	لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم

التفسير:

اختلف المفسرون هنا في تفسير قوله تعالى : {والتين والزيتون}، فقيل: (هو تينكم الذي تأكلون، وزيتونكم الذي تعصرون منه)¹ أي أنّ المقصود هو ثمرتا التين و الزيتون المعروفتان.

و لكن البعض فسّرهما بالأماكن المقدّسة التي تكثّر فيها أشجار هاتين الثمرتين، و ذلك لئناسبا ما أقسم به بعدهما، و ها هو قول الشيخ ابن عاشور في هذا الصدد:

"و لكن مناسبة ذكر هاذين مع (طور سينين) و مع (البلد الأمين) تقتضي أن يكون لهما محمل أوفق بالمناسبة فرؤي عن ابن عباس أيضا تفسير التين بأنّه مسجد نوح الذي بُني على الجودي بعد الطوفان. و لعلّ تسمية هذا الجبل التين لكثرة فيه إذ قد تُسمّى الأرض باسم ما يكثّر فيها من الشجر (...). والزيتون يُطلق على الجبل الذي بُني عليه المسجد الأقصى لأنه يُنبت الزيتون"².

وقيل أيضا: (جبلان من الأرض المقدّسة يقال لهما بالسريانية طور تينا و طور زيتا لأنهما منبتا التين و الزيتون)³.

و أمّا الفراء فقال:

"سمعت رجلا من أهل الشام و كان صاحب تفسير قال: التين جبال ما بين حلوان إلى همدان ، و الزيتون: جبال الشام"¹.

¹ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج20، ص110.

² - محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير و التنوير، ج30، ص421.

³ - الزمخشري، الكشاف، ج4، ص268.

و عن {طور سينين} فقد قيل أنه (الجبل الذي كلم الله تعالى عليه موسى، و معنى سينين المبارك أو الحسن بالأشجار المثمرة).²

فكلمة {طور} تعني (الجبل بلغة النبط و هم الكنعانيون (...)) و قيل: سينين اسم الأشجار بالنبطية أو بالحبشية، و قيل: معناه الحسن بلغة الحبشة)³.

و قوله: {و هَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ}: (يعني مكة. سماه أميناً لأنه آمن؛ كما قال: {أَنَا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا} فالأمين: بمعنى الآمن)⁴.

و أما قوله عن خلق الإنسان {فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} ف_____ (هو اعتداله واستواء شبابه؛ كذا قال عامة المفسرين. وهو أحسن ما يكون؛ لأنه خلق كل شيء منكبا على وجهه، وخلق هو مستويا، وله لسان ذلق، ويد وأصابع يقبض بها. وقال أبو بكر بن طاهر: مُزِينًا بالعقل، مُؤَدِيًا للأمر، مَهْدِيًا بالتمييز، مَدِيد القامة؛ يتناول مأكوله بيده)⁵.

الترجمة:

ترجمتها ⁶	الآية
1- Par le figuier et l'olivier !	وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ (1)
2- Et par le Mont Sīnīn !	وَطُورِ سَيْنِينَ (2)
3- Et par cette Cité sûre !	وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (3)
4- Nous avons certes créé l'homme dans la forme la plus parfaite.	لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4)

التحليل:

¹ - الفراء، معاني القرآن، ج3، ص276.
² - جلال الدين المحلي و جلال الدين السيوطي، القرآن الكريم و بهامشه تفسير الإمامين الجليلين، ص597.
³ - محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير و التنوير، ج30، ص421.
⁴ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج20، ص113.
⁵ - المرجع نفسه، ج20، ص114.
⁶ - محمد حميد الله، القرآن الكريم مع ترجمة معانيه إلى اللغة الفرنسية، ص597.

أقسم الله سبحانه و تعالى في هذا الموضع بالتين و الزيتون و طور سينين و البلد الأمين على أنه خلق الإنسان خلقة تامة معتدلة في أحسن صورة.

و قد حاول المفسرون إيجاد و تفسير العلاقة التي جمعت هذه الأشياء المُقسم بها في هذا القسم، و من جملة ما قالوا أنها أمكنة عظيمة مباركة تمثل إحدى مظاهر أنبياء الله و شرائعه؛ إذ جاء عنها في تفسير ابن كثير:

"هذه محال ثلاثة بعث الله في كل واحد منها نبيا مرسلا من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار: فالأول محلة التين و الزيتون و هي بيت المقدس التي بعث الله فيها عيسى بن مريم عليه السلام. الثاني طور سينين، و هي طور سيناء الذي كلم الله عليه موسى ابن عمران. والثالث مكة، و هو البلد الأمين الذي من دخله كان آمنا، و هو الذي أرسل فيه محمدا صلى الله عليه و سلم"¹.

و أول ما أقسم به الله عزّ و جل في هذه السورة هو التين و الزيتون، و قد جاءت ترجمة اللفظين على اعتبار أنّ المقصود منهما هو شجرتا هاتين الثمرتين: " Par le figuier et l'olivier !"، و هو ما يبدو للوهلة الأولى غير متماشٍ مع السياق و مع ما يُقسَم به من بعده على الشاكلة التي بيّنها ابن كثير و غيره من المفسرين. و لهذا يجدر الإشارة هنا إلى أنّ الدكتور حميد الله قد أضاف هامشا لترجمته بيّن فيه أنّ المقصود بالتين و الزيتون هو أمكنة وجود أشجار هاتين الثمرتين بكثرة:

*Le figuier et l'olivier : sont visés par là les pays qui produisent ces fruits en abondance.*²

و هذا هو المعنى الذي يتطلّبه السياق.

¹ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج7، ص324.

² - محمد حميد الله، القرآن الكريم مع ترجمة معانيه إلى اللغة الفرنسية، ص597.

و مع أنّ هذا المعنى -أي القسم بأماكن وجود أشجار هاتين الثمرتين- يعظّم هذه الأماكن أكثر من تعظيم الثمرتين في حدّ ذاتهما، إلّا أنه لا ينفي ما لهما من قيمة عالية و مكانة مميزة و إعجاز جليّ.

جاء في تبيان ابن القيم عن ذلك قوله:

"إنّه سبحانه أقسم بهذين النوعين من الثمار لمكان العزّة فيهما"¹.

كما أورد محمد كامل عبد الصمد في كتابه "الإعجاز العلمي في الإسلام" موضعا تحدّث فيه عن فوائد التين فقال:

"التين ثمرة مباركة ذكرها الله تعالى في كتابه العزيز، و أقسم بها، لمدى أهميتها الكبيرة و عظم فائدتها و هذا ما أكّده العلم الحديث الآن. فلقد تبين أن التين من الثمار ذات القيمة الكبرى، فهو قلوي يزيل حموضة الجسم التي هي منشأ الأمراض، و هبوط القوى و الشعور بالوهن، و يغسل الكلى و المسالك البولية..."²

كما جاء ذكر فوائد التين في الحديث الشريف، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: "لو قلت إنّ فاكهة نزلت من الجنة قلت: التين، كلوا منه فإنّه يقطع البواسير و ينفع النقرس"³.

و لقد أثبت العلم الحديث نجاعة التين في علاج هذه الأمراض فعلا، فقد (اكتشف علماء الأغذية مؤخرا أن التين عالي القيمة الغذائية، و خاصة لاحتوائه على السكريات الأحادية، و العناصر المعدنية، و الفيتامينات. و شاع استخدامه في علاج الإمساك، أما كونه يقطع البواسير فيرجع ذلك إلى كونه مسهّلا و قابضا. و أما ما يخصّ علاج النقرس (...). فجميع

¹ - ابن قيم الجوزية، التبيان في أقسام القرآن، ص61.

² - محمد كامل عبد الصمد، الإعجاز العلمي في الإسلام- القرآن الكريم، ص253.

³ - أحمد مصطفى متولي، الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم و السنة النبوية، ص1003.

الأدوية التي تعطى لعلاج النقرس تثبّط عمل الإنزيم جزئياً، لكن التين ينظم عمل الإنزيم، وذلك لأنّ النقرس عبارة عن خطأ في التمثيل الغذائي¹.

هذا عن التين، (و أما الزيتون ففيه من الآيات ما هو ظاهر لمن اعتبر. فإنّ عوده يخرج ثمراً، يعصر منه هذا الدهن الذي هو مادة النور و صبغ للأكلين، و طيب و دواء، و فيه من مصالح الخلق ما لا يخفى، و شجره باق على ممر السنين المتطاولة. و ورقه لا يسقط)².

و تفيد الأبحاث العلمية أن الزيتون يعتبر مادة غذائية جيّدة، ففيه نسبة كبيرة من البروتين، كما يتميز بوجود الأملاح الكلسية و الحديدية و الفوسفاتية. و هذه مواد هامة و أساسية في غذاء الإنسان، فضلا عن ذلك فإن الزيتون يحتوي على فيتامين "أ"، "ب".³

الآن و قد بيّنا بعضاً مما قيل في إعجاز التين و الزيتون و فوائدهما و الحكمة التي تبدو لنا من الإقسام بهما، ننتقل إلى المُقسَم به الثاني في هذه السورة و هو {طور سينين} الذي جاءت ترجمته:

Et par le Mont Sīnīn !

و هنا أيضا نلاحظ أنّ المترجم أضاف هامشاً لتوضيح المراد بهذا المقسم به إذ قال:

Il s'agit du Mont Sināi.⁴

فالمراد هنا هو الجبل المعروف بجبل سينا. كما قيل أيضاً أنّه عُرِف بـ "طور سينين" (لوقوعه في صحراء سينين، و سينين لغة في سين و هي صحراء بين مصر و بلاد فلسطين)⁵.

و آخر ما أقسم به الله سبحانه في هذه السورة هو البلد الأمين و هو مكّة، و قد

ترجمت بقوله: Et par cette Cité sûre !

¹ - المرجع السابق، ص ن.

² - ابن قيم الجوزية، التبيان في أقسام القرآن، ص 61.

³ - محمد كامل عبد الصمد، الإعجاز العلمي في الإسلام- القرآن الكريم، ص 253.

⁴ - محمد حميد الله، القرآن الكريم مع ترجمة معانيه إلى اللغة الفرنسية، ص 597.

⁵ - محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير و التنوير، ج 30، ص 421.

و هنا أيضا لا ننسى أن نشير إلى الهامش الذي أضافه الدكتور حميد الله لبيان حقيقة المقسم به مخافة ألا يفهمه المتلقي بعد أن ترجمه ترجمة حرفية، فقال:

*Cette Cité sûre : La Mecque.*¹

و أخيرا وضّح المترجم -في هامش تلا هذا الهامش- علاقة الأشياء المقسم بها بعضها ببعض كما وضّحناه فيما سبق بقوله:

Ce verset ainsi que les deux précédents font allusion aux lieux des révélations des trois religions monothéistes.²

أي أن الأشياء المقسم بها هنا تشترك في أنها أماكن نزول الوحي بالنسبة للأديان السماوية الثلاثة (اليهودية التي بُعث بها سيدنا موسى عليه السلام و المسيحية التي بُعث بها سيدنا عيسى عليه السلام و الإسلام الذي بُعث به سيدنا محمد صلى الله عليه و سلّم).

و أما حرف القسم المستعمل في هذه الأقسام جميعا فهو "الواو"، و قد ترجم على غرار ما سبقه من المواضع بالحرف الفرنسي "par".

و الملاحظ أيضا أنّ هذه الأقسام جميعا قد ذُيّلتُ بأداة تعجّب (!) مع غياب أي تعبير عن معاني التعجّب في الآيات الأصل. و ليست هذه الملاحظة خاصة بهذه الأقسام دون غيرها، فقد سبق الإشارة إليها في أكثر من موضع قبل الآن، و قد أرجعنا ذلك -و الله أعلم- إلى غياب فعل القسم، فهذا مجرد اجتهاد خاص كان نتيجة لملاحظة ترجمة الأقسام بصيغها المختلفة في مواضعها المختلفة.

نعود الآن للحديث عن الأمر المقسم عليه هنا و هو قوله تعالى: "لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ" أي على أحسن صورة و أجمل شكل، فالتقويم هو (تصيير الشيء على ما ينبغي أن يكون في التأليف و التعديل)¹.

¹ - محمد حميد الله، القرآن الكريم مع ترجمة معانيه إلى اللغة الفرنسية، ص597.

² - المرجع نفسه، ص ن.

و قد جاءت الترجمة الفرنسية موافقة للمعنى المراد:

Nous avons certes créé l'homme dans la forme la plus parfaite.

و الملاحظ أنّ جواب القسم جاء مصاحباً بلفظة (لقد) المكونة من اللام و قد لإفادة تأكيد الأمر المقسم عليه و بيان عظمته، و قد أشار المترجم في ترجمته إلى معنى التوكيد هذا بقوله "certes".

من كلّ ما سبق يظهر لنا أن الله سبحانه يقسم بأمكنة ثلاثة ظهر فيها أعظم خلقه داعين إلى أعظم شرائعه على أنه خلق الإنسان في أحسن صورة و أبدع في تصويره. و قد يتساءل السائل عن المناسبة بين المقسم به و المقسم عليه في هذه السورة، و أحسن ما يمكن أن يُقال جواباً على ذلك أنه سبحانه ————— و تعالى أقسم بهذه الأمكنة الثلاثة التي تدلّ على وجوده جلّ وعلا و على علمه و حكمته و عنايته بخلقه - بأن أرسل لهم منها رسلاً يعرفونهم بربهم و شرائعه - على خلق الإنسان و تصويره أحسن تصوير و ذلك من أعظم الآيات الدالة عليه سبحانه و على قدرته و حكمته و علمه و صفات كماله.

سورة العاديات:

قال الله تعالى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (1) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (2) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (3) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (4) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (5) إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (6)﴾.

أركان القسم:

¹ - ابن قيم الجوزية، التبيين في أقسام القرآن، ص62.

المُقَسِّم	حرف القسم	المقسّم به	المُقَسَّم عليه
الله عز و جلّ	الواو	العاديّات	إنّ الإنسان لربه لكنود

التفسير:

جاء في تفسير التحرير و التنوير في بيان معنى كلمة {عاديّات}:

"العاديّات: جمع العادية، و هو اسم فاعل من العدو، و هو السير السريع يُطلق على سير الخيـل و الإبل خاصة. و قد يوصف به سير الإنسان و أحسب أنه على التشبيه بالخيـل (...). و تأنيث هذا الوصف هنا لأنه من صفات ما لا يَعْقِل"¹.

و أمّا الضبح فهو من أصوات الخيل و قد أورده الإمام النيسابوري في تفصيل أصوات الخيل فقال:

"و الضَّبْح صوت نَفْسِهِ إذا عدا"².

فالضبح هو (اضطراب النَّفْس المتردّد في الحنجرة دون أن يخرج من الفم، و هو من أصوات الخيل و السباع (...). و هو ليس بصهيل و لا حممة، و لكنّه صوت نَفْس)³.

و قوله تعالى: "{فَالْمُورِيَّاتِ قَدْحًا}":

"الموريات: التي توري، أي توقد. و القدح: حكّ جسم على آخر ليقدح نارا؛ يُقال: قدح فـأورى. و المعنى: قاذحات حاكّات بحوافرها الحجارة، فتتقدح منها شرارات نارية"⁴.

و يرى ابن عاشور أنها استعارة للتعبير عن اشتعال نار الحرب، إذ يقول: "و يجوز أن يكون {الموريات قدحا} مستعار لإثارة الحرب لأنّ الحرب تُشَبَّه بالنار"⁵.

¹ - محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير و التنوير، ج30، ص498.

² - أبو منصور إسماعيل الثعالبي النيسابوري، كتاب فقه اللغة و سرّ العربية، دط، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، دت، ص210.

³ - خالد قاسم بن دومي، دلالات الظاهرة الصوتية في القرآن الكريم، ط1، عالم الكتب الحديث، إربد- الأردن، 2006، ص ص: 251، 252.

⁴ - المرجع نفسه، ص252.

⁵ - محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير و التنوير، ج30، ص500.

و المغيرات: اسم فاعل من أغار، و الإغارة تُطلق على غزو الجيش دارا و هو أشهر إطلاقها. فإسناد الإغارة إلى ضمير "العاديات" مجاز عقلي فإنّ المُغيرين راكبوها و لكن الخيل أو إبل الغزو أسباب للإغارة و وسائل.¹

و قوله تعالى: "فَأَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا" يعني غبارا في مكان معترك الخيول.²

و قوله "فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا" أي فوسطن بركبانهن العدو؛ أي الجمع الذي أغاروا عليهم.³

و قوله عزّ و جلّ: "إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ": (أي إن الإنسان كفور بطبعه للنعمة، كثير الحجد لها، و عدم الإقرار بمقتضاها الموجب لشكر الخالق المنعم، و الخضوع لشرعه و أحكامه)⁴ وقيل: (الكنود بلسان كندة العاصي، و بلسان بني مالك البخيل، و بلسان مضر و ربيعة الكفور: يعني أنه لنعمة ربّه خصوصا لشديد الكفران)⁵.

الترجمة:

الآية	ترجمتها ⁶
وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (1)	1- Par les coursiers qui halètent.
فَالْمُورِيَّاتِ قَدْحًا (2)	2- qui font jaillir des étincelles.
فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (3)	3- qui attaquent au matin.
فَأَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا (4)	4- et font ainsi voler la poussière.
فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (5)	5- et pénètrent au centre de la troupe ennemie.
إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (6)	6- L'homme est, certes, ingrat envers son Seigneur ;

التحليل:

أقسم الله تعالى في صدر هذه السورة بالخيول العاديات الضابحة بأصواتها، القادحة بحوافرها، المغيرة مع الصباح و المثيرة للغبار على أنّ الإنسان كفور جحود بنعم ربّه عليه.

¹ - المرجع نفسه، ج30، ص500.

² - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج7، ص353.

³ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج20، ص160.

⁴ - وهبة الزحيلي، التفسير المنير (في العقيدة و الشريعة و المنهج)، ط9، دار الفكر بدمشق، دت، ج30، ص765.

⁵ - الزمخشري، الكشاف، ج4، ص278.

⁶ - محمد حميد الله، القرآن الكريم مع ترجمة معانيه إلى اللغة الفرنسية، ص599.

و قد ذكرنا فيما سبق أنّ معنى الضبح هو صوت الأنفاس المتردّدة في الحنجرة عند العدو و يُطلق على الخيل و السباع خاصّة فعن أهل اللغة قولهم (ليس شيء من الدواب يضبح إلا الفرس و الثعلب و الكلب)¹، و قد جاءت ترجمته إلى اللغة الفرنسية بالفعل "haleter" الذي يعني التنفّس بسرعة أو إحداث صوت عند العدو، و هذا الفعل يخدم المعنى المطلوب في هذا السياق بيد أنّه يُطلق في اللغة الفرنسية على جميع المخلوقات بما فيها الإنسان، في حين يختص الضبح في العربية بفئة معيّنة من الدواب و لا يصحّ إطلاقه على الإنسان قطّ.

و قد استؤنفت الآية الأولى من هذا القسم بحرف القسم "الواو" -الذي ترجم كالمعتاد بالحرف "Par"- في حين استؤنفت الآيات الأربعة التي تلتها بحرف العطف "الفاء" الذي يفيد التعقيب؛ فكأن هذه السورة تقدّم لنا وصفا دقيقا مفصّلا لخيّل المعارك في مشهد بديع و تصف لنا حركاتها الواحدة عقب الأخرى (منذ أن تبدأ عدوها و جريها ضابحة بأصواتها المعروفة حين تجري، قارعة للصخر بحوافرها حتى توري الشرر منها، مغيرة في الصباح الباكر لمفاجأة العدو، مثيرة للنعق و الغبار.. غبار المعركة على غير انتظار، و هي تتوسط صفوف الأعداء على غرّة فتوقع بينهم الفوضى و الاضطراب)².

و للتعبير عن هذا الجوّ الصاخب فقد جاء الإيقاع الدال عليه شديدا و عنيفا، فيه خشونة ودمدمــــة و فرقة، كما أنّ كلمات الآيات قوية من حيث المبنى و المعنى و مناسبة للسياق. ثمّ (إنّ ما تحدّثه هذه الكلمات التي تنتهي بها الآيات من إيقاع يهزّ النفس، مصدره بناء حروف هذه الكلمات، و الدقة في مخارجها (...)) و إنّ التناسق في هذا الإيقاع ينجلي بوضوح عند فحص نطقنا لها، إذ يأخذ اللسان دوره، فتعقبه الحنجرة)³.

و إذا تأملنا الآيات لاحظنا فيها وجود سجع في قولنا (ضبحا، قنحا، صباحا) / (نقعا، جمعا) و تناسقا بين مقاطعها و تناغما بين ألفاظها (العاديات، الموريات، المغيرات) / (فأثرن،

¹ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج20، ص156.

² - الشعراوي، تفسير جزء عمّ، ص486.

³ - خالد قاسم بن دومي، دلالات الظاهرة الصوتية في القرآن الكريم، ص253.

فوسطن)، و كلّ هذا غير ظاهر في ترجمة معانيها بل لا يمكن أن يظهر أبدا لانفراد لغة القرآن بأسلوب معجز. كما أنّ تكرار بعض الحروف خدم السياق بشكل كبير و ناسب موضع الشدة والقوة فيه (فعلى سبيل المثال لا الحصر، تبدو مظاهر الجزالة و القوة في تعدّد الباءات، حيث تكررت أربع مرات، و الباء صوت شفوي انفجاري (...). و العين ذات قيمة تعبيرية واضحة في تصوير الحركات والأصوات العنيفة، و تكررت هنا ثلاث مرات. و مثلها الراء، التي تعطي نبزا قويا مضافا إلى طبيعة هذا الصوت الذي يتكرر في أثناء نطقه. و الميم حرف ثقيل مضغوط، يشدّ عضلات الفم كلّها حتى يؤدّي على هيئة صوت، و قد تكررت أيضا ثلاث مرات. أما القاف فهي من أثقل الحروف نطقا؛ لأنّ مخرجها من أقصى الحلق إلى ملتقى الشفتين، و تكررت مرتين... إلخ. و ما تكرار هذه الأصوات إلّا أداة يقتضيهما المقام من دواعي القوة التي تحيط بالمشهد)¹.

و كلّ هذا يقدّم لنا مثلا واضحا عن الفرق الشاسع بين القرآن الكريم و ما يمتاز به أسلوبه الراقى المعجز و بين الترجمة؛ فالترجمة تهتم بنقل المعنى دون المبنى و مهما رقيت فلن تصل إلى نقل جميع المعاني المعبر عنها باستعمال الأساليب اللغوية البليغة و اختيار الألفاظ المناسبة للسياق، و هذا أمر مفروغ منه لا يختلف فيه اثنان. فالإعجاز القرآني يظهر جليا في هذه السورة من خلال تصوير المشاهد و المواقف المراد التعبير عنها تصويرا بديعا لا يهمل أيّ تفصيل: إنه يعرض لنا مشهدا (لمعركة دائرة محتدمة بين المحاربيين يثور فيها الغبار فيمتلئ به جوّ المعركة، المعركة التي يتطاير فيها الشرر المنفدح بفعل الاصطكاك، و يتعالى صوت أنفاس الخيل و هي تعدو راکضة نحو العدو)² و كلّ ذلك بأسلوب فذّ و عبارات متناسقة.

¹ - المرجع السابق، ص ص: 254، 255.

² - أمير عيد العزيز، إعجاز القرآن، ط1، مكتبة دنديس- جامعة النجاح الوطنية، نابلس-فلسطين، 1428هـ/ 2007م، ص 170.

و أما المقسم عليه هنا فهو قوله تعالى: "إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ"، و قد ترجمت كلمة "كنود" إلى اللغة الفرنسية بـ "ingrat" التي تعني الجحود الذي يكفر النعمة و يُنكر الفضل. و هذا كما رأينا في التفسير هو المعنى المُعبّر عنه في العربية.

و قد جاء المقسم عليه هنا أيضا -كما في سائر المواضع التي سبقته- مصحوبا بجملة من المؤكّدات التي تهدف إلى تقويته و إبراز معناه و التأكيد عليه؛ ذلك أنه ابتدئ بـ "إنّ" المشدّدة تلتها اللام الداخلة على خبرها في قوله "لكنود"، إضافة إلى اللام في قوله "لربّه" فهي (لام التقوية (...)) و تقديم "لربّه" لإفادة الاهتمام بمتعلّق هذا الكنود لتشجيع هذا الكنود بأنّه كنود للرب الذي هو أحقّ الموجودات بالشكر¹. و قد أشار المترجم إلى كلّ هذه المؤكّدات بلفظة واحدة هي "certes".

ننتقل الآن إلى محاولة فهم المناسبة بين طرفي القسم هنا و اللذان يبدوان من الوهلة الأولى متباعدين لا علاقة تجمعهما، فالسؤال الذي يتبادر إلى الأذهان: ما العلاقة بين القسم بالجياد العاديات و بين كون الإنسان كنودا جحودا؟

و الجواب أنّ بينهما علاقة وثيقة؛ (فالإنسان في حركته السريعة لجحود نعمة ربّه، و حركته اللاهثة وراء المال، تشبه حركة الخيول السريعة في جريها، الضابحة بأصواتها، القادحة بحوافرها، و المثيرة للغبار من حولها)². ثمّ إنّ هذا القسم و ما فيه من الإخبار بكنود الإنسان أتبع بآيات فيها استفهام إنكاري عن عدم علم الإنسان بوقت بعثرة ما في القبور و تحصيل ما في الصدور و كلّ هذا متعلّق ببعضه (فلاحظ امتداد المطلع بجوّه المعفّر بالغبار و التراب، و حركة نبش الأرض بحوافر الخيل، ليصل إلى حركة بعثرة القبور، و حركة

¹ - محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير و التنوير، ج30، ص504.

² - خالد قاسم بن دومي، دلالات الظاهرة الصوتية في القرآن الكريم، ص256.

البعثرة تتم من الداخل إلى الأعلى، كذلك حوافر الخيل تنبش التراب من تحت حوافرها بحركة شديدة عنيفة مماثلة في اتجاهها لحركة بعثرة القبور)¹.

سورة العصر:

قال الله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2)﴾.

أركان القسم:

حرف القسم	المقسم	المقسم به	المقسم عليه
الواو "و"	الله عزّ و جلّ	العصر	إنّ الإنسان لفي خسر

التفسير:

اختلف العلماء في تفسير "العصر"، لتعدد المعاني اللغوية للكلمة، فمنهم من قال بأن المقصود به هنا هو صلاة العصر. قال الزمخشري في تفسيره "الكشاف": (أقسم بصلاة العصر لفضلها ... بدليل قوله عليه الصلاة و السلام "من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله و ماله" و لأنّ التكليف في أدائها أشقّ لتهافت الناس في تجارتهم و مكاسبهم آخر النهار و اشتغالهم بمعاشهم).²

و منهم من قال بأنه وقت تأدية هذه الصلاة أي الفترة التي تمتدّ (ما بعد الزوال إلى الغروب)³

أما ابن كثير فقال: (العصر: الزمان الذي يقع فيه حركات بني آدم من خير و شرّ).⁴

و قيل أيضا: (العصر: الليل و النهار. قال حميد بن ثور:

¹ - المرجع السابق، ص: 256، 257.

² - الزمخشري، الكشاف، المجلد الرابع، ص 282.

³ - تفسير الجلالين، ص 601.

⁴ - تفسير ابن كثير، ج 7، ص 366.

و لن يلبث العصران: يوم و ليلة إذا طلبا أن يُدركا ما تيمّما¹.

و قيل، و هو الغالب، أن العصر بمعنى الدهر، أي (أنه زمان يشمل ليلاً و نهاراً، و قد يشمل أسابيع، و قد يشمل شهوراً، إلا أن هذا الزمن يحكمه طابع خاص في مقوماته.. في مشخّصاته.. في أحواله.. في حضارته، كما نقول: عصر الجاهلية.. عصر فجر الإسلام.. العصر الأموي...)².

و قد جمع الشيخ محمد متولي الشعراوي كل هذه المعاني في قوله: (إذن فالعصر متدرّج في مفهوم معانيه.. المعنى الأوّل: العبادة.. المعنى الثاني: وقت هذه العبادة.. المعنى الثالث: الوقت الذي يجمعه طائفة طبيعية من الخصوصيات كالنهار أو الليل.. أو يُطلق العصر على طائفة من الزمان تعمّ ليلاً و نهاراً، و لكن لها طابع خاص يحكمها، هذا الطابع الخاص قد يكون طابعاً سياسياً، أو تحضرياً، أو علمياً.)³

الترجمة:

الآية	ترجمتها ⁴ .
وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2)	1- Par le temps ! 2- L'homme est certes, en perdition.

التحليل:

آخر موضع من مواضع القسم في القرآن الكريم هو هذا الموضع الذي جاء في سورة العصر، (و هذه السورة على غاية اختصارها لها شأنٌ عظيمٌ، حتّى قال الشافعي رحمه الله: "لو فكرّ الناس كلّهم فيها لكفتهم")⁵.

و قد ذكرنا سابقاً أنّ القسم بغير الله حرام في ملّتنا و أنّ له سبحانه وحده أن يقسم بما شاء على ما شاء، و أنّ في قسمه تبييناً لعظمة المُقسّم به و المُقسّم عليه، و هو جلّ شأنه

¹ - شمس الدين القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج20، ص179.

² - محمد متولي الشعراوي، تفسير جزء عم، ص 521.

³ - المرجع نفسه، (ص ن).

⁴ - محمد حميد الله، القرآن الكريم مع ترجمة معانيه إلى اللغة الفرنسية، ص 601.

⁵ - ابن قيم الجوزية، التبيان في إيمان القرآن، ص 133.

يقسم في هذه السورة بالعصر على عاقبة الإنسان و على حاله في الآخرة، كما ذكرنا مختلف المعاني التي ذهب إليها العلماء في تفسير معنى العصر هنا و قلنا بأنّ الغالب هو تفسيره بالدَّهر أو الفترة من الزمن. و كما نلاحظ في الترجمة فهذا هو المعنى الذي اعتمده المترجم إذ ترجم الآية الأولى " و العصر " بقوله " Par le temps " ، أي أنه ترجم حرف القسم "الواو" بـ: Par، و "العصر" بـ: le temps، و هذا يعني أنه استبعد الرأي القائل بأنّ العصر يعني صلاة العصر أو وقتها، و لكنه تبنّى الرأي الغالب المذكور أعلاه و القائل بكونه الزمن أو الوقت أو العهد.

أما الآن و قد عرضنا معاني "العصر" و ترجمته، نعود لنبحث في سبب إقسام الله عزّ وجلّ به.

قيل، و كما ذكرنا سابقا عن الزمخشري، أنه تأكيد على أداء صلاة العصر لأنها في آخر النهار، و هو الوقت الذي يكون فيه الناس منشغلين بأعمالهم و متلهّفين لإتمامها.

وقيل : (هو قسم بعصر النبي صلى الله عليه وسلم ، لفضله بتجديد النبوة فيه).¹

و قيل أيضا: (لأنّ العصر هو وقت الحصيصة النهائية في حساب الإنسان على عمله اليومي)²، فإن كان عمله هذا يؤدّي له النفع و يعود عليه بالخير فسيُسَرُّ به، و إن كان خلاف ذلك فسيندم أشدّ الندم و يكون من الخاسرين.

و لكن علام أقسم سبحانه بالعصر في الآية الكريمة؟ و ما المناسبة بينهما؟

أقسم سبحانه و تعالى بالعصر على أنّ "الإنسان لفي خسر"، أي في خسارة و هلاك، وقيل بمعنى عقوبة و شرّ و نقصان.

و يمكن أن يفهم هذا بالخسران الدنيوي كالتجارة مثلا، أو الخسران في الآخرة.

¹ - شمس الدين القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج20، ص179.

² - محمد متولي الشعراوي، تفسير جزء عم، ص 524.

يقول الإمام ابن قيم الجوزية -رحمه الله- في شرح المناسبة بينهما: (فأقسم بـ"العصر" الذي هو زمان أفعال الإنسان و محلّها على عاقبة تلك الأفعال و جزائها).¹

إلّا أن الله عزّ و جلّ استثنى من جنس الإنسان "الذين آمنوا و عملوا الصالحات و تواصوا بالحق و تواصوا بالصبر"، فهؤلاء ليسوا في خسران.

و كما هو ظاهر في جواب القسم، فقد استؤنف هذا الأخير كالعادة بأحد المؤكّدات زيادة للتأكيد عليه إذ نجد توكيدا لفظيا عبّر عنه بـ "إنّ"، و قد ترجمت باللفظة: "certes" التي تفيد التوكيد في اللغة الفرنسية أيضا.

وصلنا بإذن الله إلى نهاية ثالث و آخر فصل من الجزء التطبيقي للدراسة و الذي عرضنا فيه نماذج مختلفة من الأقسام بالمخلوقات، و بهذا نكون قد أتممنا هذا الباب و نذهب بعدها إلى الخاتمة التي سنستعرض فيها أهم النتائج المستخلصة من هذا البحث.

¹ - ابن قيم الجوزية، التبيين في أيمان القرآن، ص 134.

الخطبة
الخاتمة

الخاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، و الصلاة و السلام على من خُتِمَ به الرسالات،

و بعد:

ها قد وصل هذا البحث، بتوفيق من الله و فضله، إلى نهايته، و هذا عرضٌ لأهم النتائج

التي توصل إليها:

• مهما رقيت الترجمة فإنها تبقى دائما عاجزة عن نقل جميع جوانب القرآن الكريم بما فيها من إعجاز يظهر في أسلوبه الفذّ في التعبير عن الظواهر اللغوية و تصويره البديع للمشاهد الموصوفة. و أحسن مثال على ذلك هو ما جاء في صدر سورة العاديات من قسم بالخيل العاديات في سبيل الله و وصف مشهد إغارتها على العدو في الصباح و هي تصبح بأصواتها و تقدح بحوافرها و تثير الغبار في الأرجاء. إذ جاءت الألفاظ المكونة لهذا القسم قويّة شديدة لتناسب الجو الصاخب المُعبّر عنه وهو ما يلحظ غيابه في الترجمة التي كانت جافة نوعا ما؛ فمع أنها نجحت في نقل المعنى العامّ إلا أنها لم تفلح في نقل ما يصاحبه من إيقاع يفرضه السياق.

• قد يلجأ المترجم في كثير من الأحيان إلى الترجمة الحرفية لآيات القرآن و نقل معناها العام دون أن يوضّح جزئيات مهمّة فيه، و ذلك ما يشكّل إبهاما و غموضا للمتلقّي. و قد صادفنا في بحثنا هذا مثال عن ذلك و هو القسم الوارد في سورة الحجر (الآية 72) في قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ حيث اختلف المفسّرون في تحديد المُخاطب في هذه الآية؛ فقال نفر منهم أنّه سيّدنا لوط عليه السلام و علّوا قولهم بالآيات السابقة لهذا القسم وبالسياق الذي ورد فيه في حين ذهب الأغلبية الساحقة إلى أنّ المقصود هو سيّدنا محمد صلى الله عليه و سلّم و أنّ الغرض منه هو تشريفه و تكريمه. و قد جاءت ترجمة هذا القسم

بقوله: Par ta vie دون تحديد المقصود منه. و نحن نرى أنه كان من واجب المترجم أن يضيف لترجمته شرحاً أو هامشاً يُفسّر فيه لقارئه معنى الآية.

و هذه من الهفوات الشائعة التي قد يقع فيها المترجم حين يهتم بنقل المعاني نقلاً حرفياً دون مراعاة احتياجات المتلقي للشرح و التفسير، فالقارئ العربي قد يرجع إلى التفسير لفهم ما يستعصي عليه فهمه أما القارئ الأجنبي فيعتمد اعتماداً كبيراً على هذه الترجمات، فإن لم يجد فيها ما يجيب عن تساؤلاته المُحيرة بقي يتخبّط في بحر معانيها الواسع دون أن يجد منه مخرجاً.

و نحن لا ننتهم هذه التّرجمة بطغيان طابع الغموض و الابهام عليها، إذ أضاف المترجم في مواضع أخرى هوامش تزيل عنها ذلك و تساعد في توضيح معانيها، و منها ترجمته للآية الثانية من سورة النجم حين وضّح أن المقصود من لفظة (صاحبكم) هو الرسول صلى الله عليه و سلم، وأيضاً ترجمة الآيات الأولى من سورة التين حين وضّح أن المقصود بالتين و الزيتون هو أمكنة تواجد هاتين الشجرتين بكثرة لتتوضّح بذلك علاقتهما بما أقسم به بعدهما.

• يتوفّر في اللغة العربية أكثر من لفظ للتعبير عن القسم كـ"اليمين" و "الحلف" و كذا الأمر بالنسبة للأفعال كالفعل "أقسم" و "حلف" و "قاسم" و "تقاسم" و غيرها... و مع ما يبدو من تقارب كبير في معناها العام إلّا أنّ بينها فروقاً تميّز كلا منها عن الآخر، و قد أوردنا في الدراسة التطبيقية نماذج عنها مثل: الفعل (حلف) في سورة النساء (الآية:62)، و الفعل (أقسم) في سورة المائدة (الآية:106،107)، و الفعل (قاسم) في سورة الأعراف (الآية:21)، وأيضاً الفعل (تقاسم) في سورة النمل (الآية 49). و كذا قد نبّهنا إلى الاختلافات الموجودة بينها و عرضنا فيما تقدّم من البحث المعاني المختلفة لكلّ فعل؛ و ممّا ذكرنا أن الفعل "حلف" يحمل معنى القسم الكاذب أو الحنث في حين يحمل الفعلان

"قاسم" و "تقاسم" معنى المشاركة و كلا المعنيين يغيبان في الفعل "أقسم" الذي يتميز بالعمومية و يصلح للتعبير عن أيّ يمين أُطلقت.

لكن الملاحظ أن هذه الأفعال جميعا، على اختلاف معانيها، قد تُرجمت إلى فعل واحد في الفرنسية هو الفعل (Jurer) دون مراعاة ما بينها من فروق إذ لم يرد في الترجمة ما يدلّ على ذلك، و هذه من الأمور التي تُؤخذ عليها، إذ كان من الأولى استعمال ألفاظ مختلفة. و قد يصلح في بعض السياقات الأخرى استعمال فعل بدل آخر أو ترجمتها بالفعل نفسه -على اعتبار أنها مترادفات- لكن السياق القرآني الذي يتميز بدقته في التعبير عن المعاني و تصويرها تصويرا دقيقا باستعمال الألفاظ المناسبة لا يسمح بذلك بل يفرض علينا الاجتهاد في نقل المعنى المراد بجلّ جزئياته إن لم يكن كلّها.

و قد كانت لنا اقتراحات بسيطة لترجمة كلّ واحد من أفعال القسم هذه حسب ما يقتضيه السياق الذي ذُكرت فيه و حسب ما يتوفّر في اللغة الفرنسية للتعبير عن المعاني المطلوبة:

1- **الفعل "أقسم":** ذكرنا أن الفعل أقسم عامّ في معناه، لا يختص بالتعبير عن معنى خاص في القسم، بل يعبر عن كلّ يمين أُطلقت، و هو بذلك يقابل الفعل الفرنسي "Jurer" الذي يعبر عن المعنى نفسه.

2- **الفعل "حلف":** يختصّ الفعل "حلف" عن باقي أفعال القسم بالتعبير عن معنى الحنث و الكذب بدليل السياقات التي ورد فيها في القرآن الكريم؛ إذ لم يرد إلا على لسان المنافقين في حالات كذبهم و حلفهم زورا و بهتاننا بإجماع المفسرين. و للتعبير عن هذا المعنى في الفرنسية نجد الفعل "se parjurer" الذي يصلح أن يكون مقابلا للفعل "حلف" في مثل هذا المقام.

3- **الفعل "قاسم"**: هو رباعي مزيد على وزن "فَاعَل" الذي يعبر عن معنى المشاركة؛ أي أن طرفين يتبادلان القسم أو يقسمان معا على أمر معيّن، نحو قولنا: (قاسم زيدٌ عمراً)، فهذه الجملة معناها أن زيدا أقسم لعمر و أن عمرا أيضا أقسم لزيد. و للتعبير عن هذا المعنى في الفرنسية يمكن أن نستعمل الفعل "se jurer" (verbe pronominal) فنقول: Amr et Zaïd se sont jurés.

و قد يدلّ وزن "فاعل" على معنى آخر هو التكثر. و الذي يُرَجَّح أنه المعنى الذي ورد في قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾؛ فهذا القسم جاء من عند إبليس أقسم فيه لسيدنا آدم و زوجته حواء على أنه لهما من الناصحين، و لم يرد في الآية ما يدلّ على المشاركة أو أنهما أقسما له مع أن بعض المفسرين قالوا بأنّ مجرد قبولهما للقسم يدل على مشاركتهما فيه. و معنى التكثر هنا جاء دلالة على مبالغة إبليس في قسمه و اجتهاده فيه.

4- **الفعل "تقاسم"**: يعبر هذا الفعل عن معنى المشاركة أيضا و هو ما يدلّ عليه وزنه (تفاعل)؛ أي أن القسم لا يصدر عن طرف واحد بل يتشارك فيه طرفان أو أكثر فيقسم أحدهم للآخر. و لترجمة هذا الفعل اقترحنا الفعل الفرنسي "conjuré" المكوّن من فعل القسم "Jurer" و السابقة (Le préfixe) "con" التي تدلّ على المشاركة و الذي يُعرّف كالاتي:

Conjurer : S'engager avec d'autres par serment à réaliser une action funeste¹.

¹ - <http://www.larousse.fr/dictionnaires/francais/conjurer/18269>, consulté le 27/06/2013 à 7H.33m

و معناه أنّ هذا الفعل إضافة إلى تعبيره عن القسم و المشاركة فيه يزيد معنى آخر و هو الاقتسام على فعلٍ مُهْلِكٍ كَأَذِيَّةٍ أَحَدَهُمْ أَوْ قَتَلَهُ. و لذلك فهو يصلح بالتأكيد لترجمة الفعل "تقاسم" الوارد في قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ (النمل: 49) الذي جاء في سياق قصة سيدنا صالح حين اتفق جماعة من الناس على قتله و قتل أهله و أتباعه ليلاً.

و لهذه الأسباب كان أحرى أن يُترجم الفعل "تقاسم" بالفعل "conjurere" الذي يظهر لنا أنه مناسب لنقل جميع المعاني المعبر عنها.

• تتنوع صيغ القسم في العربية بتنوع المُقَسَمِ به و بتنوع حروف القسم أيضاً. و من خلال الإحصاء الذي قمنا به لمواضع القسم في القرآن ظهر لنا استعمال ثلاثة حروف بنسب متفاوتة، و هي: "الواو" في أغلب المواضع، تليها "الباء" ثم "التاء" بنسب متقاربة.

و لكل واحد من هذه الحروف استعمال يختلف عن الآخر، كما قد يختص البعض منها بإضافة معانٍ أخرى إلى القسم. و قد أوردنا أمثلة كافية عن كل حرف، كما فصلنا الحديث عن معانيها و استعمالاتها في القسمين النظري و التطبيقي. و من ذلك أنّ الواو تدخل على الاسم الظاهر فقط و لا يظهر معها فعل القسم في حين تختص الباء بجواز إثبات الفعل أو حذفه و جواز دخولها على الظاهر و المضمّر. أما التاء فلا تدخل إلا على اسم الجلالة و تفيد معنى التعجب إلى جانب القسم.

لكن فيما يخص ترجمة هذه الحروف، فقد وجدنا أنها تُرجمت جميعاً إلى الفرنسية بحرف واحد هو: "La preposition "Par". و من خصائص هذا الحرف -حسب ما رأينا من أمثلة القسم في الفرنسية- جواز استعماله مع الفعل أو دونه، إذ يمكن أن نقول:

Je jure par Allah أو Par Allah.

و بذلك فهذا الحرف يصلح لأن يُترجم حروف القسم العربية، إضافة إلى كونه الحرف الوحيد الذي يُستعمل للتعبير عن القسم في اللغة الفرنسية، إذ لم يشع استعمال غيره لذلك.

وبهذا لا يبقى إلا إشكال ترجمة معنى التعجب الذي تفيده التاء، و الذي رأينا في ترجمات حميد الله أنه أضاف علامة التعجب (!) للتعبير عنه، و هو حلّ مقبول. لكن ما يؤخذ عليه في ذلك هو أنه لم يضيف هذه العلامة مع حرف التاء فقط، بل مع جميع الحروف؛ إذ وجدنا من خلال ملاحظتنا لترجماته أنه يورد علامة تعجب بعد كل صيغة يغيب فيها فعل القسم مهما كان الحرف المستعمل، و لم نجد تبريرا مقنعا أو تفسيرا منطقيا لذلك إذ كان يجب أن تظهر هذه العلامة مع حرف التاء فقط لاختصاصه دون الباء و الواو بزيادة معنى التعجب.

• عمد الدكتور حميد الله إلى ترجمة المؤكّدات الواردة في جواب القسم إلى اللغة الفرنسية بمؤكّدات اختلفت في طبيعتها و في شدتها و ضعفها في أغلب المواضع، و كان أكثرها استعمالا: *certes, assurément, sûrement*. فالملاحظ في أقسام القرآن أن جواب القسم فيها لا يكاد يخلو من عناصر لغوية مؤكّدة تباينت من حيث أنواعها و شدة قوتها، فمنها الخفيفة و منها الثقيلة مع أنّ أسلوب القسم في حدّ ذاته من أقوى أساليب التوكيد على الإطلاق في جميع لغات العالم، و أنّه وحده كاف لتقرير حقيقة أو إثبات أمر. ولعلّ ورود هذه المؤكّدات إنما هو راجع لكون المراد من التركيب القسمي تأكيد المُقسم عليه بالمُقسم به، ف جاءت هذه المؤكّدات لتتمّ هذا المعنى و تقويه، ليصبح المُقسم عليه (جواب القسم) في غاية التأكيد، و هذا أسلوب فيه من البلاغة ما فيه.

لكن يُلاحظ أنه أهمل ترجمتها في مواضع أخرى كترجمته للآية 72 من سورة الحجر التي جاء فيها قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ إذ لم يُلاحظ وجود لأيِّ مؤكِّدات في ترجمة هذه الآية للتعبير عن معنى التوكيد الذي دلَّت عليه "إن" المشدَّدة و اللام، و بذلك تُعدُّ الترجمة ناقصة لأنها لم تستوف جميع المعاني.

كما يمكن أن نزيد على ذلك عدم مناسبة بعض المؤكِّدات الفرنسية لقوَّة المؤكِّدات العربية، و مثال ذلك الآية 44 من سورة الشعراء: ﴿فَأَلْقُوا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّهِمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾. إذ اجتمع في هذه الآية اثنان من أقوى المؤكِّدات في العربية و هما "إن" المشدَّدة و اللام في حين جاءت ترجمتهما بالأسلوب الفرنسي "c'est... qui" الذي تكاد دلالاته على التأكيد لا تُلاحظ لأنه يدلُّ على الاختصاص أكثر من دلالاته على التأكيد، و يعمل على لفت انتباه المستمع إلى ما سيقال. فكان من الأحسن لو أضفنا لفظاً مؤكِّداً آخر كـ "certes" مثلاً لتكون الترجمة:

Certes, c'est nous qui seront les vainqueurs.

و ذلك تحرياً لإيجاد تكافؤ في قوة المعاني المطلوبة بين الأصل و الترجمة.

- تنوعت صيغ القسم في القرآن الكريم بما هو مألوف عند العرب، لكنه انفرد باستعمال صيغة لم تُعرف قبل نزوله، ألا و هي صيغة نفي فعل القسم (لا أقسم)، إذ تبين أن العرب لم تستعمل هذه الصيغة في ما وُجد من آثار الجاهلية لا شعرا ولا نثراً.
- و قد اختلف المفسرون في عرض أقوالهم حول معنى هذه الصيغة فكانت آراؤهم متباينة قوة و ضعفاً، و في بعض الأحيان متضاربة، و أشهر ما قالوه فيها:

- (لا أقسم) بمعنى (أقسم)، و (لا) زائدة للتوكيد أو صلة في الكلام وجودها كعدمه.
- (لا أقسم) أصلها (لأقسم).
- (لا) ردُّ لكلام يخالف المقسم عليه، و (أقسم) كلام مستأنف.
- (لا) نفيٌ للقسم.

و أما عن ترجمة هذه الصيغة، فقد لاحظنا أن الدكتور "حميد الله" قد فصل أداة النفي (لا) عن فعل القسم (أقسم) فجاءت ترجمتها: "Non! ...Je jure".

و قد عزونا ذلك على اعتماد المترجم أحد المعاني المذكورة سابقا دون غيرها و هو على الأغلب كون (لا) ردًا لكلام تقدّم ثم استئناف الكلام بفعل القسم (أقسم).

كانت هذه أهمّ النتائج التي خلص إليها هذا البحث، و التي تمثّل في مجملها إجابات عن الإشكاليات التي تمّ طرحها في البداية. و ختاماً نحمد الله الذي ما كان ليتمّ هذا العمل دون فضله و توفيقه، فأخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

و الله الموفق في الأولى و الآخرة، و هو الهادي إلى سبيل الرشاد.

الملخصات

ملخص البحث:

يندرج هذا البحث في إطار ترجمة معاني القرآن الكريم، وهو موسوم بـ "أسلوب القسم في القرآن الكريم وترجمته إلى اللغة الفرنسية عند محمد حميد الله".

و كما يظهر من العنوان فإنّ موضوع الدراسة هو واحد من أساليب التوكيد القوية و المعروفة في العديد من اللغات، ألا و هو أسلوب القسم.

و بما أن لغة الانطلاق كانت اللغة العربية، فقد تحرّينا استقصاء نماذج عن هذا الأسلوب في نصوص بليغة وسياقات تامة في محاولة للإلمام بخصائصه و الكشف عن مميّزاته و التعرف على كيفية ترجمته إلى اللغة الفرنسية. و لا شكّ هنا أن القرآن كان غايتنا المنشودة إذ لا نصّ أبلغ و لا سياق أتمّ منه؛ فهو بإجماع عقول الأمة كتاب معجز من وجوه لا تتحصر. كما أنه نزل بلغة العرب و على مناحي كلامهم وخطابهم، فقد جاءت أقسام القرآن مماثلة لما كان معروفا عند عرب الجاهلية و ما استعملوه في كلامهم شعرا و نثرا - ونستثني من ذلك صيغة واحدة هي صيغة نفي فعل القسم الصريح (لا أقسم).

و عليه، فالقرآن هو أحسن النصوص لدراسة هذا الأسلوب اللغوي و استنباط خصائصه في اللغة العربية. ولهذا فقد تمّ اختيار نماذج الدراسة من بعض آيات القرآن الكريم.

و المعروف أنّ للقسم في العربية صيغا تتنوّع بتنوع مفرداته من حروف و أفعال، و أمثلة ذلك: حروف الباء والتاء و الواو و الفعلان أقسم و حلف و غيرهما... إضافة إلى تنوّع المقسم به الذي دائما ما يكون أمرا جليلا وعظيما. ولهذا فقد عمدنا إلى أن تكون نماذج الدراسة متنوعة بحسب صيغ القسم و السياقات التي وردت فيها رجاء أن يكون البحث أكثر شمولاً.

و أما عن الترجمة إلى اللغة الفرنسية، فقد اخترنا ترجمة لأحد أعلام العالم الإسلامي: الدكتور محمد حميد الله الذي تتميز أعماله بالأصالة و دقة العرض و الشمولية. و قد كان لاختيارنا هذا سبب رئيس هو كون المترجم مسلما فضلا عن إتقانه اللغتين العربية والفرنسية، إذ تعتبر ترجمته من أحسن الترجمات التي يعتمد عليها في العالم قاطبة.

و أسلوب القسم من الأساليب التي شدّت انتباه الدارسين قديما و حديثا و ذلك لارتباطه بالمقدّسات أوّلا ولتنوع صيغته و تعدّدها ثانيا. و لذلك فقد انكبّ على دراسته الدارسون و عمدوا

إلى إحصاء صيغه وتحليل معانيه، نذكر منهم: أبوإسحاق النجيري الذي نظم كتابا بعنوان: "أيمان العرب في الجاهلية" و محمد عبد القادر أبو فارس صاحب "كتاب الأيمان و النذور".

أما من عكفوا على دراسة أسلوب القسم في القرآن الكريم خاصة فهم كثر، ذلك أن أقسام القرآن هي ولا ريب أكثر غلاظة و أدعى للتأمل كونها متعلّقة بكتاب الله المقدّس و عدد كبير منها جاء على لسانه سبحانه. وأشهر ما كُتب عن أقسام القرآن هو "التبيان في أقسام القرآن" لصاحبه "ابن قيم الجوزية" و "إمعان في أقسام القرآن" للعلامة عبد الحميد الفراهي. أما عن الأبحاث المعاصرة فنذكر على سبيل المثال لا الحصر بحث الدكتور سليمان بن علي -أستاذ اللغويات المساعد بجامعة الأغواط- بعنوان "من أسرار القسم في القرآن الكريم" الذي نُشر في مجلة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية و آدابها في شهر رمضان عام 1425هـ الموافق لعام 2004م، و بحثا آخر من إعداد الدكتور سامي عطا حسن من جامعة آل البيت -المفروق (المملكة الأردنية الهاشمية) بعنوان "أسلوب القسم الظاهر في القرآن الكريم- بلاغته وأغراضه" الذي صدر سنة 2009.

و قد قامت هذه الدراسة على إشكاليات تمحورت حول كيفية ترجمة صيغ القسم المختلفة وتركّزت في نقطتين أساسيتين هما:

أولاً: كيف نترجم المفردات المستعملة للتعبير عن القسم من حروف و أفعال علما أن كل مفردة -إضافة إلى تعبيرها عن القسم- تحمل معانٍ جزئية تختلف عن الأخرى؟

ثانياً: ما هي دلالات و معاني صيغة نفي فعل القسم (لا أقسم)، و كيف تترجم؟

و في محاولة لإيجاد إجابات مرضية عن هذه التساؤلات المطروحة، فقد تنوّعت مناهج البحث؛ فقمنا تارة باستقصاء آيات القسم في القرآن الكريم و تخيير ما يلزمنا منها بالدراسة وتارة أخرى بتحليل معانيها و ترجمتها كما قام بها الدكتور حميد الله و أخيراً المقارنة بين كيفية ترجمة الصيغ المتشابهة للخروج بنتائج حول ذلك.

و قد جاء البحث مقدّمة عُرِض فيها الموضوع إجمالاً إضافة إلى أهميته و دواعي اختياره وإشكالياته ومناهجه و خطّته. تلاها باب أول بعنوان "دراسة نظرية" حوى فصلين: الأول عن خصائص أسلوب القسم في اللغتين العربية والفرنسية، والثاني عن ترجمة معاني القرآن الكريم

حيث مهّدنا له بلمحة موجزة عن الترجمة الدينية ثم عرضنا أهم آراء العلماء المجيزين منهم والمعارضين لهذا النوع من الترجمة.

و أما الباب الثاني فهو بعنوان "دراسة تطبيقية"، جاء فيه تعريف بالمدوّنة و صاحبها ثم تحليل ما تمّ اختياره من آيات للدراسة، حيث عرضنا تفسير كل آية بإيجاز ثمّ ترجمتها كما قام بها الدكتور حميد الله ثم قمنا بتحليل المعنى و السياق العام و الترجمة.

و قد ركّزنا في تحليل كل آية على إبراز نقطتين أساسيتين لاحظنا تكرارهما في آيات القسم في القرآن الكريم وهما:

أولاً: أدوات التوكيد الواردة في جواب القسم، حيث لفت انتباهنا أن أقسام القرآن غالباً ما تكون مصحوبة بعدد من المؤكّدات التي تزيد من قوة المعنى و تسهم في إتمامه أبرزها إنّ المشدّدة واللام.

ثانياً: إبراز المناسبة الواردة بين طرفي القسم، إذ الملاحظ وجود تناسب بين المقسم به و المقسم عليه في كل موضع.

و قد قسّم هذا الباب الثاني إلى ثلاثة فصول بحسب طبيعة المقسم به:

الأول بعنوان "القسم بأسماء الله تعالى وأسمائه و صفاته"، و مثال ذلك قوله تعالى في سورة يوسف - الآية 95: "قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم".

و الثاني "القسم بأسماء القرآن" و مثاله ما ورد في سورة يس- الآيتان 1 و 2: "يس. و القرآن الحكيم".

و الثالث "القسم بالمخلوقات" مثل قوله عزّ و جلّ: "و العصر. إن الإنسان لفي خسر".

و يجدر الإشارة هنا إلى أنّ صيغ القسم الواردة في كلّ فصل جاءت متنوّعة بحسب المفردات المستعملة فيها وأنّ ترجمة هذه الصيغ جاءت متنوّعة بالقدر نفسه رغم تشابه بعض الصيغ بل وتطابقها في أحيان أخرى. وأحسن مثال لبيان ذلك ترجمة الآيتين 106 و 107 من سورة المائدة اللتان وردت فيهما صيغة واحدة هي "فيقسمان بالله" إذ تُرجمت في الآية 106 بقوله "vous les ferez jurer par Allah" و في الآية الموالية بقوله "tous deux jureront par Allah". فعلى الرغم من تطابق صيغة القسم في الموضعين إلا أنّ الترجمة

جاءت مختلفة و ذلك يُعزى طبعا إلى السياق الذي ورد فيه كل قسم، فالترجمة ليست منوطة بالمفردات أو الصيغ المستعملة فحسب بل يجب مراعاة السياق العام الذي ذُكرت فيه. و بعد الفراغ من الدراسة النظرية، عرضنا أهمّ النتائج المستخلصة من البحث في خاتمة. وأبرز هذه النتائج جاءت أولا عن ترجمة معاني القرآن الكريم بصفة عامّة، و تلخّصت فيما يأتي:

- عجز الترجمة عن نقل جميع جوانب القرآن الكريم بما فيها من إعجاز يظهر في جميع وجوهه وبشهادة أرباب البيان من أهل اللسان.

- الترجمة الحرفية و العمل على نقل المعاني العامة فقط -خاصة فيما يتعلق بالنصوص الدينية- قاصرة عن أداء مهمة إيصال المعنى للمتلقى، بل بالعكس قد تشكّل له إيهاما وغموضا فيستعصي عليه الفهم.

و أما عن نتائج ترجمة أسلوب القسم في القرآن الكريم، فوجدنا أنّ:

- أفعال القسم الواردة في القرآن جميعا و هي الأفعال: (حلف) و (أقسم) و (قاسم في سورة الأعراف) و(تقاسم في سورة النمل) قد تُرجمت إلى اللغة الفرنسية بفعل واحد هو الفعل "jurer". وكما ذكرنا آنفا، فإنّ كلّ فعل من هذه الأفعال ينفرد عن الباقيين بزيادة معنى خاص إضافة إلى تعبيره عن القسم. ولهذا فقد اقترحنا ترجمة لكل فعل بما يوافق معانيه كافة وما ينتاسب مع السياق الذي ورد فيه في القرآن. و تمثّلت هذه الاقتراحات في الآتي:

- الفعل "jurer" مكافئ للفعل "أقسم؛ فكلاهما ذو معنى عامّ يعبر عن أي يمين أطلقت.
- الفعل "se parjurer" مكافئ للفعل "حلف" لأنّهما يعبران عن الحنث في اليمين.
- الفعل "se jurer" مكافئ للفعل "قاسم" الذي يحمل معنى المشاركة بدلالة وزنه (فاعل).
- الفعل "conjurer" الذي يعني تعاهد جماعة من الناس بالقسم على فعل أمر مُهلك، مكافئ للفعل "تقاسم" على وزن (تفاعل) الذي يفيد أيضا معنى المشاركة و قد جاء في السياق القرآني للتعبير عن أنّ جماعة من الناس تعاهدوا و أقسم بعضهم لبعض على قتل سيّدنا صالح و من معه.

- تتوفر اللغة العربية على عدد من الحروف للتعبير عن القسم لكن ورد ثلاثة منها فقط في القسم القرآني و هي حروف الباء و التاء و الواو.

و استعمالات هذه الحروف مختلفة إذ تختص الباء بجواز إثبات فعل القسم أو حذفه ودخولها على الظاهر والمضمر من الأسماء. أما الواو فتدخل على الاسم الظاهر فقط ولا يظهر معها فعل القسم. و أما التاء فلا تدخل إلا على لفظ الجلالة و تفيد معنى التعجب إلى جانب القسم.

و قد لاحظنا أن هذه الحروف الثلاثة قد ترجمت إلى اللغة الفرنسية بحرف واحد هو "par" والذي لم يعرف استعمال غيره للتعبير عن القسم في اللغة الهدف. كما أن من خصائصه جواز استعماله مقترنا بالفعل أو دونه ودخوله على الأسماء و الضمائر على حدّ سواء. وبذلك فهو المكافئ المطلوب لترجمة حروف القسم العربية. وبالنسبة لمعنى التعجب الذي تختص به "التاء"، فقد أضاف المترجم علامة تعجب بعد صيغة القسم للإشارة إليه. و لا يؤخذ عليه سوى أنه أضاف هذه العلامة في مواضع أخرى مع غير التاء، و التي نرى أن من الأحسن حذفها لبيان اختصاص التاء بمعنى التعجب دون غيرها.

- تُرجمت المؤكّدات الواردة في جواب القسم بمؤكّدات فرنسية اختلفت درجة شدّتها و لكنّها لم توافق قوة المؤكّدات العربية في بعض المواضع، كما تمّ إهمالها في مواضع أخرى. والواجب في الترجمة تحري نقل النصّ الأصل بجميع معانيه استيفاء لعنصر الأمانة، و عليه وجب تعديل أو إضافة أدوات التوكيد في بعض آيات القسم.

- انفرد القرآن الكريم باستعمال صيغة نفي فعل القسم (لا أقسم)، و قد اختلف المفسّرون في معناها فقال بعضهم بأنها بمعنى (أقسم) و (لا) زائدة: كما قال بعض آخر أن أصلها (لأقسم) واللام للتوكيد، و قال آخرون أنّ (لا) ردّ لكلام تقدّم و (أقسم) كلام مستأنف.

و قد اعتمد الدكتور حميد الله على التفسير الأخير في ترجمته فقال: "Non! Je jure"، حيث فصل أداة النفي عن فعل القسم فكان كلا منهما يفيد معنى مستقلا عن الآخر.

Résumé :

La présente recherche s'inscrit dans le cadre de la traduction religieuse et précisément la traduction du Saint Coran. Elle traite l'un des aspects stylistique du Coran –qui est le serment- et sa traduction en langue française d'après Mouhammad Hmidullah.

Selon les dictionnaires français, le serment est une affirmation ou une promesse solennelle faite en invoquant un être ou un objet sacré comme témoin de la vérité de ses actes ou de ses paroles.

La première observation qui se dégage de l'examen historique du serment est son emploi universel. Il était, et est, connu et employé dans plusieurs régions du monde entier, mais ses formules varient.

Les Grecs, par exemple, juraient par leurs dieux tels que Zeus, Aphrodite et Apollon... debout, la main droite levée ou étendue sur l'autel du dieu.

Quant aux arabes préislamiques, ils avaient l'habitude de prêter serment par leurs dieux aussi ou par leurs vies et leurs pères... en serrant la main droite l'un de l'autre.

Les chrétiens, pour leur part, jurent par Jésus christ ou par la Sainte Vierge ou par l’Evangile... en levant la main droite vers le ciel ou en la plaçant sur l’Evangile.

Malgré la diversité des formules du serment selon le temps et les religions des peuples, on observe qu’elles consistent toujours à prendre quelqu’un ou quelque chose sacré(e) à témoin de la vérité d’un fait ou de la sincérité d’une promesse. La formule orale est accompagnée souvent des gestes. Cette diversité est due essentiellement au polythéisme.

On ne trouve pas cette diversité chez les musulmans car l’Islam leur a ordonnés de ne prêter serment que par Allah. Cependant, on peut trouver d’autres formules, par d’autres êtres, dans le Coran où plusieurs formules de serment sont mentionnées.

On peut en distinguer deux sortes :

- Les serments prêtés par les hommes et les créatures dans des contextes historiques. Ceux-ci jurent toujours par Allah, sauf le serment qui était prêté par les magiciens de Pharaon cité à Sourate Ash-shuara (Les poètes), verset 44. Ici, les magiciens jurent par la

puissance de Pharaon, qu'ils considèrent comme Dieu, qu'ils seraient les vainqueurs. Mais il faut noter que cette formule est juste un exemple des formules préislamiques.

- Les serments prêtés par Allah ; le Créateur. Dans ce genre de serment, Allah jure par Lui-même ou par Ses créatures comme le soleil, la lune, les étoiles, le Coran ou la vie de Son prophète...etc.

A côté de son style unique, le serment dans le Coran est distingué par plusieurs autres caractéristiques. On a remarqué par exemple que les deux parties du serment (ce que l'on jure par et sur) sont appropriés ; C'est-à-dire qu'il y a convenance entre les deux.

Au début de Sourate An-nadjm (l'étoile) par exemple, Allah jure par l'étoile à son déclin que son prophète Mouhammad ne s'est pas égaré et n'a pas été induit en erreur. Après l'observation et l'analyse de ces versets, on constate qu'il y a ressemblance entre leurs parties : le prophète a été accusé par les incroyants d'être égaré et induit en erreur, ce qui n'était pas le cas bien sûr. Au contraire, il était prudent et converti et il a guidé toute l'humanité à

la bonne voie par sa prudence et conversion tel qu'une étoile au milieu du ciel sombre.

Pour ses caractéristiques particulières, le serment dans le Coran a été le sujet de plusieurs études et recherches. Plusieurs savants ont traité ce sujet dans leurs ouvrages tel que « Ibn Qaim Al-Djawziya » qui a rédigé « At-tibyan fi Aqsam AL Quran » (Clarifier les serments du Coran) ainsi que « Abdelhamid Al-Farahi » dans son livre: « Im'an fi Aqsam Al Quran » (Examen des serments du Coran).

Il y a aussi une recherche faite par Dr. Sliman Ben Ali - Université de Laghout, Algérie- sous le titre de « Min Asrar Al Qasam Fi Al Quran Al Karim » (Parmi les secrets du serment dans le Coran), et une autre réalisée par Dr. Sami Ata Hassan de l'université de I El-Baït à El Mafraq- La monarchie jordanienne, intitulée « Osloub Al-quasam Ad-dhahir fi el-Quran el-karim : balaghatoho wa aghradoho » (Le serment explicite dans le Saint Coran : son éloquence et ses fins).

Comme le Coran est le seule livre sacré adressé à tous les êtres humains dans le monde entier et la base sur laquelle compte le musulman dans tous les aspects de sa vie, il était nécessaire dès les premières années de l’Islam de traduire ses sens vers d’autres langues pour que les non-arabes puissent le comprendre.

Cette tâche n’était pas facile pour deux raisons majeures :

La première c’est que la traduction religieuse est en général considérée parmi les traductions les plus difficiles à faire car elle ne ressemble à aucune autre. Elle est différente même de la traduction littéraire. Dans ce genre de traduction, on ne traite pas des textes ordinaires écrits par des êtres humains, mais des textes sacrés qui portent des notions sacrées. On essaye de transmettre une culture religieuse avec ses principes et ses doctrines d’une langue vers une autre langue.

Ce genre de traduction, malgré les défis qu’il représente, a attiré plusieurs traducteurs et philosophes depuis des décennies. Parmi ceux qui s’intéressent à la traduction des textes religieux :

Eugene Nida, Charles Taber, Jacques Derrida, et Henri Meschonnic...

La deuxième raison concerne le style rhétorique de la langue coranique et ses spécificités qui font du Coran l'un des textes les plus difficiles à traduire. Le Coran est caractérisé par sa langue particulière qui n'est ni prose ni poésie ce qui prouve qu'il est miraculeux par tous ces aspects.

Cependant, plusieurs traductions du Saint Coran ont été réalisées vers plusieurs langues. En fait, la traduction coranique n'a pas seulement attiré les musulmans mais aussi les orientalistes. Elle prospérait au XX^{ème} siècle pendant lequel est apparu le plus grand nombre de ces traductions. On cite par exemple les traductions des orientalistes : Jacques Berque, Edouard Montet, Régis Blachère... etc. et celles des musulmans : Abu Daoud, Ahmed Yathani, Sobhi Essalah et Mouhammad Hamidallah...

La traduction réalisée par ce dernier vers la langue française était parmi les traductions les plus réussies et les plus connues notamment dans le monde islamique.

On a choisis cette traduction pour être une référence essentielle dans notre recherche en voulant reconnaître les différences entre le serment en arabe, et surtout dans le Coran, et en français et en essayant d'en extraire comment le traduire.

De tout ce qui précède se posent les problématiques suivantes:

- Comment étaient traduits les serments dans le Coran vers le français en sachant qu'en arabe existent plusieurs verbes (comme les verbes : تقاسم، قاسم، حلف، أقسم...) et plusieurs prépositions (comme : التاء، الباء، الواو، الواو) pour l'exprimer ?

- Il y a une nuance du sens entre ces verbes et ces prépositions, et des fois on ne peut pas employer l'un à la place de l'autre. Y a-t-il en français un équivalent pour chacun de ces mots ou va-t-on tout simplement les traduire tous par le même mot français?

- Parmi les formules du serment citées au Coran, il y en a une qui n'était pas connue chez les arabes avant l'Islam. Il s'agit de la formule négative du serment « لا أقسم ». Alors, quel est le vrai sens de cette formule ? et comment peut-on la traduire ?

Dans cette recherche, on a essayé de trouver des réponses à ces questions en s'appuyant sur des livres qui traitent ce sujet, sur les opinions des savants sur des questions ambiguës, et sur la traduction en langue française des sens du Coran faite par Dr. Mouhammad Hamidallah.

Pour cela, on a divisé cette recherche en deux grandes parties :

La première partie, qui a pour titre « étude théorique », contient deux chapitres : le premier parle du serment et ses caractéristiques dans les deux langues arabe et française tandis que dans le deuxième chapitre, on a parlé de la traduction du Coran et on a exposé les différentes opinions des savants sur ce sujet.

Dans la deuxième partie « étude pratique », on a d'abord rédigé une petite biographie du Dr.Hamidullah. Ensuite, on a extrait tous les versets où il y a serment dans le Coran, puis on a fait une étude analytique de quelques versets pour comprendre les secrets du serment et la manière dont il était traduit en français.

Cette étude analytique était divisée en trois chapitres selon les formules utilisées, et spécifiquement selon ce que l'on a juré par :

Chapitre I : jurer par Allah, Ses noms et Ses qualités.

Chapitre II : jurer par les noms du Coran.

Chapitre III : jurer par les créatures.

Ces deux parties étaient précédées d'une introduction dans laquelle on a indiqué l'importance du sujet traité, les recherches précédentes, les raisons qui nous ont poussées à le choisir et le plan du travail.

A la fin de cette recherche, on est arrivé aux résultats ci-après qui sont dans leur ensemble des réponses aux problématiques posées auparavant :

ü La traduction des sens du Coran peut transmettre uniquement le sens général de ses versets mais elle ne parvient pas à transmettre tous ces aspects miraculeux vers les autres langues. Le Coran se caractérise par sa langue rhétorique et sa capacité sans pareil à décrire les scènes parfaitement ; il les décrit sans négliger le moindre détail en employant un style unique et une langue particulière. Le

meilleur exemple pour montrer ceci est la traduction des premiers versets de Sourate Al-Adiyat (Les Coursiers) :

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (1) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (2) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (3) فَأَثَرُنَّ بِهِ نَقْعًا (4) فَوْسَطْنَنَ بِهِ جَمْعًا (5)﴾.

Ces versets nous décrivent les chevaux des combattants musulmans quand ils attaquent le matin leurs ennemies : les étincelles jaillissent de leurs sabots en galopant sur un terrain rocheux et ils font ainsi voler la poussière.

Si on observe et écoute les mots arabes employés pour décrire cette scène, on remarque qu'ils portent une force dans leurs sons et leurs sens à la fois. Mais la traduction n'a pas pu transmettre ses effets, elle est arrivée seulement à transmettre le sens général des versets.

ü Les différents verbes arabes ont été traduits au même verbe français malgré les nuances de sens qui existent entre eux. Par exemple, le verbe « حلف » cité à Sourate An-nisa (les femmes), verset 62 et le verbe « قاسم » cité à Sourate Al-A'raf verset 21 ont été traduits tous les deux par le verbe « jurer ». Il faut noter que le premier verbe exprime

généralement le parjure, ce qui est prouvé par les contextes coraniques, tandis que le deuxième exprime le serment prêté par deux côtés, c'est-à-dire chacun d'eux jure à l'autre.

Pour cela, on a proposé d'autres traductions pour ces verbes en s'appuyant sur les contextes dans lesquels ils étaient employés dans le Coran :

- 1- Le verbe « أقسم » en arabe a un sens général, il exprime n'importe quel serment prêté. Pour cela on a proposé le verbe « jurer » pour le traduire car il a la même valeur en français.
- 2- Le verbe « حلف », comme indiqué ci- dessus, exprime le parjure. D'après le Coran, l'emploi de ce verbe est lié toujours aux hypocrites qui font des faux serments. Pour cela on a proposé le verbe « parjurer » pour le traduire car il exprime un sens équivalent.
- 3- Le verbe « قاسم » s'emploie pour indiquer que le serment est fait par deux parties. Pour cela, on a proposé le verbe pronominal « se jurer » pour l'exprimer. Quand ont dit par

exemple : (Zaïd et Amr se sont jurés), cela veut dire que chacun d'eux jure à l'autre.

4- Le verbe « تقاسم » est employé dans le Coran pour exprimer qu'un groupe d'hommes se sont engagés ensemble par serment à tuer le prophète Saleh et sa famille la nuit. Pour cela on a proposé le verbe « conjurer », qui exprime un engagement par serment à réaliser une action funeste, pour le traduire.

ü Les différentes prépositions arabes ont été aussi traduites par la même préposition française « par ». Comme les verbes, ces prépositions aussi se diversifient. La différence peut apparaître dans leurs emplois et des fois dans leurs sens. Concernant leurs emplois, la préposition « بَاء » peut être employé avec ou sans verbe et elle peut introduire un mot exprimé explicitement ou implicitement tandis que la « وَاو » précède seulement les mots exprimés explicitement elle s'emploie souvent sans verbe.

Quant à la « تَاء », elle s'emploie uniquement avec le nom d'Allah et elle exprime, en plus du serment, le sens

d'étonnement. On a vu l'exemple de Sourate Yusuf (versets : 73, 85, 91 et 95).

Pour leur traduction, on peut accepter la préposition française « par » car elle aussi peut s'employer avec ou sans verbe ; on peut dire : « je jure par Dieu » ou « par Dieu ».

Mais il nous reste le problème d'exprimer l'étonnement de la « تاء ».

Dans sa traduction, Hamidallah a résolu ce problème par l'ajout d'un point d'exclamation, ce qui devrait être une bonne solution s'il l'a ajouté après les formules introduites par « تاء » seulement. En revanche, on a constaté qu'il a ajouté le point d'exclamation après toutes les prépositions à chaque fois où il n'y a pas un verbe.

ü Le serment, dans toutes les langues, est considéré parmi les moyens les plus forts pour affirmer un fait ou une parole. Mais dans le Coran, il est encore soutenu par d'autres moyens d'affirmation, ce qui indique son importance.

Ces moyens n'étaient pas tous du même degré de certitude ; il y en a quelques qui sont très forts et d'autres qui sont moins forts.

Le traducteur n'a pas négligé le rôle de ces moyens ; il les a traduits par des adverbes français tels que : sûrement, assurément, certes...

Mais des fois, il arrive que le degré de certitude et d'affirmation qu'indiquent ces adverbes ne convient pas à celui qu'indiquent les mots arabes.

Par exemple : à Sourate As-shuara (les poètes) - verset 44, se trouvent deux des plus forts moyens d'affirmation en arabe qui sont « إنَّ » et « اللام » :

﴿فَأَلْقُوا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾.

Ces deux moyens ont été traduits par le présentatif « c'est... qui » qui sert à présenter quelque chose et permet de focaliser l'attention du lecteur sur le sujet.

Il valait mieux de les traduire par l'un des adverbes français à côté de ce présentatif.

Ainsi, la traduction devient :

« **Certes, c'est nous qui** seront les vainqueurs ».

ü Le premier emploi de la formule négative du serment « لا أقسم » était dans le Coran. Avant la révélation, les arabes n'avaient pas l'habitude d'utiliser cette formule.

Cette dernière a été interprétée par plusieurs sens :

- 1- « لا أقسم » signifie « أقسم » (je jure) et la négation « لا » (non) n'a aucun rôle, c'est juste un lien.
- 2- L'origine de « لا أقسم » est « لأقسم » qui exprime l'affirmation.
- 3- La négation « لا » est employée pour nier quelque chose dite avant le serment, ensuite le verbe « أقسم » exprime un serment affirmatif.

Selon la traduction de Hamidullah, la signification de cette formule est cette dernière ; elle est utilisée pour nier quelque chose mentionnée auparavant ensuite commencer une nouvelle phrase par le verbe « jurer ».

Ainsi, il l'avait traduite: « Non ! Je jure ».

Abstract:

The present research aims at revealing some characteristics of oath in the holy Quran through the study of its translation into French language done by Hamidullah.

According to its definition in most dictionaries, the oath is a formal declaration or promise to fulfill a pledge calling upon someone or something that the oath maker considers sacred, usually God, as a witness.

The first thing to be noticed about oath is its universal use; it was known and used since the very early age by many people.

The pre- Islamic Arabs, for example, used to swear to their gods, to their lives, to their fathers...etc. But when Islam came, it forbade these forms of oath so that the Muslim can only swear to Allah and to no one but Him.

Many examples of oath forms are mentioned in the Quran as a way to affirm many serious facts.

Allah swore to Himself and to many of His creatures like His holy book, His prophet's life, the sun, the moon, the stars and other things to affirm the truth of some important things such as the greatness of

the Quran, the truth of the prophet's message, and the affirmation of the day of resurrection...etc

Among the special features of the oath in Quran that make it distinctive from other oaths is the existence of appropriateness between what is sworn to and sworn in.

We have said for example that Allah swore in Surat An-najm (the Star) to the falling star that His prophet Muhammad is on the right way and that the Quran was revealed to him from Allah. The resemblance between the two parts is that stars are considered as guidance to the right way just like the prophet who has guided humanity to the right way relying on the Quran.

The oath in Quran was the subject of many studies that tried sometimes to respond to the suspicions aroused about it and sometimes to reveal few of its secrets and find answers to the questions asked about it.

Among these studies, there is Abu Qayim Al-Jawzia's book: "At-tibyan fi Aqsam AL Quran" (The Clarification of Quran's Oaths) and Abdelhamid Al-Farahi's book: "Im'an fi Aqsam Al Quran" (Careful Scrutiny of Quran's Oaths). There is also a research done by Dr. Sliman Ben-Ali from the university of Lagouat- Algeria titled "Min

Asrar Al Qasam Fi Al Quran Al Karim” (Some Secrets of Quran’s Oath) and many others.

As the Quran is the immortal miracle of the latest prophet (pbuh) and the only book sent to all human beings, it was very necessary -since the early years of Islam- to translate its meanings to other languages so that other people can understand it very well. This task was not easy at all because of two main reasons:

First, the translation of holy texts in general is considered among the most difficult tasks because they are different from other literal texts.

In this kind of translation we don’t deal with normal texts written by human beings, but with religious texts often sent by God. We try to transmit a whole religious culture with its principles and doctrines from a language to another. Many translators and philosophers were interested in this kind of translation because of its importance in spreading the different religions like: Jacques Derrida, Eugene Nida, and Henri Meschonnic...

Secondly, the Quran’s characteristics, style, and special language - which is neither poetry nor prose- made it one of the most difficult texts to be translated.

Although many translations appeared in many languages long time ago, they kept attracting translators years later on. In the 20th century, this kind of translation had expanded. In fact, many translations had been realized in this century. For instance, the translation of Edouard Montet, Jacques Berque, Régis Blachère... etc. One of the most successful and famous translations in the Islamic world is the translation of the meanings of Quran into the French language done by the muslim Dr/Mouhammad Hamidallah.

We have chosen this translation as an example in our study to extract some of the characteristics of oath forms in Quran from it and their translation into French language.

In this research, we tried to find answers to the following questions about the differences between oath forms in Arabic and French languages:

- In Arabic, there are many verbs to express oath, like the verbs “أقسم” and “حلف” and many prepositions like “الواو”, “الباء” and “التاء”. Indeed they have not the very same meaning. So, how do we translate each of these words? Does an equivalent exist in the French language for each Arabic word?

- One of the unique oath forms in Quran is the oath negating form “لا أقسم”. This form was not known or used by Arab people before Quran revelation. What is the real meaning of this form? And how do we translate it into French language?

So, these were the main problems in this research, and trying to find their answers, we divided it into two main sections:

- The first one is the theoretical section. It contains two chapters: Chapter I in which we have talked about the oath (its linguistic meanings, its importance, its characteristics, its different forms...) in both Arabic and French languages.

Chapter II in which we have treated the subject of translating the meanings of Quran and represented scientists' sayings and opinions about it.

- The second section is the practical one in which we have first written a small biography of Dr.Hamidullah, then we have restricted the number of verses concerned by the analytic study after extracting them all. And finally, we have studied and analyzed every verse separately. This analytic study was divided into three chapters according to the forms of oath used in each one:

Chapter I: the oath to the names of Allah and His qualities.

Chapter II: the oath to the names of the holy Quran.

Chapter III: the oath to the creatures.

Those two sections were preceded by an introduction in which we have shown the importance of the subject and the previous researches about it besides the reasons that led us to choose it and a presentation of the research plan.

In the end, this research summed up the following results which have answered the problems asked above:

ü The translation of the meanings of Quran can only transfer its general meanings but it remains unable to transfer all its aspects that appear in its miraculous style and its accurate description of some scenes. The best example to prove it is the translation of the first verses of Surat Al-Adiyat (The Racers). Allah said:

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (1) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (2) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (3) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (4) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (5)﴾.

In these verses, the Quran describes the horses of those who fight for Allah's cause when attacking their enemies. They produce sparks with their hoofs while galloping over rocky terrain and stir up clouds of dust.

When observing and listening to the Arabic words used to describe this scene, we notice a kind of strength in their meanings and voices, but it disappears in the translation that cannot transfer all the expressed meanings. The translation describes the same actions but has not the same effect.

ü The different Arabic verbs were translated into the same French verb “jurer” -which means “to swear”- even if they express different meanings. The verb “حلف” for example is used to express false oath contrary to the verb “أقسم”. This is confirmed by its use in the Quran in many contexts like the verse 62 of Surat An-nisa (The Women) where the oath is said by a group of hypocrites.

We have suggested some French verbs to translate each of the Arabic verbs according to their meanings:

- 1- The verb “Jurer” to translate “أقسم” because both of them have general meaning and used to express any oath.
- 2- The verb “se parjurer”, which expresses false oath, to translate “حلف”.
- 3- The verb “se jurer”, which expresses the meaning of oath exchange (two parts or more swear to each other), to translate “قاسم”.

4- The verb “conjurer”, which expresses a commitment by oath between two or more to do something fatal or disastrous, to translate “تقاسم” (at least in the context of Surat An-naml [The ants], verse: 49).

ü The different Arabic prepositions were also translated into the same French preposition “par”. Some of these prepositions have special use and others add second meanings to the oath.

For example: the “باء” can be used with or without the verb, and it can precede explicit or implicit nouns while the “واو” can only precede explicit nouns and used often without verb.

As for the “تاء”, it precedes only the name of “Allah” and it adds to the oath the meaning of exclamation. We have seen examples about it with explanations in Surat Yusuf (verses: 73, 85, 91, and 95).

To express this meaning, the translator added an exclamation mark at the end of the oath form. We would consider it a good solution if he did this only with “تاء”, but according to our analytic study, we have noticed that he put an exclamation mark with all prepositions when there is no verb in the oath’s form.

ü The oath itself is a very strong way to affirm the truth of a fact in all languages. But in Quran, we have noticed that it is supported by other means of affirmation which indicates the importance of the sworn facts.

The translator did not neglect those means; he translated them by French affirmation adverbs as: “certes”, “assurément”, “sûrement”...

But it happens sometimes that the translation is not appropriate for the original word. For Example, in Surat As-Shuara (The poets) - verse 44, there are two of the most strong affirmation means in Arabic which are: “إن” and the “لام”:

﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾

These two words were translated into French by “c’est... qui” which is usually used to attract the reader’s attention more than express affirmation.

So, we think that it would have been better if the translator expressed the meaning of affirmation by using one of the adverbs shown above then indicated that the action is related to the subject by the use of “c’est... qui”. Thus, the translation will be that way:

« Certes, c’est nous **qui** seront les vainqueurs ».

ü The oath negating form “لا أقسم” is used only in Quran and was explained by many meanings:

- It means “أقسم” (I swear) and “لا” is just a link.
- The origin of the form “لا أقسم” is “لأقسم” which expresses affirmation.
- “لا” (no) is used to deny something said before the oath and against it, then came “أقسم” (I swear) to express affirmative oath form.

According to the translation of Hamidallah, this form was translated into “Non! Je jure...” which means to deny something said before the oath, and then start a new sentence with the verb “to swear”.

الكلمات المفتاحية	Mots clés	Key words
القسم/اليمين	Serment	Oath
تأدية القسم/ اليمين	Prêter serment	To take the oath
صيغة القسم	Formule du serment	Form of the oath
صيغة نفي القسم	Formule négative du serment	The oath negating form
أدوات التوكيد	Adverbes d'affirmation	Affirmation adverbs
تناسب (بين طرفي القسم)	Convenance	Appropriateness
المقسم	Jureur	Juror
أقسم	Jurer	To swear
حلف	Se parjurer	To forswear
قاسم	Se jurer	To vow
تقاسم	Conjurer	To conjure
الترجمة الدينية	Traduction religieuse	Religious translation
النص المقدس	Texte sacré	Sacred/ holy text
البلاغة	Rhétorique	Rhetoric

قائمة المصادر
قائمة المصادر
المراجع
المراجع

- قائمة المصادر و المراجع:

- القرآن الكريم، رواية حفص عن عاصم، الطبعة الأولى، دار ابن كثير، دار القادري، دمشق - بيروت، 1417 هـ.

- أولاً: المراجع باللغة العربية:

1. أحمد خضير عباس، أسلوب التعليل في اللغة العربية، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، 2007م.
2. أحمد مختار عمر، مصطفى النحاس زهران، محمد حماسة عبد اللطيف، النحو الأساسي، ط4، منشورات ذات السلاسل، الكويت، دت.
3. أحمد مصطفى متولي، الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم و السنة النبوية، ط1، دار ابن الجوزي - القاهرة، 1426هـ / 2005م.
4. إسحاق إبراهيم بن عبد الله النجيرمي، أيمان العرب في الجاهلية، تحقيق محب الدين الخطيب، ط2، الدار السلفية بالقاهرة.
5. أمير عبد العزيز، إعجاز القرآن، ط1، مكتبة دنديس - جامعة النجاح الوطنية، نابلس - فلسطين، 1428هـ / 2007م.
6. أمير عبد العزيز، دراسات في علوم القرآن، ط2، دار الشهاب للطباعة و النشر، باتنة - الجزائر، 1408هـ / 1988م.
7. بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، (دط)، تحقيق أبي الفضل الدمياطي، دار الحديث - مصر، 2006.
8. بكري شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن، ط4، دار الشروق، 1980.
9. جلال الدين المحلي و جلال الدين السيوطي، القرآن الكريم و بهامشه تفسير الإمامين الجليلين، (د ط)، دار ابن كثير، (دت).
10. جورج موانان، علم اللغة و الترجمة، ترجمة: أحمد زكريا إبراهيم، مراجعة: أحمد فؤاد عفيفي، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة - مصر، (دت).
11. خالد قاسم بن دومي، دلالات الظاهرة الصوتية في القرآن الكريم، ط1، عالم الكتب الحديث، إربد - الأردن، 2006.
12. الرازي، الصحاح، عني بترتيبه محمود خاطر، ط2 دار الحداثة، 1983.

13. الزجاج، معاني القرآن و إعرابه، شرح و تحقيق: عبد الجليل شلبي، (دط)، دار الحديث القاهرة، 1424هـ/2004م، ج5.
14. الزمخشري، الكشاف، ط1، دار الفكر، بيروت- لبنان، 1977.
15. سفيان بن الشيخ الحسين، الإعجاز اللفظي و الإعجاز الترتيبي في القرآن الكريم، (دط)، مطابع ديوان المطبوعات الجامعية- المطبعة الجهوية بقسنطينة، دت.
16. سهيل إدريس، المنهل- قاموس فرنسي عربي، ط37، دار الآداب للنشر و التوزيع، بيروت- لبنان، 2007.
17. الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، دط، مطابع أخبار اليوم التجارية، 1991م.
18. شمس الدين السرخسي، المبسوط، ط2، دار المعرفة للطباعة، بيروت، لبنان، ج1.
19. شمس الدين القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: هشام سمير البخاري، دط، دار عالم الكتب، الرياض-السعودية، 2003.
20. الطاهر أحمد الزاوي، ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير و أساس البلاغة، ط3، دار العربية للكتاب، 1980، ج3.
21. عباس حسن، النحو الوافي، ط3، دار المعارف بمصر، ج2.
22. عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز و جل، ط4، دار القلم، دمشق- سوريا، 2009.
23. عبد السلام محمد هارون، الأساليب الإنشائية في النحو العربي، ط5، مكتبة الخانجي بالقاهرة، 2001.
24. عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية: علم المعاني، دط، دار النهضة العربية، بيروت- لبنان، 1984.
25. عدنان محمد زرزور، علوم القرآن- مدخل إلى تفسير القرآن و بيان إعجازه، ط1، المكتب الإسلامي للطباعة و النشر، 1981.
26. عز الدين محمد نجيب، أسس الترجمة، ط4، مكتبة ابن سينا، القاهرة- مصر، 2001
27. فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت- لبنان، ط1، 1981.
28. فخر الدين قباوة، إعراب الجمل و أشباه الجمل، ط3، دار الآفاق الجديدة، دت.
29. الفراء، معاني القرآن، ط3، عالم الكتب، بيروت، 1983.

30. ابن قيم الجوزية، التبيان في أقسام القرآن، علّق عليه و صحّحه فواز أحمد زمرلي، ط2، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، 1998.
31. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ط6، دار الأندلس، بيروت- لبنان، 1984.
32. محمد الأمين بن محمد بن المختار الحكيني الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، إشراف مكتب البحوث و الدراسات، (د.ط)، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، 1995م / 1415هـ، ج8.
33. محمد الطاهر بن عاشور، التحرير و التنوير، الدار التونسية للنشر- تونس، د.ط، 1984.
34. محمد الغزالي، كيف نتعامل مع القرآن؟، دط، دار الانتفاضة للنشر و التوزيع، د.ت.
35. محمد حميد الله، القرآن الكريم مع ترجمة معانيه إلى اللغة الفرنسية، منار للنشر و التوزيع، دمشق- سوريا، دون طبعة، 2007.
36. محمد عبد القادر أبو فارس، كتاب الأيمان و النذور، (د.ط)، دار الشهاب، باتنة- الجزائر.
37. محمد قطب، دراسات قرآنية، دار الشروق، ط3، 1982.
38. محمد كامل عبد الصمد، الإعجاز العلمي في الإسلام- القرآن الكريم، ط6، الدار المصرية اللبنانية- القاهرة ، يناير 2004.
39. محمد متولي الشعراوي، (د.ط)، تفسير جزء عمّ ، دار الراية للنشر و التوزيع، 2008.
40. محمد محمد داوود، القرآن و تفاعل المعاني. دراسة دلالية لتعلق حرف الجر بالفعل وأثره في المعنى في القرآن الكريم، (د.ط)، دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع، القاهرة، ج1.
41. محمود العزب، إشكاليات ترجمة معاني القرآن الكريم، ط1، نهضة مصر للطباعة و النشر و التوزيع، 2006.
42. محي الدين شرف النووي، المجموع شرح المهذب، دط، مطبعة الإمام بمصر، دت، ج3.

43. مريان لوديرار، الترجمة اليوم و النموذج التأويلي، نقلته إلى العربية نادية حفيظ، دط، دار هومة الجزائر، 2008م.
44. منصور إسماعيل الثعالبي النيسابوري، كتاب فقه اللغة و سرّ العربية، دط، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، دت.
45. ابن منظور، لسان العرب، ضبط نصه و علّى حواشيه: خالد رشيد القاضي، ط1، دار صبح وإديسوفت، 2006، ج11.
46. موسى إبراهيم الإبراهيم، تأملات قرآنية - بحث منهجي في علوم القرآن الكريم، (دط)، دار الشهاب، (دت).
47. وهبة الزحيلي، التفسير المنير (في العقيدة و الشريعة و المنهج)، ط9، دار الفكر بدمشق، (دت)، ج30.
48. يوسف القرضاوي، كيف نتعامل مع القرآن؟، ط2، دار الشروق، 2000م.

- ثانيا: المراجع باللغة الأجنبية:

1. A.Guichon de Grandpont, Sainteté du serment, Cherbourg- imprimerie de Thomine, 1846.
2. Alexis Nouss, la traduction des textes sacrés, théologique vol.15, n°2, 2007
3. Alexis Nouss, présentation : traduire le sacré, sacraliser le traduire, TTR : traduction, terminologie, rédaction, vol.3, n°2, 1990
4. Bergier, Dictionnaire de théologie, tome 4.
5. Danièle Aubriot-Sévin, Formulations possibles du serment et conceptions religieuses en Grèce ancienne.
6. Le grand vocabulaire français, Par une société de gens de lettres, tome 26,
7. Le petit Larousse illustré- 2001
8. Le Robert quotidien- Dictionnaire pratique de la langue française.
9. Mathieu Guidère, Introduction à la traductologie, 2^{ème} édition, de boeck.

- ثالثاً: البحوث و المجالات:

1. سامي عطا حسن، أسلوب القسم الظاهر في القرآن الكريم - بلاغته و أغراضه، جامعة آل البيت - المفرق، المملكة الأردنية الهاشمية.
2. سليمان بن علي، من أسرار القسم في القرآن الكريم، مجلة جامعة أمّ القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية و آدابها، رمضان 1425هـ، ع31، ج19.
3. سمية محمد عناية حاج نايف، صيغة نفي القسم في القرآن الكريم، أطروحة لنيل درجة دكتوراه فلسفة في اللغة العربية، جامعة بغداد، آب/أوت 2004.
4. علي بن محمد بن عبد المحسن الحارثي، أسلوب القسم في القرآن الكريم- دراسة بلاغية، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في البلاغة و النقد، جامعة أمّ القرى- المملكة العربية السعودية، 1991، المجلد الأول.
5. محمد بهاء الدين حسين، ترجمة القرآن الكريم: حكمها و آراء العلماء فيها، دراسات الجامعة الإسلامية العالمية شيتاغونغ بنغلاديش، ديسمبر 2006، المجلد الثالث.

رابعاً: المراجع الإلكترونية و مواقع الأنترنت:

1. Aubriot-Sévin, Formulations possibles du serment et conceptions religieuses en Grèce ancienne, *Kernos* [En ligne], 4 | 1991, consulté le 10 octobre 2012. URL : <http://kernos.revues.org/291>.
2. Charles Charrier, Le serment : étude de droit positif et de legislation , Thèse pour le doctorat, Université de Paris- Faculté de droit, 1899, (source : gallica.bnf.fr/ Bibliothèque nationale de France).
3. <http://cisseron.canalblog.com/archives/2007/10/15/6549249.html>
شوهده يوم 2012/07/14 على الساعة: 18.22
4. <http://fr.wikipedia.org/wiki/serment>, consulté le 19/11/2012 à 10h 03m.

5. <http://syrbook.gov.sy/content/> الترجمة-و الدين-ترجمة-النصوص-المقدّسة (لينين لونج/ ترجمة: محمد حبيب)
6. <http://www.jehat.com/Jehaat/ar/Ghareeb/Henry5-3-2013.htm> شوهده يوم: 2013/06/23 على الساعة: 01.24
7. <http://www.juritravail.com/lexique/Serment.html>, consulté le [20/11/2012](#) à 11.55.
8. Le petit Larousse 2009, dictionnaire multimédia.
9. René Mouterde, Du serment considéré comme moyen de preuve en droit civil ; romain et français, Thèse pour le doctorat, Faculté de droit de Paris, 1871, p13 (source : gallica.bnf.fr/ Bibliothèque nationale de France). [fr.wiktionary.org/wiki / jurer](http://fr.wiktionary.org/wiki/jurer)- consulté le lundi 19 novembre 2012 à 09h 44m.
10. www.asdaff.com / منتديات أصداف/ الصدقات الإسلامية/الإسلام و الشريعة/ القسم في القرآن الكريم - شوهده يوم 2011/01/20 على 22.13.
11. www.entretienschretiens.com consulté le : 26/11/2012 à 23h : 04m.
12. www.mediadeco.com/dictionnaire/definition/serment, consulté le 17/11/2012.
13. سعيدة كحيل، نظريات الترجمة- بحث في الماهية و الممارسة، تحميل من الموقع (mohamedrabeea.com/books/book1_1150.pdf.)

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات:

الصفحة

المحتوى

- كلمة شكر و عرفان
- مقدمة
- الباب الأول: دراسة نظرية
- الفصل الأول: القسم في اللغتين العربية و الفرنسية
- المبحث الأول: القسم في اللغة العربية
- أولاً: تعريف القسم لغة.....01
- 1- مادة (ق.س.م).....01
- 2- مادة (ي.م.ن).....02
- 3- مادة (ح.ل.ف).....03
- ثانياً: تعريف القسم اصطلاحاً.....05
- ثالثاً: أركان القسم.....05
- 1- المُقسِم.....05
- 2- المقسم به.....06
- 3- المقسم عليه.....09
- 4- حروف القسم.....11
- أ- الباء.....12
- ب- الواو.....12
- ج- التاء.....13
- د- اللام.....13
- هـ- من.....13
- رابعاً: أنواع القسم.....14
- 1- الظاهر.....14
- 2- المضمّر.....14

- 15..... خامسا: صيغة نفي القسم في القرآن الكريم.
- 16..... 1- الآيات التي وردت فيها صيغة (لا أقسم).
- 18..... 2- آراء العلماء في صيغة (لا أقسم).
- 18..... أ- (لا أقسم) بمعنى (أقسم)، و (لا) زائدة للتوكيد أو صلة في الكلام.
- 19..... ب- (لا) ردُّ لكلامٍ يُخالف المُقسَمَ عليه، و (أقسم) كلامٌ مُستأنف.
- 20..... ج- (لا أقسم) أصلها (لأقسم).
- 20..... د- (لا) في صيغة (لا أقسم) نفي للقسم.
- 21..... ه- آراء متفرقة.
- 21..... - (لا أقسم) بمعنى (ألا) للتنبيه.
- 21..... - (لا أقسم) كلمة قسم.
- 22..... - (لا أقسم) معناها الاستفهام الإنكاري.
- 22..... - (لا) في (لا أقسم) بمعنى الاستثناء.
- المبحث الثاني: القسم في اللغة الفرنسية

- 24 - تمهيد.
- 24..... أولا: تعريف القسم و صيغته.
- 40..... ثانيا: أنواع القسم.
- 40..... 1- حسب أغراض القسم.
- 41..... 2- حسب الاجراءات.
- 41..... 3- حسب المصدر.

الفصل الثاني: الترجمة الدينية

المبحث الأول: لمحة عن الترجمة الدينية

- 44..... - مدخل.

المبحث الثاني: ترجمة معاني القرآن

- 50..... - تمهيد.
- 51..... - حكم ترجمة القرآن شرعا.

- 1- آراء أصحاب المذاهب.....52
- أ- المذهب الحنفي.....52
- ب- المذهب المالكي.....53
- ج- المذهب الشافعي.....53
- د- المذهب الحنفي.....53
- 2- آراء المحدثين.....54
- أ- المعارضون.....54
- ب- المجيزون.....55

- الباب الثاني: دراسة تطبيقية

- تحديد المدونة و التعريف بصاحبها.....61
- استقصاء آيات القسم الصريح في القرآن الكريم64
- الفصل الأول: القسم بالله
- سورة النساء (62).....75
- سورة النساء (65).....80
- سورة المائدة(106).....86
- سورة الأنعام(23).....93
- سورة يوسف (73).....99
- سورة يوسف (85).....103
- سورة يوسف (91).....108
- سورة يوسف (95).....112
- سورة طه(72).....115
- سورة النمل.....119
- سورة ص(82).....121
- سورة الأعراف (21).....125

الفصل الثاني: القسم بالقرآن

- 130..... - سورة يس
- 134..... - سورة ص
- 141..... - سورة الزخرف
- 146..... - سورة ق

الفصل الثالث: القسم بالمخلوقات

- 154..... - سورة الحجر
- 160..... - سورة الشعراء
- 164..... - سورة النجم
- 170..... - سورة الواقعة
- 178..... - سورة الطارق
- 182..... - سورة الفجر
- 189..... - سورة الليل
- 194..... - سورة التين
- 201..... - سورة العاديات
- 206..... - سورة العصر
- 211..... - الخاتمة
- 220..... - ملخص باللغة العربية
- 225..... - ملخص باللغة الفرنسية
- 240..... - ملخص باللغة الإنجليزية
- 250..... - الكلمات المفتاحية
- 252..... - قائمة المصادر و المراجع
- 259..... - فهرس الموضوعات